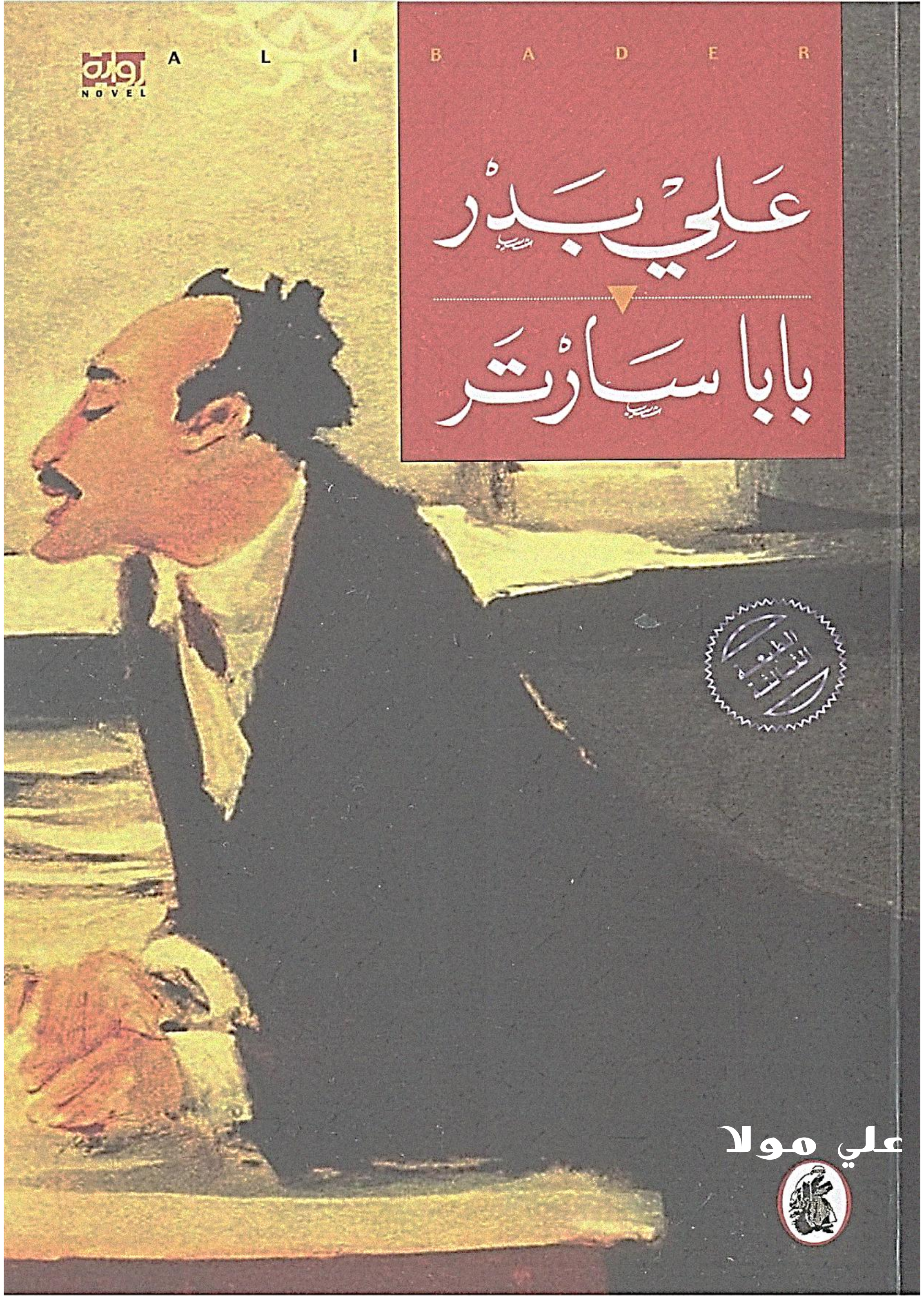
رواية NOVEL

ALI BADER

علي بدر

بابا سارتر



علي مولا

NOVEL

علي بدر

بابا سارتر

الطبعة الثالثة

بابا سارتر

بابا سارتر / رواية عربيّة
علي بدر / مؤلّف من العراق
الطبعة الثالثة ، 2009

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب 5460-11 ، هاتفاكس 751438 / 752308 1 00961
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157 ، عمّان 11191 ، الأردنّ
هاتف 5605432 6 00962 ، هاتفاكس 5685501 6 00962
e-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والخطوط والإشراف الفنّي :
®
لوحة الغلاف : **سيف وانلي / مصر**
الصفّ الضوئيّ : **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان**
التنفيذالطباعيّ : **ديمو برس / بيروت ، لبنان**

ISBN 978-9953-36-895-3

رحلة البحث

الشيطان المدمر حنا يوسف ، حفار القبور ذو السحنة المرعبة ، وصديقته الخليعة التي كان يطلق عليها اسمًا توراتيًا غريبًا (نونو بهار) ، هما من أغوياني بكتابة سيرة حياة الفيلسوف العراقي الذي كان يقطن محلة الصدرية إبان الستينيات .

في الواقع ، لم يكن ينقص هذين الدجالين الفضائحيين حب الفلسفة ، ولا الفضائل المتحمسة ، ولا النبوغ ، إنما ما كان ينقصهما حقًا هو الشرف إذ كانا يعتمدان اعتمادًا كليًا على فساد الأخلاق .

كنت تعرفت إليهما في الشتاء الماضي ، فزرتهما في نزلهما المطل على مقبرة ملحقة بكنيسة (أم المعونة) خلف بارك السعدون ، وهو نزل صغير كان قد استأجره لهما تاجر عراقي نصف مجنون ، نصف معربد ، وغير شريف بالمرة ، يطلق على نفسه صادق زاده ، أدركت فيما بعد أنه هو الذي كان يموّل رحلة البحث عن حياة الفيلسوف .

كان قد قدمني لهما صديق قديم في دار المخطوطات القديمة في بغداد ، فسحرني حنا بصوته المتقطع ولهجته الحادة ، وسحنة وجهه المقابرية ، كان

ذلك في يوم تشريني مشمس ، تتخلّلهُ بعض الرياح الباردة ، فقال لي بسحنته الرؤيوية ويده على كتف صديقته التي تعلك بصورة مستمرة : (منزلي في بارك السعدون ، قرب بقالة الأثوري ، سأنتظرك يوم الأحد في الضحى) .

ضحى الأحد كنت انعطفت من مبنى البريد نحو الضاحية المسيحية المحيطة بحدائق بارك السعدون ، كانت الأشجار صفًّا أمام المنازل الخفيضة ، فشممت رائحة تضوع من الإسفلت الصقيل المبلل بالمطر ، وفي نهاية الجادة كنت رأيت بقالة الأثوري .

في الواقع لم تكن بقالة الأثوري كبيرة ، إنما متجر ضيق ببابين خشبيين مثبت وسطهما مصراعان نحاسيان كبيران كانا يلصفان بصورة مكتومة ، وواجهة البقالة مبلطة ببلاط أبيض ، وهناك منصة رخامية تحمل أواني نحاسية ، وسلال فواكه مغسولة ، وزجاجات ويسكي وعرق محلي ونبيذ فاخر موضوعة بصورة مرتبة خلف الواجهة الزجاجية ، ووراء الأثوري صورة مثبتة على الحائط لوجه جامد يرتدي بذلة مطرزة بالنياشين .

فسألته :

«أين منزل الأب حنا يوسف؟»

«من قال لك إنه أب» . وانفجر الأثوري ضاحكًا بشاربيه الأبيضين المستقرين على فمه مثل حليب ، كانت عيناه الزرقاوان الغائرتان ووجهه الناتىء العظام تتهكم . لم يجبني . إنما أجابتني زوجته التي كانت تجلس إلى جانبه ، وهي تشير إلى دوحة خضراء منتصبة في الساحة ، قالت وهي تشير بإصبعها النحيف :

«هناك أمامك» . ولم يبق من ذكرى وجهها الآن سوى جدائلها المصففة بشكل هالة منتصبة ، وإطارات نظارتها الطبية ، ووجهها الباكي الذي يذكّر بحواء بعد طردها من الجنة .

حين وصلت سياج المقبرة ، رأيت المنزل الصغير الملحق بجانب مهدم من الكنيسة ، كان الماء يتحرك في منخفض صغير عند السياج ، فيترك غشاء فضيًا رقيقًا في الهواء ، كنت أسمع صوته وهو يجري بعذوبة ، فتحولت نحو السور المصنوع من الطوب الأحمر ، وهو يحيط بأرض واسعة ناعمة الحشيش ، يبزغ حول سدر عجوز ناعم الأوراق ، بين صفوف من الزهر المتناثرة من غير نظام ، تحت العرائش العريضة التي تهتز بفعل العصافير التي تجري وتنط من مكان لآخر .

كان هنالك رجل يلف رأسه بقماشة بيضاء ، يرتدي بنطلونًا حائل اللون ، ويمسك سكينًا طويلة حادة ، أخذ يذبح ديكًا ملونًا في الحديقة ثم رماه على الحشيش ، وهو يتخبط بدمه ، فسألته إن كان هذا البيت هو بيت حنا يوسف أم لا ، فأجابني بالإيجاب ، وأنا أنظر إلى بقعة من الدم حمراء على الحشيش تبرق في وهج الشمس . كان لقاؤنا حميميًا وديًّا ، فحنا الذي استقبلني ، كان يبتسم على الدوام فيتسع شاربه الصغير الذي يستقر على فمه مثل خط أحمر من النبيذ ، أخذني نحو الصالة المقابلة للخوان ، حيث الستائر مشغولة بنقوش صغيرة لأزهار مصبوغة بلون وردي ، وكنت أسمع وشيش الدوش في الحمام الذي يختلط مع صوت عجلة سيارة في الخارج تكشط الإسفلت .

فسألته إن كان هنالك شخص آخر في المنزل ، فقال :

«نونو في الحمام» . وبعد ذلك أخذت أسأله عن الفيلسوف ، وعن كتبه التي صدرت في حياته ، فقال لي وهو يهز برأسه الأحمر الصغير وعيناه الزرقاوان تلمعان :

«لا . . . لا هذا الأرعن لم يكتب كتابًا واحدًا في حياته» .

«أرعن . . .!» قلت .

«كل فيلسوف أرعن» ، قالت نونو بهار وهي تسير أمامنا عارية بعد

خروجها من الحمام .

«لم أفهم» . قلت وأنا أنظر إلى نونو بهار ، التي اعتدلت واقفة أمام الأريكة المغطاة بوسائد حريرية وشراشف متناثرة ، وهي تزرر قميصها بيديها ، ثم تناولت البنطلون فارتدته على لحمها العاري دون أن ترتدي كلسونًا ونظرت بإزائي .

كانت أبقت الزر العلوي محلولاً ، فاستبان ثدياها المكتنزان تحت النسيج الناعم ، وقالت :

«نعم! كل فيلسوف أرعن . لكن هنالك أرعن يكتب كتبًا تسهّل الأمر على الذين يكتبون سيرته ، وهنالك أرعن لا يكتب كتبًا ، فيقتضي أن ندفع مالاً لشخص ينقب ويكذب ويؤلف ، ليصنع منه فيلسوفًا حقيقيًا» .

اندهشتُ من الطريقة التي واجهتني بها نونو ، كان كلامها يشي بأن فكرة كتابة سيرة فيلسوف هي أمر هين ، وقد أدركتْ بأني كنت متهيبًا من عملية الكتابة ، لذا فإنها أرادت أن تدفعني بالاتجاه المعاكس بصورة ملتوية .

كان وجه نونو بهار يتصبب ماء ، ويلتمع شعرها الأسود الفاحم تحت نور المصباح الموضوع في الزاوية ، وحين اقتربت مني قال :

«تعرف . . . الفيلسوف صناعة ، نعم . . . صدقني! صناعة» .

فأحسست بلحمها الحار وراء القميص المفتوح الذي يكشف عن صدرها الباذخ .

«من يصنعه؟» قلت .

«نحن» قال الدجالان كلاهما .

«أنت ستكتب سيرة هذا الرجل ونحن نقوم بتغطية نفقات جمع المعلومات ، والوثائق ، ومن ثم سندفع لك» . قال حنا ، ثم أكملت نونو بهار :

«سنعطيك اليوم وثائق أولية ، وبعض الدلائل الجغرافية ، ستكون نقاط انطلاقك ، أرجوك ، لا تتوقع أن تكون المهمة شاقة ، حياته بسيطة غاية البساطة» .

«أتتوقعين ذلك؟» قلت .

«نعم» .

في الواقع كنت فرحت فرحًا كبيرًا بالمال الذي وعدوني به ، لا سيما أني كنت مفلسًا إفلاسًا لا يعرف مقداره إلاّ صديقي الذي يعمل محققًا في دار المخطوطات ، وربما هذا ما أدركه الفضائحيان كلاهما ، وحين أدركا فرحي وقبولي بهذا الأمر ، بدأ بجمع أوراق مختلفة ، وملفات ضخمة ، ووثائق كانت موضوعة بشكل غير مرتب في المكتبة التي كانت تقابلنا .

كان حنا أكثر عنفًا في تقليب الكتب الجلدية الحمراء ، وإزاحة المحابر الزجاجية العريضة ، وهو يضعها على مكتب تتناثر عليه أقلام ملونة ، ودبابيس ، ومرايش ، ودواة صغيرة من السائل الأحمر .

«هذه وثائق مهمة تساعدك على معرفة طفولته ، وأيام دراسته وبعض المعلومات عن الشخصيات التي كانت تتصل به» .

أخرج حنا منديلاً من بنطلونه المربع المنقوش ، وأخذ يمسح مكتبه ، ثم جلس على مقعد من القش وأخذ ينظر نحوي بحذر ، وناولني ملفًا مخططًا سميكًا .

«هذا ملف بيت نادية خدوري الذين كانوا شركاء بيت لاوي تجار السيارات» ، ثم أخرج مجموعة أخرى من أوراق مربعة وقال :

«هذه الأوراق مهمة تخص شاؤول» ، فقالت نونو بهار :

«هذه المعلومات والوثائق لا تكفي ، إنما ستدلك فقط من أين تبتدىء ، والأمكنة التي ستجد فيها المعلومات والوثائق الأخرى المهمة» .

كانت نونو بهار تتكلم وهي تعلك ، وعيناها تلصفان ببريق شهي

ومثير ، فحولت عيني إلى الأوراق التي في يدي وأخذت أقلبها ، لم تكن الوثائق وثائق بالمعنى الدقيق للكلمة ، إنما معلومات مكتوبة بأسلوب مبتذل وزائف ، بعضها لم يكن سوى مراث تأبينية تنعم براحة البال لأولئك الذين عدوه في حياته أحمق ، وتحاول أن تثبت بشيء من السخافة ، ما كان يملكه من حكمة ونبوغ . لم تكن هذه الأوراق التي تتسم بالتذبذب مصدر إزعاج . . . بل على العكس من ذلك ، كانت مهمة في إيضاح بعض المشكلات الأولية التي تخص السيرة ، لكن مشكلتها العسيرة ، وهذا ما يمكننا أن ندركه من النظرة الأولى ، أنها أكداس عسيرة الهضم مكتوبة بأسلوب مبتذل ، وإطراء ممل ، وفقر - يرثى له - من التجرد ، بينما ما كنت أبحث عنه هو الوثيقة التي تحتوي على معلومات محايدة ، حتى وإن كانت وثيقة بليدة ، فإنها يمكنها أن تكون عونًا كبيرًا مهما كانت تتسم بالبطء والفظاظة .

لكن هذه الوثائق التي زودوني بها هي وثائق مكتوبة بأسلوب مفتعل ومنحاز ، ولم تكن ، طوال فترة كتابتي للسيرة سوى عائق ، كان عليَّ أن أحييها بروح تهكمية وأن أسخر من سماجتها وضحالتها . وأنا أقلب الصفحات كان عليَّ أن أدقق بحكايات مثل :

ما إن لامس الفيلسوف الغصن أمام حسنية حتى تفتحت أزهاره ، أو ما إن مسك الدجاجة بيديه حتى باضت في حضنه بيضة تزن نصف كيلو .

هكذا كنت أقلب أوراقًا تجعل العربنجي عملاقًا هائلاً صامتًا وغامضًا ، وهي قدرة بعض الشخصيات على التشويه والتقليد والتناقض دون الشعور بمراتب متميزة لمجافاتها العقل ، لكن المهم هو الأسماء ، أسماء الخدم والسادة والأدباء والتجار والأبناء والشخصيات التي كان عليَّ أنا البحث عنها في مكان آخر ، لا في هذه الأوراق المكتوبة بشكل بغيض

ومحرض .
فسألت حنا إن كان للفيلسوف أصدقاء ، فأجابت نونو بهار بصوتها الكسول :
«سنعرّفك إلى التاجر صادق زاده ، فهو وحده الذي يعرف عن حياته الخاصة الكثير ، والمحامي بطرس سمحيري ، هذا أيضًا عليك أن تلتقيه ، فلديه هو الآخر وثائق رسمية تعينك على الكتابة» . ثم جلسنا على كراسي موضوعة عليها وسائد من الساتان الأخضر ، متحلقة حول المدخنة الرخامية ، ومن العتمة ينبعث نور خفيف وقاتم ، وحينما فتحت نونو بهار النافذة كنت شممت رائحة السدر مختلطة بالتراب وبقية عطر نسائي فائر .
«متى ستبدأ العمل؟» ، قال حنا يوسف بشبابه العارم المكتوم .
«غدًا» .
«هنالك رسائل أكتبها لك ربما تعينك وتسهل مهمتك ، كما لديَّ أيضًا نصيحة» .
«ما هي؟» .
«هل أنت أخلاقي؟» . . . كان يبتسم بينما كانت نونو تلعب بقلادة تستقر بين نهديها .
«أنا رجل شريف» . . . قلت لهما في الحال .
«هذا ما عليك أن تحذره» وضحك الاثنان ضحكات خفيفة مكتومة ، فقامت نونو بهار من جانبي بشعرها الوحشي ، وهي ترفع يدها حيث يظهر جانب صغير من صدرها بين الإبط والثدي .
«نحن لا ندفع لك المال لأنك رجل شـــــريف . . . لا . . . لا على الإطلاق» . قالت نونو بهار وانفجرت بضحكة ناعمة ، وتابعت بصوت كسول :
«كلنا شرفاء ، ولكن شرفنا لا يصرف علينا» .

«لا أفهمك حنا! تريدني أكتب أمورًا حقيقية أم زائفة؟» .

«شيء آخر ، على العموم عليك أن تعرف أن الحقيقي والزائف ليست متناقضات في عملك ، وأنت لا تقبض مالاً لأنك تكتب الحقيقي» .

«أنا سأكتب عظمته وحقارته في آن واحد» .

«اكتب ما تشاء وليكن هذا الحمار أعظم من جان بول سارتر ، لا يهمني على الإطلاق ، ما يهمني هو أني سأقرر معك بعض التفاصيل المهمة في حياته» .

«حينما تصل إلى النهاية ستفهم» قالت نونو .

في الواقع لم أفهم الكثير مما قالاه لي ، ولكني أدركت أن العمل مع هذين الدجالين ليس بالأمر السهل ، فلهما مطالب أخرى لا أعرف كيف يمكنني تسويتها معهما ، ولكني بعد دقائق من الصمت أدركت بأن عليّ أن أغادر المكان ، فاستأذنت على أمل اللقاء بهما في الأيام الأخرى .

فتقدم حنا نحوي وأخذ بيدي ، وكأنه يريد أن يخرجني بحنان وعاطفة صادقة من الباب ، وكانت نونو بهار تجلس وراءه مباشرة على كرسي مصنوع من الخيزران ، وتضع أقدامها الحافية على طابورية رخامية مغطاة بمفرش أبيض مخرم ومطرز من حرير ، وقد فتحت ركبتيها باسترخاء واشتهاء .

خرجت في الظهيرة من المنزل ، وأخذت أسير في شوارع بارك السعدون الضيقة ، ذات الأرصفة المبللة والأعمدة المبنية بالآجر الخشن ، كانت الفتيات المسيحيات يدخلن الكنيسة التي أخذت نواقيسها النحاسية الصلبة تدق فيتردد صداها بين المنازل ، وقد غطت أسيجتها العرائش والسدر الضخم ، كن يرتدين الملابس الإفرنجية الناعمة النسيج ، والأحذية وبالكعوب العالية ، وعلى رؤوسهن البراقع الخفيفة المخرمة .

لم أكن أعرف حنا يوسف من قبل ولا نونو بهار ، ولكني أدركت أن

لهذين الدجالين أمرًا خارج السيرة ، أو لنقل أمرًا بالسيرة ، وهذا ما لا يفوت المرء أحيانًا ، إنما يتجاوزه لسبب من الأسباب ، أما سببي الحقيقي الذي تجاوزت به هذا الأمر فهو المال ، لقد كنت مفلسًا تمامًا ، فلم أجد نفسي ضائعًا أو مترددًا إنما كان عليّ أن أقرر الأشياء فيما بعد ، وربما في اليوم التالي ، وهو اليوم الذي أطلقت عليه (يوم رحلة البحث عن سيرة الفيلسوف) وهذا بطبيعة الحال أمر لا أخلاقي ، فأنا لم أكن طوال حياتي أخلاقيًا موسوسًا ، ولا فضائحيًا متحمسًا ، إنما لم أدرك في ذلك الوقت أن للشرف والأخلاق هذا التأثير المسموم على بعض الناس .

لم أكن معنيًا على الإطلاق بإنجاز شيء من الروائع الأخلاقية ، كما لم أكن معنيًا بتقليد هذا التشويه الذي طرحه عليّ حنا يوسف ونونو بهار ، أو محاكاة وسائلهما ، كما لم أكن مسكونًا بفكرة الخير أو النبل أو العفة أو الصرامة على الإطلاق ، كما أني لم أجعل من السيرة نوعًا من الإحساس بالخوف أو الإعجاب المبالغ به ، ولا العداء الذي يسربه هذان الدجالان لي ، فأنا لم أكن - مثل أي شخص آخر - متحررًا من العواطف العنيفة ، والقدرة على الاختراع ، لكني لم أكن ذا نية في الدخول إلى التاريخ المأساوي للعالم ، كان في روحي على الدوام نوع من التحرر ، ولم يفسد الإحساس بالحب أو الكراهية عواطفي الأخلاقية .

وهكذا كنت في اليوم التالي أفحص الوثائق والأوراق والصور والمعلومات ، التي هيأها لي حنا ونونو بهار ، وإن كان عليّ أن أذكر شيئًا مهمًا فعليّ أن أذكر :

بأنني لم أكن أتوقع أن الأمر بهذه السهولة ولا بهذه الطلاقة ، وأن هذا الأسلوب الشتائمي الوقح الذي واجهني به هذان الدجالان لم يكن يخلو من مرح ، وما كان عليّ أن أقوله أيضًا إن هذين الشريرين قد جذباني بسحرهما الذي لا يقاوم ، وقدرتهما على تسخيف الناس وتسطيحهم ،

واللعب الذي يمكنهما من خلاله خلط الحقائق بالكذب ، والمبالغة بالتزوير ، دون الشعور بالتناقض أو بالمفارقة ، وإنهما مكناني من الشعور بغياب التدقيق أحيانًا ، وتقليل التمسك الصارم بالشروط الموضوعية .

لا أدري لماذا سحرتني براعة نونو بهار ، فضائحيتها ، تخنثها ، ولا أخلاقيتها ، ربما لأنها حررتني من شيء طالما احتقرته ، وهو إسباغ نوع من الكمال وسمو المعرفة على الشخصية التي أصبحت اليوم رمادًا في قبر ، فلولا الشتائم الجانية وهذا القدر الكبير من الاحتقار واللاأبالية لكنت كتبت شيئًا شبيهًا بما كتبه أدامنن عن حياة القديس كولومبا .

***

ضحى الثلاثاء كنا خرجنا في رحلة البحث عن المعلومات والوثائق التي تخص حياة الفيلسوف ، أنا وشخص آخر اسمه جواد ، كان قد كلفه حنا يوسف بمرافقتي وتتبع خطواتي . كان لجواد وجه شبيه بوجوه النشالين : الملامح المجعدة القاسية ، السمرة الضاربة نحو الاحمرار ، والشارب المتهدل المصفرّ بسبب التدخين . كان جواد يختبىء تحت ملابسه ، ملابسه الجديدة التي يرتديها للمرة الأولى والتي لا تليق به ، وكان لديَّ إحساس ثابت ، بأن حنا كلفه بمراقبتي لا بمرافقتي ، ولم يكن هذا الأمر يعيقني على الإطلاق إنما كنت أحاول استخدامه بصورة مثالية لصالحي .

كانت الشمس ، ضحى ذلك اليوم ، خافتة وسط سحاب أبيض متقطع ، ونحن نخطو الخطوات الأولى لجمع المعلومات الشفهية والوثائق والتقاط الصور الفوتوغرافية للحي الذي كان يقطنه الفيلسوف في الستينيات . وقد كلفت جواد الذي كان يحمل كاميرا على صدره باختيار الزوايا المناسبة التي تُظهر جمال المحلة ، وطابعها الأصيل ولا سيما السوق ، والأزقة المتقابلة والجامع والخان والإصطبل وغيرها ، ومن ثم أعددت

برنامجًا تفصيليًا دقيقًا لوصف الأمكنة التي كان يرتادها الفيلسوف ، وذلك من أجل تهيئة مادة خام تفيدني في تأطير الشخصية وفي رسم الخلفية المناسبة لها .

كان شق الطريق صعبًا ، فأزقة الصدرية مظلمة ، تتوزع بشكل ملتو لتصب مرة واحدة في شارع واسع شيده الملك غازي في الثلاثينيات ، وكان سيرنا متعثرًا بفعل قناطر صغيرة شبه مهدمة ، تعترضنا في الوسط ، وهي مختفية بمياه تصدر بدوامات متقلبة ، تغطي أحيانًا نصف عجلات عربات السحب الصغيرة التي تجتاز هذه الأزقة المتجهة إلى سوق الدهانة ، أو إلى محلة سراج الدين ، أو إلى سوق الشورجة ، وكنا بين آونة وأخرى نلتصق بجدران المنازل الرطبة ، حين تمر إحدى العربات التي تجرها الخيول بأكفالها السمينة الصهباء ، وحمحماتها المكتومة حيث يتكاثف البخار الخارج من مناخرها بسبب تيارات الهواء الباردة التي تلفحها ، والعربنجية يسوطونها بالقمجيات وهم يصرخون (بالك . . . بالك . . . بالك . . .) .

كان عليَّ أولاً أن أرسم خريطة جغرافية صغيرة للمكان ، وهو مخطط محلة صغير ، يؤشر إلى المواقع التي كان الفيلسوف يرتادها ، وكنت أسجل المعلومات التي تصف منزله المنيف الذي يقع في رأس جادة الطبيب سيمون بهلوان ، ثم بعض المعلومات عن الإصطبل القريب من جامع سراج الدين ، وهو إصطبل تظلله تعريشة خشبية صلبة ، وأكوام من البرسيم وعجلات مخلوعة ، وبعد ذلك هنالك الخان الملاصق للإصطبل حيث كان الخفير نائمًا على الكنبة الطويلة الموضوعة أمام المقهى المقابل للجامع استعدادًا لدورية الليل . وفي الوسط كان هنالك (حِبّ الماء) الذي يرشح وقد لفته قطعة من الجنفاص ، وبعد ذلك عينت محل اليهودي شاؤول في سوق الصدرية ، وهو محل صغير تغير ألف مرة منذ هجرة شاؤول إلى لندن في السبعينيات ، وكان عليَّ أن أرسم خطوط المواصلات بدقة ، وهي

الخطوط التي تربط المنزل بالمواقع التي كان يرتادها الفيلسوف بعد ذيوع شهرته أي بعد عودته من باريس ، ومن ثم المواقع التي صاغت حياته وهي مواقع بعيدة نوعًا ما عن محلة الصدرية ، فكان عليّ : أولاً أن أعيّن المسافة بين منزل الصدرية الذي استقل به ، وبين منزل جده وهو المنزل الذي ولد فيه ، وقضى فيه طفولته ومراهقته وشبابه والذي يقع في شارع المعارف قرب كنيسة الأرمن الأرثوذكس ، ومن ثم منزل نادية خدوري وهو منزل عتيق يقع في الشارع ذاته ، ومن ثم كان عليّ أن أقرن هذه النقاط بالشخصيات المهمة في سيرة الفيلسوف :

إسماعيل حدوب الذي سكن الخان الملاصق لجامع سراج الدبن فترة من الزمن إبان الخمسينيات ، شاؤول حيث كان محله يقع في قلب سوق الصدرية في نقطة تلاقيه مع الدهانة وحي سراج الدين ، بيت لاوي صاحب شركة السيارات في شارع الرشيد ، نادية خدوري التي كانت تعمل في مكتبة مكنزي في شارع الرشيد ، إدمون القوشلي الذي كانوا يطلقون عليه تروتسكي في الستينيات والذي تعرف إليه في مقهى واق واق في باب المعظم حين كان يجالس ديزموند ستيوارت ، ومجموعة من الناس مثل خفير الصدرية ، وجاسب الأعور ، والراقصة دلال مصابني ، وروجينا الخدامة ، وحسنية الغسالة وسعدون السايس وعطية البستاني وغيرهم .

لقد استمر البحث ، ورسم العلامات المهمة ، وتعيين النقاط التي لها علاقة بحياة الفيلسوف مدة لا تقل عن شهرين ، وقد كان لزامًا عليّ أن أثبت الأماكن العامة التي كان الفيلسوف يرتادها ، مثل ملهى «جريف أدب» الذي تملكه الراقصة دلال مصابني ، وعلاقته بهذه الراقصة ، وبمجموعة أخرى من الراقصات اللواتي كنّ يتبعن فلسفته ، والمقهى السويسري في شارع الرشيد ولقاءاته المستمرة مع بعض الشخصيات

الأدبية ، حيث كان يلتقي إسماعيل حدوب ، وإدمون القوشلي وغيرهما ، ومن ثم كافتريا «اكسبريس الشرق» في شارع الرشيد حيث كان يلتقي نادية خدوري ، أثناء زيارته لبغداد ، سينما «قدري الأرضروملي» وأماسي السينما الفرنسية ، استراحة سينما «روكسي» حيث كان يلتقي بعض العائلات المقربة لعائلته ، استراحة سينما «رويال» ، وكذلك مكتبة «مكنزي» حيث كانت تعمل نادية ، ومن هناك كان يشتري آخر الكتب الوجودية ، و«نادي العلوية» حين كان يلتقي بعض أقاربه وبعض أصدقاء طفولته وبعض الوجوه السياسية التي كانت تلتقي بوالده .

***

كانت عملية كتابة السيرة تغريني كلما توغلت في معرفة النقاط المهمة من حياة الفيلسوف ، وهي الملاحظات البسيطة التي قد تجلو فترة غامضة مبهمة بأكملها ، ومع إدراكي التام بأن جمع هذه الملاحظات ومحاولة تأليفها مرة أخرى عن حياة شخص أصبح الآن ترابًا ، لم تكن أمرًا سهلاً على الإطلاق ، فكنت أتعرض بين آونة وأخرى لخداع وغش فظيعين من الناس الذين يصنعون من كل واقعة بسيطة أمرًا خطيرًا وهامًا ، وذلك لقدرة بعض الناس على تهويل الماضي وإضفاء قدر مقدس عليه .

فكنت ألتقي بأناس معجبين بكل الميتين ، وكانوا يدلون بمعلومات إعجازية تعرضت لتشويه فظيع يصعّب ردها إلى أصولها الحقيقية ، وكان عليّ أن أطهر هذه المعلومات وأنقيها وأحافظ على التغييرات البسيطة والمؤقتة التي تطرأ عليها . وحين التقيت بروجينا الخدامة وقد أصبحت امرأة متهدمة ، فقيرة ، معوزة ورثة ، كانت تتجاوز بصمت طفولة الفيلسوف ومراهقته ، كانت تتجاوز كل أخطائه وحماقاته ولا تريد أن تعترف بأية فضيحة ، إنما كان جهدها ينصبّ على تقوية إيمانها بنبل أهله وشرفهم ، وكم كان والداه مسكونين بالخير والنبل والاستقامة ، وهكذا كنت أجمع

معلومات محشوة بالفضائل ، ولم أجد أية معلومة تفتقر إلى التعاطف ، فكان عليَّ أن أدقق بشكل صارم خدعهم الكلامية وتعاطفهم اللامحدود مع من كانوا يحتقرونه في حياته احتقارًا شديدًا ، وربما هم الذين سببوا نهايته الفاجعة في الستينيات .

ومع أني كنت أحصل من مكان لآخر على بعض الرسائل ، والصكوك ، والمعلومات التي لم تكن تخلو من لمسة خفيفة من الكاريكاتير ، إلاّ أنني أجد الآن أن هذه الشخصية دمرها الكذابون بالتخفيف أحيانًا ، وبالمبالغة غير اللائقة وغير المشروعة في أحايين كثيرة . ولذا كنت أجد ، وأنا أبحث عن حياته الداخلية ، حالات ضعفه وإنكاره ، وتمسكه بالعقائد والأفكار ، وقد كانت تشوهه وتمنحه في نهاية المطاف - بصورة عسيرة - ملامح بارزة ، أكبر من ملامحه الخفيفة ، ومع ذلك فالمعلومات الصغيرة التي زودني بها حنا يوسف ونونو بهار لم تكن سيئة إلى الحد الذي رأيت فيه الناس وهم يتكلمون عنه ، ولا سيما المثقفون الذين عاصروه ، إذ إنهم يتكلمون عنه بصورة عشوائية ، فهم يتحدثون معك ربما خمس ساعات أو ستًا دون أن تظفر بشيء .

كنت التقيت أحدهم يوم الجمعة في سوق السراي ، وهو يقرفص باحثًا عن الكتب القديمة المرمية على الأرض ، فاقتربت منه لأسأله عن معرفته بالفيلسوف ، فانتصب أمامي وهو يتأبط كتبه ، كان يشبه وكيل الباشا : السدارة المائلة على الرأس ، الشارب المستقر مثل شريط مستقيم الحواف ، وقاطه ضيق مزرور عند بطنه السمين المتعاظم ، وقف أمامي بصورة مستقيمة بينما كانت الكتب مرمية على الأرض عند قدميه . صورة مضحكة لشخص يقف والجموع تدعكه يمينًا وشمالاً وصوته يختلط مع صراخ الوراقين وصياح دلاّلي الكتب وأبواق السيارات التي تزمر وهي تسير في الشارع الضيق المزدحم .

- كان المرحوم فيلسوفًا عظيمًا ، تزوج من ابنة خالة سارتر ، هو الذي علم الستينيين العبث والغثيان ، وكان سهيل إدريس وجوديّ عصره معجبًا به ، هذه الفلسفة مهمة في عصرنا ، ذهب ذلك الجيل مع الأسف ، هو الجيل الوحيد الذي قرأ دروب الحرية والغثيان والوجود والعدم . كانت عدميتنا حقيقية وليست مزيفة وقد حاربنا الجواسيس والعملاء لأننا أدركنا كنه الوجود .

كلما كنت أمسك بشيء يهرب مني ، حتى وجدت نفسي في النهاية وكأني أضع يدي على قارورة من سراب ، وربما يتعذر عليّ الآن أن أعيد هذه الأفكار والصور التي ولّت إلى الأبد ، يتعذر عليّ وأنا أسمع كلام كل من عاصره ، أن أجد شيئًا حقيقيًا ، بل أكاد أقول إني لا أجد غير بقايا غبار ، حتى لكأني لا أشك ولا لحظة واحدة بأن هؤلاء الحمقى لم يكونوا سوى مجانين .

ولكني كنت ملزمًا بجمع كل شيء ، كنت أتصيد كل ما كان يمكنني صيده ، فجمعت ما جمعته من الوثائق التي تحوي كل الإهانات والمدائح من الناس كافة ، حداثقجية غير ماهرين ، مستوطنين فطِن ، صيادين مداهنين ، رجالاً عابثين ، وخدماً شهمين ، وساسة ، وقديسين . وكنت أصمم بشكل تخميني الخلفية وفق الأسماء والحركات الدالة التي كنت أستنطقها دون توظيف ، ومن ثم أحاول استذكار العواطف والمشاعر الخاصة ، واللوعات ، أو الأشياء الصغيرة التي تختلط بالمشاعر المضطربة التي تخص الفيلسوف . وكنت أفدت من الوثائق التي قدمها لي حنا يوسف ولا سيما الوثائق المنصصة ، والذكريات ، والصور الفوتوغرافية ، والمذكرات اليومية للفيلسوف ، أو لوالده ، أو لغيرهم ، واستبعدت الوثائق التي تحتوي على التعليقات التي لم تكن في واقع الأمر سوى موجهات دسها حنا يوسف ونونو بهار لحرف الوقائع ولتضليلي ، والتي تتسم

بالابتذال والافتقار إلى الصدق ، وكنت أتعرف إليها ببساطة ، حيث كانت مكتوبة بخطوط مختلفة ، وأقلام متنوعة ، ومع أنها لم تكن تناقض الوثائق التي وجدتها من مكان لآخر ، إلاّ أني استبعدتها لأنها لم تكن سوى تأويل معاصر لأحداث مرت منذ زمن بعيد . وفي النهاية أدركت أن الوثائق التي هي في غاية الأهمية كانت بحوزة اثنين هما : المحامي بطرس سمحيري ، وهي وثائق رسمية تدلني على النقاط المهمة في حياته ، وفيها تفصيلات دقيقة ومهمة ، فكان عليَّ أن أحصل عليها كي أستطيع تخطيط المظهر الخارجي لحياة الفيلسوف ، والأخرى كانت بحوزة التاجر صادق زادة ، وهو تاجر عراقي يعمل بتجارة التحفيات ، والسجاد والأنتيكات ، وهي وثائق تخص المراحل المهمة من حياة الفيلسوف ، وأفكاره ، وعلاقاته السرية مع الراقصات ، وبنات الهوى ، والشخصيات العامة ومن خلالها أستطيع تنظيم المظهر الداخلي للفيلسوف وحياته النفسية .

***

ذهبت في الضحى بصحبة جواد إلى مكتب المحامي بطرس سمحيري ، الكائن أعلى عمارة تقع في رأس القرية في شارع الرشيد ، كان جواد يعلق الكاميرا بسير على رقبته ، فبدا لي مظهره مضحكًا ، وقد وضع قبعة من القش - لا يمكن ارتداؤها إلاّ في الصيف - مائلة على رأسه ، فانفجرت من الضحك حين رأيته بالقاط والقبعة والكاميرا ، بينا واجهني هو بابتسامة تدل على أنه وجد نفسه وللمرة الأولى في حياته ، شخصًا مهمًا أو يقوم بشيء مهم . فابتسمت له ، وقلت :

«ماذا كنت تعمل يا جواد قبل أن تعمل معي؟» قلت ذلك وأنا أسير إلى جانبه دون أن أنظر إلى وجهه مباشرة أو ألتفت إليه .

«كنت أعمل مع عمي حنا» . قال وهو يتابع خطواتي بينما انحنى ظهره قليلاً وهو يسير إلى جانبي .

«ماذا كنت تعمل بالضبط مع عمك حنا؟» ، قلت ، وكنا لحظتها نمر من عقدة الجسر ، متجهين نحو شارع المستنصر ، وأخذنا نتطلع إلى محلات الصاغة التي تكشف عبر زجاجها عن ملامح الصاغة الصابئة بلحاهم الطويلة البيض ، وهم يعالجون خواتم الذهب المفصصة بآلات تطلق ألسنة النار بصورة حادة ، وكانت هنالك محلات الساعاتية ، ومحالات بيع العطور والملابس الإفرنجية والأحذية الجلدية اللماعة .

«كل شيء ، هو يوصيني عليه» ، قال ، وكنا انحرفنا قليلاً نحو شارع ضيق باتجاه عمارة كان قرميدها الأحمر الكابي ينز ماء ، فيسيل على قضبان الشبابيك العالية ، وقرب الباب الخارجي كان ثمة شجرة رمان ضخمة تنبت وسط الرصيف المغسول بالماء ، بينما كانت أعمدة الهاتف أمامها محطمة بسبب الأغصان المتشعبة . كان يطلق على هذا الشارع في الأربعينيات : شارع العدلية ، لكثرة مكاتب المحامين في العمارات التي تحيط به ، وفي الركن كان ثمة شرطي يقف بصورة منتصبة ، كان شرطيًا فارع القوام ، يلف على بطنه حزامًا جلديًا عريضًا ، وكان بنطاله الكاكي ضيقًا عند الحجل يكاد يلامس حافة البصطال العليا ، وقد وضع المسدس المزيت في الجهة اليسرى من خاصرته ، وكان يمسك بيده القوية عصا الجوز الغليظة المحززة ، وينظر بصورة مباشرة إلى الأمام ، وما إن رآه جواد وقبل أن نصل إليه ، حتى تخدر جسمه كله ، فغاصت رقبته العريضة بين أكتافه وأخذت أطرافه تهتز بصورة مكشوفة ، وفغر فمه حتى ظهرت أسنانه الخلفية المقوصة كلها ، بينما احمرت عيناه وأخذ يتنفس بصعوبة ، فاندهشت للحالة التي أصبح عليها وما كان مني إلاّ مواجهته بصوت خفيض :

«جواد . . . جواد ما بك . . . ماذا حدث؟ هل أنت خائف من الشرطي؟» .

«إيه ، إيه» . وكان يتخفى ورائي كأنه يريد أن يهرب . فأمسكت به

من يده بقوة :

«لماذا جواد ، هل فعلت شيئًا؟» .

«لا . . . بس آنا فرار من الجيش» . كان شاربه يرتعش ، وعيناه مفتوحتين برعب ، فمد يده إلى قبعته لينزلها قليلاً على وجهه حتى تجاوزنا الشرطي الذي لم يعبأ بنا على الإطلاق إنما ظل ينظر إلى الأمام مباشرة . دلفنا مباشرة إلى بهو العمارة الواسع الفسيح ، حيث كان الخادم يمسك جردلاً نحاسيًا ، ويمسح درجات السلم المرمرية . فسألناه عن مكتب المحامي بطرس سمحيري ، فقال لنا وهو يشير إلى أعلى السلم بأنه : -

«هناك في الطابق الأول أمام فسحة السلم مباشرة» .

وحين صعدنا إلى الأعلى ، كنا رأينا اللوحة المكتوب عليها اسم المحامي أمامنا ، وكان باب المكتب مفتوحًا على مصراعيه .

في الصالة الواسعة كنا نشم رائحة بخار الويسكي الحادة وهي تضوع بفتور من الباب المفتوح ، وكان هنالك غرامفون قديم موضوع على صندوق مربع يستقر على كومدينو من الخشب الداكن ، زخرفت أبوابه بدقة وهي زخارف هندية قديمة ، وكان ثمة أسطوانات سوداء مرتبة بصورة جميلة وضعت بعضها على بعض ، حتى وصلت نهايتها إلى طرف البوق النحاسي الذي كان يمتد من الغرامفون بعنق طويل .

استقبلتنا امرأة أربعينية ممتلئة الجسد متوسطة الجمال ، إلاّ أنها كانت ذات وجه ذابل ، كانت هادئة بصورة قدرية ، ناعمة بصورة فاضحة ، وكان صدرها يهتز بثقل كلما تنتقل من مكان لآخر . فأثارت جواد الذي ظل يراقبها بصورة ثابتة ، ويبتسم لها بوجهه الأسمر الجعد وأسنانه الصفراء التي تشبه أسنان الخيل .

«جئنا لمقابلة الأستاذ بطرس المحامي» قلت وأنا أحني رأسي ، بتهذيب جم وأدب كبير .

«لديكم موعد معه؟» قالت، بينما كانت نظراتها تتنقل بين جواد وبيني.

«في الواقع . . . لا . . . لكن قولي له إننا جئنا من طرف حنا يوسف».

«أ . . . أهلاً وسهلاً بكم . . . أهلاً» قالت وهي تبتسم وترحب بعد أن تغيرت ملامحها تمامًا، ومن الواضح أنها كانت على معرفة جيدة بحنا يوسف، أوعلى الأقل أن اسم هذا الدجال كان أليفًا لديها إلى الدرجة التي ما إن نطقت به حتى بدد عن وجهها ملامح الريبة والشك.

أمرتنا بالجلوس على أرائك وثيرة في صالة الاستراحة، ثم دخلت إلى المكتب بضع دقائق، خرجت بعدها إلينا والابتسامة الجميلة على وجهها، وأذنت لنا بالدخول إلى المكتب وهي ترافقنا حتى الباب، وما إن دخلنا إلى الداخل حتى أغلقت الباب وخرجت. كانت عينا جواد تلاحقانها، كانت عيناه تركزان على عجزها المكور السمين الذي يهتز مع خطواتها.

حين دخلنا واجهنا الحائط المبلط ببلاطات حمر وصفر من الأعلى ومن الأسفل. كان الحائط مغطى بخشب الصاج السميك، وكانت هنالك شرفة واسعة مستديرة حافاتها من الرخام الملون، تكشف عن دربزون حجري وبلكون يطل على حديقة العمارة الداخلية، كان بطرس يجلس خلف المكتب، ولا يظهر منه إلاّ رأسه لقصر قامته، فقفز بخطوات سريعة وثابتة نحونا، كان بطرس نحيفًا وقصيرًا ببذلته القديمة الناصلة.

«أهلاً . . . أهلاً ومرحبًا!» كان بطرس يرغي بالراء ويدمج الكلمات مع بعضها.

فجلسنا أمام مكتبه وأخذ ينظر نحونا بعينيه الغريبتين ووجهه الحجري المصقول بينما كان يضع قلم رصاص خلف أذنه مثل النجارين.

«جئت من أجل الوثائق . . .» فقاطعني مباشرة ولم يدعني أكمل.

«نعم قال لي حنا . . . الوثائق موجودة كلها ، والأوراق موجودة كلها» ، فالتفت إلى المكتبة التي تعج بالملفات وأخذ يقلب ويعزل بعض الأوراق ، ثم طرحها أمامه على المكتب المرتب ترتيبًا أنيقًا ، ولم تكن سوى وثائق رسمية قديمة ، وبعض الأوراق والصكوك والصور الفوتوغرافية التي تخص الفيلسوف وأفراد عائلته وأصدقاءه ، ولا سيما أنها كانت تضم صورتين له إلى جانب صديقته نادية خدوري ، واحدة في مكتبة مكنزي والأخرى في مقهى إكسبرس الشرق .

«هل كنت التقيت الفيلسوف؟» . قلت بينما كان جواد يصوب نظراته إلى حجرة صغيرة بابها نصف مفتوح تضوع برائحة الويسكي .

«نعم أنا كنت أيام زمان وكيل والده الله يرحمه . كانوا ناسًا أرستقراطيين ، أسقطتهم الثورة ، ولكنها لم تغير من أحوالهم شيئًا ، إلاّ أن عبدالرحمن كان متمردًا على العائلة حتى قبل الثورة» .

«هل كنت تعرف أشياء كثيرة عنه؟» قلت ، بينما كان يصوبني بنظرات ثاقبة .

«نعم . . . نعم . . . كنت ألتقيته أكثر من مرة ، ولكن لقاءات عابرة ، في الواقع كنت ألتقيه ولكن لا نتكلم بأشياء مهمة ، فلم نتفق» ، (صمت قليلاً وكأنه يتذكر) ثم قال :

«كنت موظفًا صغيرًا ، مستخدمًا كما يقولون ، وما كانت الوجودية ذات طعم بالنسبة إلي ، فأنا كنت أميل لليسار وكنت أرى في إدمون القوشلي ، تروتسكي زماننا ، صورة أكثر جاذبية من فيلسوف الصدرية . ثم ما كانت لي القدرة على فهم تعقيدات سارتر ، ولذلك لم أكن أحبه» .

«هل كنتم تجدون فلسفته معقدة؟» ، قلت .

«لا أظن أن أحدًا من جيلنا كان يفهم ما يقرأ ، كلهم كذابون ، إذا أردت اتصل بسلمان وعباس ، كان يلتقيهم أيام زمان في مقهى

البرازيلية» .

«وهل كنتم تفهمون تروتسكي؟» ، قلت ، بينما كان جواد يريد أن يلتقط صورة فمنعته .

«التروتسكية ليست فلسفة بالصورة التي نجدها في الوجودية ، إنما تنطوي على جانبي عملي» . ثم تململ قليلاً وبدا وكأنه غير راغب في الحديث .

«هذه الوثائق ، افحصها ، وإن احتجت إلى أشياء أخرى فاتصل بي» . قال وهو ينهض من مكتبه ، فقمت أنا أولاً ثم تبعني جواد بعد أن كاد أن يسقط على الأريكة والكاميرا في عنقه وقبعته القش على رأسه .

«أين أجد عباس وسلمان؟» ، قلت .

«في سوق الكمب ، يمكنك أن تسأل الناس هناك ، كلهم يعرفونهما ، بس اسأل عن عباس فلسفة هم يدلونك عليهم» . ثم التفت إلى جواد وقال :

«ها جواد بعدك تبوق طيور من أسطوحات الناس» .

فاحمرّ جواد وهو يضحك ضحكة خبيثة إلى جانبي ، فقلت له :

«هل تعرف جواد؟» .

«أعرفه كان حنا وكّلني عليه بكم قضيّة» . بينما أخذ بطرس يضحك ضحكة مدوية في الصالة وهو يهز برأسه مثل شيطان . فخرجنا أنا وجواد وذهبنا ذلك اليوم ظهرًا إلى الأعظمية ، لنلتقي باثنين من أصدقاء الفيلسوف القدماء الذين تحولوا إلى تجار في سوق «كمب راغبة خاتون» .

**

خرجنا أنا وجواد الذي كان يتبعني على عجل ، وعيناه غائرتان في محجريهما . كان الجو ذلك اليوم مشبعًا بالرطوبة المنعشة ، والهواء البارد يصطدم بوجهي بتياراته المتلاحقة ، وكان شعاع الشمس دافئًا ولا سيما

حينما كنا نسير من جهة الشارع الذي يحجب تيار الهواء ويتعرض لأشعة الشمس . كنا نسير في شارع الرشيد في رأس القرية ، كانت البقالات كثيرة وهي تعرض علب التوفي المدورة وأطباق الحلويات والسكاكر المحلاة بالكراملة ومحلات الأزياء والخياطين والساعاتية والصاغة ، وكان الناس يتزاحمون على المحلات التي تعرض السندويشات الرخيصة .

كنت أفكر بمن كانوا يرافقون الفيلسوف أيام الستينيات ، وقد تحولوا بعد الفلسفة إلى تجارة الفواكه في سوق الكمب في راغبة خاتون ، وكان عليّ أن أراهم ، أن أظفر بشيء ينفعني أو على الأقل بالتقاط صور لهم لأضعها وثيقة في الكتاب . وحين سرنا إلى الميدان توقفنا لنستقل سيارة تاكسي فتأخر جواد قليلاً ، ثم جاء بعلبة سجائر وأخذ يدخن خلفي ، ولم أكن التفت إليه حتى تبعني .

وحين صعدنا في التاكسي أخذ جواد يقلب الكاميرا التي وضعها في حضنه .

هبطنا ظهرًا ، كانت ساعة «الإمام الأعظم» تدق دقتها الثالثة ، فانحدرنا نحو سوق الكمب المزدحم بالناس والباعة من كل نوع ، وحين سألنا عنهما في سوق الفواكه قال لنا شخص لفّ رأسه بسدارة سوداء :

«هنالك في مطعم السوق في نهاية الجادة» .

دخلنا السوق . كان رطبًا خانقًا ، والأرض مشبعة بالوحول ، بينما كان الماء الآسن ينزّ من الطابوق المرصوف دون عناية . كان المطعم يقع في آخرة السوق ، مطعمًا صغيرًا منخفض السقف مطليًا بطلاء أبيض رخيص وواجهته الزجاجية وسخة ، وكان يغص بالزبائن من كل نوع : تجار الفواكه والتوابل بدشاديشهم البيض ، وهم يشدون بطونهم السمينة بالأحزمة ، والشباب بالملابس الإفرنجية ، والشرطة بالجزم والملابس الكاكية وهراوات الجوز يضعونها على الطاولات ، بينما كانت النساء بالعباءات السود ، وقبل

الدخول كانت المنقلة السوداء الكبيرة تواجهنا أمام باب المطعم حيث كانت تتصاعد منها أبخرة الفحم والشواء ، بينما يتدافع العمال بالمرايل البيض وعلى رؤوسهم شعار المطعم ، دخلنا وكانت الأصوات تتعالى من كل مكان :

(. . . نفر كباب . . . زلاطة بدون خل . . . جيب صمون . . . هنا عيني . . .) .

وأخذت الملاعق والصحون ترتطم بالطاولات اللزجة ، وصوت وشيش المغسلة يتعالى داخل المطعم بأرضه الطابوقية الرطبة ، وحين سألنا أحد العمال عن عباس فلسفة ، أشار لنا بإصبعه إلى شخصين جالسين في مؤخرة المطعم ، لم تبد على وجهيهما مخايل الفلسفة إنما طبعتهما صورة تجار الفواكه بشكل تام ، فقد كانا في منتصف العمر وكرشاهما العظيمان يصطدمان بحافة الطاولة وهما يرصفان فوقها كل أنواع المشويات والخبز الحار ومواعين الطرشي والبصل المشوي والخضروات المغسولة . وكانت رائحة الشواء تملأ جو المطعم .

وحين جلسنا أنا وجواد أمامهما رحّبا بنا طويلاً ، وكان دهشتهما بادية على وجهيهما ، وكأن أحدًا تذكرهما في النهاية :

«أخيرًا تذكرتم عظماء البلد . في الواقع كنا نخشى أن نموت ويضيع ذكرنا وذكر أعظم فيلسوف عربي ، هو فيلسوف الصدرية» .

كانا يتحدثان وهما يأكلان ، بينما كنت أنظر إلى وجهيهما السمينين ، وبذلتيهما الجديدتين وربطتيهما الستينيتين النحيفتين وياقاتهما المنشاة ، كانا يتكلمان وفاهاهما مملوءان بالطعام ، كانا يتكلمان وصلعتاهما المستديرتان اللامعتان تتعرقان ، ونظارتاهما الطبيتان تهبطان على أنفيهما . . وحين يغص فاهاهما بالقمة فإنهما يدفعانها بأصابعهما .

أخذا يتناوبان الحديث عنه وأنا أكتب وأسجل ، بينما أخذ جواد يشاركهما الأكل مع أول دعوة مجاملة لنا ، فنهرته ولكزته بقدمي ، إلاّ أنه

لم يكف ، وتجاهلني تمامًا ، وأخذ يقاسمهما كل شيء حيث بدأ يلف الكباب بالخبز الحار ، ويضع الطرشي والبصل المشوي وسط الخبز ، بينما يتساقط الكرفس من فمه على الطاولة .

كانا يتحدثان بصورة لا تختلف عن سابقيهما ، وكنت أبحث في كلامهما عن كلمة تقودني إلى الاتجاه الصحيح ، ولكن عبثًا . فهما يزينان من مخيلتهما صورة للفيلسوف حتى بدت مثل شجرة عيد الميلاد ملونة مبهرجة ولا عقلانية . في الواقع ، ليس ثمة سوء نية في هذا التزييف ، ولكنه مع ذلك تزييف ، تزييف ربما يغير الإحساس الذي يفرضه عليهما شعورهما بالعار ، الشعور بالعار الذي ولّده هذا الإنكار وهذه المجافاة من قبل الناس طوال هذه المدة ، ولذا فإنهما كانا يدليان بالمعلومات والملاحظات القيمة ولكن بإطار استعراضي ، لأنهما كانا يضعان لنفسيهما أدوارًا ، ومكانة مهمة وبشكل غير لائق ، بصورة مباشرة أحيانًا ، وإيحائية في أحايين كثيرة .

في الواقع كان سخطهما يتوجه نحو أبطال مجهولين ، وكان حديثهما عن الستينيات يشبه البكاء على الفردوس الذي طرد الفيلسوف ، فيما بعد ، منه دون خرقة تستره . ومع ذلك كنت أسجل كل شيء ، لم يكن أمامي غير أن أسجل كل شيء ، الدوافع السامية والبطولية التي أدينها دون قصد أو وعي مني ، والمشاعر الدنيئة والوضيعة التي أحترمها ، والتي لا تعني سوى أن الفيلسوف كان إنسانًا لا بطلاً خرافيًا ، وهو ضعيف ووضيع ومتخاذل مثلنا كلنا ، وليس إلهًا .

كنت أشعر بأني أمام أشخاص يجعلون من حياتهم نظامًا متماسكًا ، ويتصورونها حياة ممتلئة كاملة ، وأنها الحياة الوحيدة الجديرة بأن تعاش ، بل أكاد أقول إنهم لا يستطيعون أن يتصوروا بأن هنالك حيوات من قبلهم ، أو أن هنالك من حيوات بعدهم ، وهكذا لم يستطيعوا أن ينظروا للأشياء إلاّ

بمنظارهم هم ، إلاّ بالمنظار الذي صنعوه هم لأنفسهم . كانا يأكلان دون توقف ، دون أن يتركا لي فرصة للحديث ، فما إن يتوقف أحدهما حتى يهجم عليَّ الآخر . وهكذا وجدت نفسي بين الاثنين . كانا يفرضان عليَّ المعلومة العظيمة والتافهة ، والملاحظة الخطيرة والعادية ، وكانا يطلبان مني بإلحاح أن أضع أشياء يقولانها على أنها أمور في غاية الأهمية ، وهكذا كنت أسجل ما يريدانه هما لا ما أريده أنا .

في الواقع ، كنت أبحث عن الخيوط التي تدلني على رأس العقدة ، كنت أبحث عن الوثيقة ذات القيمة العالية بين أوساط من الناس كان عليها أن تكون ذات موهبة ، أو رؤية عالية أعلى من أوساط الناس العاديين ، لتزودني بما هو ثمين يبعدني عن التشويه . ولكنهم لم يكونوا أعلى من مرتبة الناس العاديين في تصورهم للفيلسوف ، وهي الصورة الثابتة التي أصطدم بها على الدوام ، الصورة التي تبرزه وكأنه كتلة صلدة من الفضائل ، فيما أعداؤه كتلة صلدة من الرذائل ، وأن الحكم على الدوام هو حكم أخلاقي من الدرجة الأولى . كانا يقولان :

«إنه سارتر العرب ، وإن سارتر أوفده لإنقاذ الأمة ، وخلاصها من حالات التشرذم التي أوقعها بها الخمسينيون ، وإن حياته كانت كاملة وصافية وكانت نموذجًا من العظمة والجمال ، لأنه لم يبدأها مثل الآخرين بعيوب خطيرة» .

وهكذا خرجنا أنا وجواد الذي بدت على وجهه علامات الرضا والشبع والامتلاء ، من المطعم المنخفض السقف . كان هناك كلب يلقّ الماء ، وقطتان مبللتان بالوحل تنتظران ما يلقى لهما من بقايا الكباب ، وجواد الذي التقط لهما صورة وهما يأكلان كان ورائي ، فرحًا ، يدخن ويتطاير الدخان الأبيض من فمه وأنفه في الهواء البارد .

كانت الغيوم تتكاثف شيئًا فشيئًا في السماء ، وكانت شمس الغروب

الشتائية تنحدر وراء مئذنة الجامع ، وهنالك مسحة حمراء أرجوانية تغطي الزرقة السماوية والغيوم البيض . فسرنا على الأقدام حتى وصلنا المقبرة الملكية حيث كانت الأشجار الخضراء الداكنة مبللة وفي قمتها وميض أحمر من شعاع الشمس ، بينما أخذ البرد يشتد شيئًا فشيئًا حتى أصبح المسير عسيرًا وشاقًا . فأخذت أصابعنا تتجمد ووجهانا يحمران وأطرافنا ترتعش من شدة البرد ، فاستقل كل منا سيارة تاكسي ، جواد أولاً إلى منزل حنا يوسف ثم أنا إلى شقتي .

***

في المساء ألفيت نفسي أمام آلاف من الأوراق ، والوثائق ، والصور الفوتوغرافية ، والمعلومات ، والملاحظات التي تتحدث عن فيلسوف الصدرية .

كلها تتحدث عن شخصية واحدة ، فذة ، شخصية فريدة من نوعها ، شخصية تختصر العالم المأساوي لمجتمع بأكمله ، شخصية تقدم الوحدة التراجيدية لأمة بأكملها . ولكن كان عليَّ – وأنا أدرك التأثير المدمر للشخصية الخيالية التي ترتفع إلى مصاف الآلهة – أن أخفف من هذا الارتفاع الشاهق الذي يحاول أن يردم الهوة الواسعة في نفوسهم ، ويذلل من مرارة خيبتهم .

لم يكن يفهم أحد منهم هذا التعدد المذهل داخل الشخصية ، هذه التناقضات ذات الطاقة الفعالة ، هذا الاختلاف البشري الحقيقي الذي يمنح الشخصية امتيازًا لا خللاً ، لقد كنت أدرك نقاط ضعفه كلما أخذت أُلبس جسده العاري ملابسه ، كلما كنت أكسوه ، كلما كنت أضع بضع سمات خارجية على وجهه . لقد كنت أبحث تحت هذه المظاهر المتعددة عن تطور شخصيته ، وتعاقب حالاته ، ومشاعره التي تختلط بالعالم المحيط به ، كنت أحاول أن أجد إيقاعات طفولته وشبابه وعلاقاته تحت هذا

التعقيد الاجتماعي الكبير ، وما كنت لأستطيع أن أصفح لهذه القيمة العظيمة ما لم أجد فيها كل أنواع السفالة والوضاعة والدناءة التي لا أعدها إلا مظاهر بشرية حقيقية ، لم أكن أستطيع أن أجد لشكله حدودًا خارجية ولا لجسده كتلة ، ما لم أفرض على وجوده وكيانه شيئًا من الوحدة المصطنعة ، داخل النظام الذي أنتجها . كنت أبحث في واقع الأمر عن النظام الذي يمنحه هذا الدعم والإسناد ، والذي أرهقه وأقلقه والذي لعبت فيه الحماقة دور نكران الذات ، والعناية بسعادة الناس والرغبة في الإصلاح المنظم ، ولعدم قدرتي ، لأسباب شتى ، أن أجمع هذه المادة بقالب واحد . كان عليّ الإيمان به وبفلسفته وأن أبحث عن كل شيء : الزهور التي كان يحبها ، والمربيا التي يتغذى عليها ، وإناء الاغتسال ، ورائحة الصابون المتبقية على الخشب والسطح الزلق ، عليّ أن أصف حبه للحدائق ، وأن أصف كل انطباعاته ، وأن أتفحص مشاعري أنا بإزائها ، وأن أبحث عن سلسلة من الأحداث النادرة التي ولدت لديه انطباعاته ، وأثارت رعشته كفيلسوف ، وأن أبحث عن ذكرياته الهادئة السعيدة ، وقصص حبه ، وأن أبحث عن كل هذه المشاعر المضطربة التي اقترنت بأشياء ضاعت في بحر من الغموض .

ولكن لم أجد شخصًا واحدًا في ذلك الوقت ، يحتفظ عنه بالفعل بمذكرات حقيقية ، مذكرات تحتفظ له بصورة ساحرة لم يأكلها النسيان ، لكي أضعها في إطارها الاجتماعي ، في مجالها الفكري وأن أدونها في مكانها الحقيقي في السيرة .

كانت الساعات التي قضيتها وأنا أبحث ساعات من الحيرة والحسرة ، لقد اختفت نادية خدوري . لم أعثر لها على عنوان . وإسماعيل حدوب لم يعد له وجود ، وتضاربت القصص بشأنه ، وزوجته الفرنسية عادت إلى باريس ، ووالده مات ، وأبناؤه . . يعدني حنا يوسف ، كل يوم بلقائهم ،

بينما صادق زاده هو الوحيد الذي التقيته ، بعد أن أخذ لي منه حنا يوسف موعدًا للقائه .

***

كان الجو عصرًا ، كنت أسير وحدي نحو قصر منيف خلف محطة القطار .

كان عليَّ أن أشق مزرعة الخس والفجل الأحمر ، وأنا أنظر إلى الفلاحين بأكمامهم الطويلة ، وعظامهم السود ، حيث كانوا يتنقلون بخفة بين الطين الحري والقش ، قرب قنطرة ناظم باشا الصغيرة . ومن بعيد كنت أسمع وقع سنابك الخيل على الجادة المرصوفة بالإسفلت مختلطة بأصوات مختلفة ، كان القصر عالي الشرفات وأدواره العليا مطعمة بالقرميد الجميل بينما كانت الحديقة تضجَ بالكلاب السلوقية وهي تنبح .

استقبلني الخادم بوجهه الأبرش ، وشاربه المنكوش ، وقد لفَّ رأسه بطاقية صغيرة ، كان يرتدي ملابس لبنانية مزيّنة ، فقادني إلى الباب الرئيس ، وهو باب من الصاج الثمين بأبهة عالية ، فدقّ الجرس النحاسي جنب الباب ، وضبط ساعته الفضية المكتنزة التي أخرجها من جيب شرواله ، فدخلنا إلى المدخل المبلط بالمرمر الأبيض المصقول الذي يؤدي إلى صالة كبيرة ، وسلالم رخامية سوداء تصعد إلى الدور العلوي ، ودربزون من الخشب والحجّر يطل على الصالة الداخلية .

وكانت مفاجأتي كبيرة حين خرجت نونو بهار من الردهة التي تقع في الجانب الأيمن ، بينما كان صادق زاده يبرز فوق السلم بأناقة فارهة ، وحين سار إلى يمين السلالم الرخام انعكس النور القادم من المصباح الذي كان موضوعًا على الطاولة على بنطلونه الجميل ، وعلى ربطة عنقه الحريرية الملونة .

استقبلتني نونو بهار بوجهها المدور وجسدها الممتلىء قليلاً ومدت لي يدًا دافئة ربلة ، فجلسنا نحن الثلاثة في صالة مطعمة بالحجر والزخارف ،

ولها شرفة عالية تطلع على أشجار المطاط ذات الأوراق الخضراء الداكنة ، فكلمتني نونو بصوت ناعم كسول :

«هذا صادق زاده . . . عليك أن تتعاون معه» .

«جئت ليتعاون معي لا أن أتعاون معه» . كانت رائحة المكان حميمية ، فابتسم صادق بوجهه الوسيم ، وعيناه الخبيثتان تتلاقطان بصورة مضطربة وقد خطّ الشيب رأسه .

«نعم سأتعاون معك ، ولكن من أجلي ، لا من أجل حنا يوسف» .

فالتفت إلى نونو بهار ، كان شعرها الأسود ينسدل على أكتافها ، ووجهها الشهواني يبتسم بوجهي ، وقد أحسست بلحمها الرطب وراء الكنزة الصوفية المهدبة .

«أنت تعمل مع صادق زاده لا مع حنا يوسف» .

«وأنتِ؟» ، قلت ، وأنا لا أستطيع إخفاء دهشتي .

«مع صادق طبعًا! . ماذا تظن؟ إنه الوحيد الذي يمول المشروع ، هل تظن أن حنا المفلس ، هو الذي يصرف علينا؟» .

«لكنك لم تقولي ذلك من قبل!» .

«كل شيء في أوانه» ، قالت :

«لماذا لم يتصل بي إذن صادق زاده؟» .

«هذا الأمر لا يعنيك!» - قال صادق زادة وقد بدا متضايقًا - وأضاف «انظر إلى هذه الملفات ، كلها لك ، هذه هي ملفات السيرة الحقيقية ، هذا ما تبحث عنه أنت ، إنه في الواقع معي ، لا مع حنا . ما يهمك هو المال والوثائق ، وهي معي بطبيعة الأمر ، أزودك بكل شيء ، والنهاية سنصنعها معًا . أنت تصنعها معي ، لا مع حنا» .

«إذن سأكتب أنا حتى النهاية ، وإن طالبني حنا بالنهاية؟» .

«هذا الأمر سنتدبره أنا ونونو» .

«ولكني مجبر على إعطائه النهاية ، طالما هو الذي يمدني بالمال» ، قلت ، وقد بدوت متضايقًا .

«نونو هي التي تمدك بالمال ، ونونو تعمل معي لا مع حنا» ، قال صادق .

«ما معنى هذا الإصرار على النهاية؟» ، قلت ، فتغير وجه صادق ، قليلاً ، وأخذ يبتسم ، بينما كانت نونو تنظر نحوه وتشاركه ابتسامته . ثم نهض من مكتبه واتجه نحو الزاوية ، وجاء بكأسين من الويسكي .

«هل تشرب؟» ، قال .

«لا . . .» فناول الكأس إلى نونو .

«في الواقع هنالك أشياء لا تعنيك وأنت تكتب ، وأنا لا أجبرك على أن لا تقول الحقيقة . لا على الإطلاق . أنا لا أريد منك أن تقول شيئًا لا تجده في الوثائق . لكن الإشكال يقع في وفاة الفيلسوف . الناس تختلف في وفاته ، وهنالك روايات مختلفة . ما أريده أنا بالضبط : أن أختار فقط ، أختار إحدى هذه النهايات ، وأقول لك أنت تبناها ، أنا لا أفعل ما يفعله حنا . حنا يريد توريطك مع الأسف ، أنا لا أريد أية مسؤولية ، كل ما أريده هو أن تعرض عليّ النهايات ، وأنا أقول لك هذه» .

في الواقع سرني الأمر كثيرًا ، فهذا الاختيار في النهاية هو واقع لا محالة ، وربما ستلتقي أفكارنا لنقررها معًا ، فإذا كانت إحدى الروايات مقبولة ومتبناة ، فالأمر لا يضيرني . . وهكذا أخذت الوثائق والأوراق وغادرت المنزل .

في المساء بدأت أخط الصفحات الأولى من سيرة حياة الفيلسوف الوجودي العراقي الذي كان يلقب بـ(سارتر الصدرية) .

رحلة الكتابة

-١-

بعد أن دقت الساعة الكبيرة الكائنة في سوق الصدرية دقاتها السبع ، وعلى صراخ الباعة المتجولين في السوق ، وعلى أصوات باعة الخضار والدجاج والفواكه الطازجة ، وعلى صراخ القصابين ، والخبازين ، والحلوانية ، وعراك الشحاذين المتجمهرين عند رأس السوق ، استيقظ عبدالرحمن من نومه وهو يشعر بالغثيان .

نهض متثاقلاً ليتطلع إلى صورة جان بول سارتر المعلقة على الجدار الذي يقابله ، صورة رمادية مسجونة بإطار مذهب جميل ، موضوعة باستقامة فوق المكتبة التي رتبت في خاناتها كتب فلسفية متنوعة ، وفي مقدمتها كتب جان بول سارتر بطبعاتها الفرنسية الأنيقة ، حيث وضعت بشكل صفوف متعامدة : الوجود والعدم ، الجدار ، الوجودية مذهب إنساني ، دروب الحرية ، مسرحية الذباب ، رواية الغثيان ، وبعض أعداد مجلة «الأزمنة الحديثة» .

كان منزل عبدالرحمن الكائن في الطرف القصي من جادة الطبيب

سيمون بهلوان ، والمطل على المقدمة المفتوحة من السوق المسقف بالألمنيوم ، في غاية الترتيب والروعة والأناقة : السجاد الكاشاني ذو الوبرة العالية يفرش الأرضية ، خشب الصاج الهندي المرصع يغلف الجدران العالية ، والآرائك المريحة مطعمة أخشابها بالفضة والأحجار الثمينة ، واللوحات الفنية والصور الصغيرة معلقة على الجدران بصورة منتظمة ، ومن الخارج كانت الواجهات الرخام الصقيلة تلامسها أغصان أشجار اليوكالبتس المعمرة .

تطلع عبدالرحمن من الشرفة الفارهة المطلة على السوق ، بعد أن أزاح الستائر الموسلين ، كانت بائعات الفجل والخضرة المرشوشة تغطس رؤوسهن المعتمرة عمامات سوداء مربعة بين أكوار الخضرة المبللة وسلال التين اليافع ، وأولادهن الصغار برؤوسهم الصغيرة الحليقة ، يلتصقون على صدورهن المكشوفة مثل قرود ، وكانت جموع الناس رجالاً ونساء تمور بين أكوار الليمون والبرتقال في القصاع العريضة ، بين سلال البصل ، والفلفل الأخضر ، والتفاح المغسول ، وحلانات التمر المكبوس ، وفي الجانب القصي أقفاص البط ، والدجاج ، والعصافير الصغيرة ، موضوعة بعضها فوق بعض ، قرب الخراف التي تتقافز عند سياج الحديقة الكثيفة التي يظهر منها دغل غامض الشكل يظل أصص ريحان وزهورًا متزاحمة .

أخذ عبدالرحمن يرتدي ملابسه على مهل أمام المرآة الطولية المثبتة علي الخوان في حجرته الدافئة ، وبعد أن عقد ربطة عنقه النحيفة الزرقاء ، ارتدى النظارة المربعة ذات الإطار البلاستيكي الأسود ، وأخذ ينقل عينيه بين صورته المنعكسة على المرآة وبين صورة جان بول سارتر المعلقة على الجدار ، فشعر بحزن عظيم طاغ اجتاح كيانه كله :

(ماذا لو كان أعور؟) .

ماذا لو كان أعور ، لتتطابق الصورتان ملمحًا؟ فإن كان عبد الرحمن قد

حلق شاربه وصفف شعره المسرّح المدهون على شاكلة تصفيفة شعر سارتر ، وإن كان وجهه المثلث الوسيم يحمل ملامح سارتر كلها : الأنف النحيف ، الاستدارة الجميلة للخدود ، الفم الملموم على نفسه ، فإن هذا التطابق سيظل عصيًا على التحقق ، طالما أن العور لا يطال عينه اليمنى على الإطلاق ، فماذا سينقص الوجود لو صار أعور ، وكان بعوره سارتر آخر؟ أدرك عبدالرحمن في تلك اللحظة عذاب الوجود ولا عدالته ، لو كان وجودًا عادلاً ومتساويًا وأخلاقيًا ، لصار عبدالرحمن أعور ، لكان منحه الله العين العوراء مثلما منحها لجاسب الأعور الذي يبيع الخضرة الباهتة على عربة سحب في سوق الصدرية ، فهذا الأعور الجاهل لا يدرك عبقرية عينه السارترية ، لا يدرك عظمة عوره الفلسفي ، ولا مكانة هذه العين المطفأة في تاريخ الفلسفة ، ولذا فإنه يفضل عينه السليمة على عينه العوراء ، ولا يدرك ابتذال عينه السليمة ولا عاديتها ، وهكذا تجده حزينًا خجلاً من وجوده ناقصًا ، في عالم كل من فيه يملك عينين اثنتين لا واحدة ، من عالم كله ينشدّ للكمال .

وإن كان عبدالرحمن يؤمن بهذا العور الفلسفي ، ويعرف قيمته وعظمته إلاّ أنه يدرك في الوقت ذاته ، أنه عور صعب المنال ، إنه عور مستحيل ، عور ميتافيزيقي ، كعور إله المعرفة سارتر . وكان يدرك على نحو يائس أن هذا العور لن يتحقق مهما كان ، فيشعر بوجوده ناقصًا ، وجودًا مثلومًا . وهذا ما يجعله يتخاصم مع جاسب كلما رآه ، كان مشهده يعذبه ، كان يشتمه ، يهدده ، ويصرخ به بأعلى صوته :

«والله لولا عينك العوراء هذه ، لولا عينك العوراء التي تشفع لك ، لسحقت رأسك بالحذاء» .

ولم يدرك جاسب الأعور السر الذي يعتقده الفيلسوف في عينه العوراء ، وما كان يعد هذه الشتيمة إلاّ سخرية مرة من عوره ، فينفجر

غاضبًا في وجهه :

«انعل أبوك لأبو أبوك ، لابو أبو سهيل إدريس؟!» .

في الواقع لم يكن جاسب الأعور يعرف من يكون السيد سهيل إدريس على الإطلاق ، إلاّ أنه كان يعرف ، وهذا واقع الحال ، أن هذا الشخص هو المسؤول عما أصاب الأفندية في تلك الفترة من جنون وضياع ولامبالاة ، وكان جاسب الأعور ، فضلاً عن ذلك ، يستمع جيدًا لما كان يلقنه إياه شاؤول اليهودي ، شاؤول المتآمر على الوجودية العربية ، وهو الذي كان يلقن جاسب الشتائم التي تغيظ وتغضب عدوه التقليدي عبدالرحمن ، حينما كان جاسب يتخذ بعربته ذات العجلات الركن القريب من متجر شاؤول في السوق المسقف في محلة الصدرية .

لقد بقي هذا العور المستحيل ، هذا العور العصيّ على التحقق والذي كان يثقل على قلب عبدالرحمن ، هاجسًا معذّبًا ، كان شعورًا قاسيًا مهدمًا ، حتى حينما كان يقطن في عاصمة الوجودية (باريس) حينما كان يحضّر لدراسة الدكتوراه في الفلسفة الوجودية في جامعة السوربون أواخر الخمسينيات ، ولئن فشل عبدالرحمن في دراسته الفلسفية هذه ، وعاد بلا شهادة الدكتوراه في الفلسفة الوجودية الفرنسية ، إنما عاد بزوجة شقراء فرنسية - كعادة العراقيين الذين يذهبون إلى بلاد العلم لينهلوا من العلم ، ولكنهم بعد سنوات يتركون العلم لأهل العلم ، والشهادة لبلادها ، ويجيئون بدلاً عنها بامرأة شقراء جميلة . (فإن لم يكن بالعلم فبمصاهرة أهل العلم ، على الأقل) هكذا قال نوري السعيد يومًا وهو يخفف من عذاب أحد العراقيين الذي أرسل ابنه ليدرس الطب ، إلاّ أن الولد عاد بعد أقل من سنة بامرأة جميلة بدلاً عنها .

ولكن - وهذا ما لم يدركه أحد في ذلك الزمان - عبدالرحمن ما كان ليأتي بزوجته الفرنسية لو لم تكن له أسبابه المعقولة ، لو لم تكن له أسبابه

الوجيهة ، ما كان ليأتي بها لو كانت جرمين بمواصفات عادية ، بمواصفات متواضعة كالنساء الأخريات اللواتي هن من جنسها ، ما كان ليأتي بها لو كان مقصده الزواج من امرأة شقراء وحسب ، بل إنه جاء بها لأنها كانت - وهذا الأمر لا يدركه إلاّ القليلون - مواطنة سارتر . لو لم تكن جرمين مواطنة سارتر ما كان له أن يتزوجها .

مرة في الليل ، بعد منتصف الليل ، في زقاق من أزقة باريس المظلمة الباردة ، تاه عبدالرحمن وهو عائد من الملهى إلى شقته شبه مخمور ، فوقف في ركن الزقاق عند عمود الهاتف ، وكانت الظلمة مطبقة والريح الباردة تصفر في الطرقات ، بينما كان الضباب يهبط على المدينة شيئًا فشيئًا ، وضع عبدالرحمن يديه في جيوبه ورأسه غاطس بين ياقة معطفه واللفاف ، كان يرتجف من البرد ، بعد أن أخذت الرطوبة تتسرب إلى قدميه من الحذاء ، فرأى فتاة خارجة من بوابة بناية عالية ينزّ من جدارها العالي الصلب شلال من الماء . فاستوقفها لتدله على شقته التي ضيّعها ، فصحبته وسارت إلى جانبه .

في الواقع لم تكن جرمين سوى خادمة بسيطة متواضعة ، تعمل بأجرة أسبوعية في منازل الموظفين ، إذ تستخدمها بعض السيدات في تركها ليلاً مع أطفالهن حين يغادرن المنزل لقضاء سهرة من السهرات . ولم تكن جرمين ذات جمال يميزها ، على الإطلاق سوى الشقرة والعينين الخضراوين والوجه الأبيض الذي يشبه الحليب . وحين أوصلته إلى العقدة التي من خلالها يمكنه أن يصل إلى منزله فرح عبدالرحمن وبادرها بالسؤال عن أصلها ، كعادة العراقيين حينما يرون شخصًا غريبًا فيسألونه (من يا عشيرة؟) .

فقالت له بالفرنسية ، وقد هزّت كتفيها ، إنها من باريس ، وسارت أمامه ، إلاّ أن هذه الكلمة الأخيرة هبطت عليه من السماء ، مثل وحي ،

مثل هدية ، فلحقها ، تبعها ولم يدعها تذهب ، إنما سار وراءها قائلاً :

«إذن أنت مـواطنة سـارتر ، ها أنت مـواطنة سـارتر . هل أنت من أقربائه» . تعجبت الخادمة الشقراء النحيفة ، لأنها لم تكن تعرف من يكون هذا ، ولم تكن قد سمعت باسمه ، فهزت كتفيها مستغربة ، مندهشة وهي تنظر بهـذا الوجـه المفـزوع الذي يغطس في المعطف الأسـود بين اليـاقـة البيضاء واللفاف .

«آه! . . لا تعرفين سارتر ، يا معودة الشيخ هاني هليل رد عليه بكتاب بثلاثة مجلدات الرد الماحق الساحق على جان بن بول بن سارتر المارق» .

«ومن هذا الأخير؟» . قالت وكادت أن تغرق بالضحك .

«أوه . . . ولا تعرفين الشيخ هاني هليل أيضًا . . . هذا شيخ كبير ، كان طالبًا في الحوزة العلمـية بالنجف ، كاد أن يخلق بكتـابه هذا ، أزمـة في العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والعراق» .

في الواقع ، وإن كان عبدالرحمن متيّمًا بهذا الفيلسوف العظيم ، وإن كان شغوفًا به وبفلسفته ، إلاّ أنه لم يكن قد تحدث معه قط ، لم يتحدث عبدالرحمن طوال إقامته في باريس مع سارتر ، مع أنه كـان قد رآه مرات عديدة في شارع السان ميشيل ، وفي السوربون ، وفي الحي اللاتيني وفي مقهى نيم في مونبارناس ، وفي شارع السان جرمان دوبريه ، وعلى رصيف نهر السين حين كانت الكتب معروضة على الأرض مرمية على الدوام عند الأقدام ، كان عبدالرحمن يهابه ، يرتعب منه ، يرتجف كلما اقترب منه ويولي الأدبار .

أولاً : لأن لغة عبدالرحمن الفرنسية لم تكن تهيئه للخوض في حديث ، مهما كان هذا الحديث ، مع عملاق الوجودية على الإطلاق .

ثانيًا : لم يستطع عبدالرحمن على الرغم من محاولاته الجادة تعلمها ، والتـمكن منهـا ، ولم يفلح طوال إقـامتـه في باريس إلاّ بحـديث عـام مع

الناس العامة ، لم يفلح إلا بالتفاهم المتوسط مع الفرنسيين ، والقراءة المتعثرة للنصوص الأدبية والفلسفية ، وقد نصحه البروفسور الفرنسي الذي كان يدرّسه في الجامعة آنذاك بتحسينها ، فلا يمكن له أن يدرس الفلسفة الفرنسية ، بلغة فرنسية متعثرة غير مفهومة ، بلغة متلكئة متعتعة غامضة ولذلك سارع إلى توطيد علاقته مع هذه الخادمة النحيفة التي تشبه إصبع البازلاء ، هذه الخادمة المتواضعة وحدها التي يمكنه أن يتفلسف أمامها كما يشاء ، كما كان يتفلسف أمام العاهرات وبائعات الهوى في شقته كما يشاء ، فهن لا يعنيهن كثيرًا صحة ما يقول ، ولا قيمة ما يقول ، ولم تكن جرمين من جانبها تصدق - كما كان يظن - الديك الشرقي الذي كلما يطرحها على الفراش بفحولته الرهيبة المحطمة ، وبعد أن ينهق على صدرها ، يجلس على طرف السرير ، ورأسه مطأطأ ويعترف لها بأنه أصيب بالغثيان .

كل شيء كان يشعره بلا جدوى الوجود وعبثيته ، كل شيء كان يصيبه بالغثيان .

الجنس المحموم مع هذه الخادمة يصيبه بالغثيان ، لحمة الستيك الطرية التي يأكلها بشراهة وهو يعب وراءها النبيذ الأحمر تصيبه بالغثيان ، السجائر الفاخرة التي يدخنها بشراهة تصيبه بالغثيان ، التجوالات في حدائق بولونيا ، المتع الغريبة السهلة في الحي اللاتيني ، السينما الخلاعية في السان ميشيل ، الأحذية اللماعة ، الكرافاتات الحرير ، العطور اللاذعة كلها تصيبه بالغثيان ، فإن كانت خادمة متواضعة ذات تعليم بسيط ، فهي ذات خبرة واسعة ومجربة ، ولم تكن ساذجة إلى هذا الحد لتصدقه ، لم تكن قادرة على تصديق أن من يلتهم الحياة التهامًا ، دون أن يزدردها ، يشعر بهذا الذي يطلقون عليه في فلسفة الحمقى (غثيان) .

إلاّ أنها تظاهرت بتصديقه ، والإيمان بفلسفته ، وجنونه ، وحماقاته ،

وهي أحيانًا بعد أن تنزلق من السرير لترتدي كلسونها الأحمر الفاقع وسط الحجرة ، تعترف له بأنها هي أيضًا شعرت بشيء غريب ، بعد هذه الساعة السعيدة التي عاشتها تحت أفخاذه ، شعرت بشيء غريب ، غير معقول ، لم تكن تحس به من قبل ، شيء يمكننا أن نطلق عليه بعد جهد بسيط من التفكير والتدبير : غثيان .

عاد عبدالرحمن من باريس إلى بغداد أوائل الستينيات عودة أبدية ، عاد مع زوجته الفرنسية إلى بلاده معللاً النفس بحياة فلسفية دون شهادة في الفلسفة ، فاستقبله المثقفون بعاصفة من التصفيق ، والتشجيع فأطلق عبارته الشهيرة (ما معنى الشهادة في عالم لا معنى له) فصرخ أحد الجالسين في وجهه مثل مجنون :

«هل كان سارتر فيلسوفًا بشهادته أم بفلسفته؟» .

كان ذلك في عصر يوم من أيام الصيف اللاهب من عام عودته من باريس ، كان ذلك في مقهى البرازيلية ، أمام سلمان الصافي وعباس فلسفة فقلبوا الكراسي بجنون أمامه ، وصرخوا ، وهاجوا ، وماجوا أمام هذه العبارة الفلسفية المدهشة ، لقد تعتعهم الفيلسوف بهيئته ، لقد أسكرهم بملامحه الفلسفية .

في الواقع ، لقد أصبح الاثنان ، عباس فلسفة وسلمان أهم مثقفي الستينيات فيما بعد ، الأول : كان قد نزح من كركوك إلى بغداد ، ليصبح شاعرًا بعد أن عمل فترة من الزمن في شركات النفط ، ولأنه كان يجد صعوبة في وزن الشعر فقد اتخذ من قصيدة النثر شعارًا له ، وهو شعار بطبيعة الحال لجيل بأكمله ، وكان يسمي سارتر ذلك الوقت بـ(كاكه سارتر) . أما الآخر : فقد جاء من الشطرة إلى بغداد بقليل من المال ، ليدرس في الجامعة ، ولأن حاله كحال أهل الريف النازحين إلى العاصمة ، بوجوههم السمراء ، وخجلهم ، وأوهامهم ، يمنون النفس بعلاقة حب مع

أجمل الفتيات ، ولا يختارونها إلاّ من الطبقة العالية ، لردم هوة في النفس قاسية ، معذبة ، فإن لم تكن هذه العلاقة لقلة الخبرة وضعف الحيلة وفقدان المؤهلات ، فإنهم يخترعونها اختراعًا ويتوهمونها توهمًا ، ويخلقون في أحلامهم خصومات حب ونورستانيا ودموعًا وخضوعًا ، وبعد أن تنكشف لهم هذه الأوهام على حقيقتها فإنهم يولون الأدبار هاربين ، متهمين فتاة لم تكلمهم قط بخيانتهم وخداعهم ، ومتهمين أهلها بانحيازهم الطبقي ، وبرجزتهم المقرفة وأرستقراطيتهم القذرة .

وهكذا هرب سلمان من الجامعة ليعمل خياطًا بأجرة أسبوعية في شارع الرشيد قرب سينما الزوراء ، عند حسون الهندي معلّلاً النفس بكتابة رواية كبيرة تفضح الإقطاع في لواء المنتفك .

لقد طار المثقفون الشباب فرحًا بهذه الفلسفة العملاقة ، التي كتب عنها سهيل إدريس في مجلة «الآداب» منذ الخمسينيات ، وعبدالرحمن بدوي في «الكاتب العربي» منذ الأربعينيات ، وعرفها المثقفون العراقيون في مقهى واق واق بعد الحرب العالمية الثانية قرب النادي الأولمبي في ساحة عنتر ، وجاء عبدالرحمن في الستينيات من باريس لينقل لهم ما رآه وخبره وعرفه بنفسه ، فاستأجر لزوجته الفرنسية منزلاً أنيقًا في محلة الصدرية ، وصار فيلسوف الصدرية وجودي الصدرية بلا منازع ، وطبقت شهرته في العالم العربي حتى كتب له يومًا سهيل إدريس ذاته ، رسالة يطالبه فيها بكتابة مقالات وجودية لمجلة «الآداب» ، وهي أعظم مجلة وجودية في العالم العربي آنذاك (في الواقع لم أعثر على هذه الرسالة التي أرسلها إدريس ، ووقعتها معه زوجته السيدة عايدة ، بين الوثائق التي في حوزتي ، ولكن سلمان وعباس أكدا لي كلاهما ، بأنهما كانا قد قرآ هذه الرسالة ، وكانا قد أخبراني بذلك حينما التقيتهما في المطعم بسوق الكمب) وقد رفض عبدالرحمن ما عرضه عليه سهيل إدريس بكثير من

الترفع والفلسفة ، لقد رفض عبدالرحمن هذا الأمر بصورة قاطعة ، بحجة أنه يفكر فلسفيًا باللغة الفرنسية ولذا لا يمكنه أن ينقل أفكاره باللغة العربية .

في الواقع ، مثلما كان عبدالرحمن غير قادر على الكتابة بالفرنسية ، كان غير قادر على الكتابة باللغة العربية أيضًا . مثلما كان غير قادر على التفكير بصورة منتظمة ، أو نقل أحاسيسه وعواطفه بواسطة اللغة الفرنسية ، كان عبدالرحمن غير قادر على كتابة هذه الأفكار باللغة العربية ، إنما كانت ثقافته شفاهية ، كانت ثقافة تستند إلى الكلام لا إلى الكتابة ، كما كانت ثقافة أغلب مثقفي جيله وهي : الجلوس في المقاهي والتحدث بصورة لا نهائية على طق الدومينو وشجير النارجيلة صباحًا ، الرقود في السينمات متراخين على الكراسي الخلفية عصرًا ، وفي المساء السكر والعربدة في الملاهي والبارات والأماكن العامة . الكتب لا تقرأ منها إلاّ عناوينها ، ولا يعرف أحد منها إلاّ العروض المبتسرة في الصحف والمجلات الأدبية ، ومع ذلك ممالك تبنى في الكلام ، وممالك تهد ، عروض يهزها الكلام ويخلخلها ، ومدن يصنعها الكلام ويؤسسها ، وليس هنالك في واقع الأمر من كان بإمكانه أن ينفّذ ما يقول أو من كان بإمكانه أن يصلح واقعاً ، أو حتى يفهم واقعًا .

وعبدالرحمن كانت له حجة أخرى ، كانت له حجة مقبولة ، حجة وجودية معقولة : كان يقول إن الذي يكتب ، هو من يؤمن بشيء ذي جدوى ، يؤمن بحياة ذات معنى وينتظر مكسبًا (وكيف لي أن أؤمن بعالم خالٍ من المعنى) فقامت الدنيا ولم تقعد ، جيل بأكمله لا يكتب لأنه لا يريد أن يجعل من نفسه من صنّاع هذا العالم الوهمي المخادع ، لأنه لا يريد أن يكون مخدوعًا ، لا يريد أن يكون جزءاً من هذه الترسانة التي صبها الاستعمار والرجعية والجاحدون .

ولكن الحقيقة شيء آخر ، الحقيقة هي أن عبدالرحمن لم يكن قادرًا على الصمود ساعات جالسًا على كرسي ، أو الرقود أمام مكتب ، أو حتى الانطراح على بطنه ليكتب على الأرض ، كان عبدالرحمن يحب أن يقرأ لأن القراءة أقرب إلى الأحلام مما هي عليه الكتابة ، كان يحب أن يضع عينيه على السطور الأولى ثم يغيب عن الوعي ، يتيه بأحلام اليقظة ، يسير في حجرته ، يقطعها ذهابًا وإيابًا أو يرتدي ملابسه ويسير في الشوارع هائمًا على وجهه لا يلوي على شيء حالمًا بما قرأه ، حالمًا بما سيقوله .

الكلام يريح عبدالرحمن ، الكلام يسلّيه ، يؤنسه ويطيّب نفسه ، لأن الكلام – وهذا ما أدركه غير واحد من جماعته – يطابق الأفكار ملمحًا ملمحًا ، يطابق الوعي جزيئة جزيئة ، ذاك لأن المتكلم يفكر في اللحظة التي ينبثق فيها الكلام من فمه ، ولأنه يتحمس ويشتد في اللحظة ذاتها التي يتحمس فيها أو يفكر أو يجحد أو يشك . بيد أن الكتابة شيء آخر ، الكتابة صورة أخرى ، صورة مخالفة ومبتعدة ، وهي غريبة شيئًا ما عن الكلام . الكتابة بعيدة عن لحظة الانفعال ، مغتربة عنها . الكتابة مثل العادة السرية . هي الشعور بالصورة ، بصورة الشيء لا بالشيء ذاته ، بينما الكلام هو – في أقل أحواله – تطابق بين الصورة والشيء ، تطابق بين اللحظة والانفعال ، تطابق بين الفكرة والروح ، فحين يتكلم عبدالرحمن يطلق كلامه على سجيته في الهواء ، يشعر بنوع من التطهير ، يشعر بنوع من التخدير ، فالأشياء التي يلفظها تتبخر ، الانفعال الذي يدخره يتبخر ، الأفكار التي تعمل في فكره تتطاير . وهكذا كان عبدالرحمن متكلمًا ، لأن الكلام يحقق له عدمية حقيقية لا مجازًا ، يمنحه فلسفة واقعية ، لا فكرة استعارية ، كان عبدالرحمن متكلمًا لا كاتبًا ، كان فيلسوفًا لا دجالاً .

وحين سأله تابعه يومًا ، حين سأله إسماعيل حدوب يومًا :

«وسارتر لماذا يكتب؟» قالها وقد فغر فمه بانتظار إجابة الفيلسوف الذي أغمض عينيه مثل رسول وأجاب :

«سارتر شيء ونحن شيء آخر . . . ما يحق لسارتر لا يحق لغيره ، سارتر يكتب لكي يترجم إلى العربية . . . ومن ثم لنقرأ ، وإلاّ فخبرني لو كان سارتر لا يكتب من أين لنا أن نسمع بسارتر؟ . . . سارتر شيء آخر» .

قال ذلك وهو يسير مع إسماعيل حدوب في شارع الرشيد قرب جامع الحيدر خانة في ليل شتوي بارد بينما خرجت أفواج العمائم من باب الجامع الخشبية الكبيرة ، وأخذوا يزاحمون عبدالرحمن وإسماعيل على الرصيف الضيق عند سياج الجامع المزخرف بالريازة الإسلامية والمطعم بالمينا الزرقاء ، عمائم بيضاء ، صدار رمادية قاتمة ، عباءات سود ، وبأيديهم الكتب والمسابح ، وجوه متشابهة باللِّحى ، بالخطوة السريعة الواثقة ، والنظرة الصارمة ، فأراد عبدالرحمن وإسماعيل عبور الشارع ، وما إن هبطا الرصيف حتى توقف أمامهما ربل أسود صغير بحصانين أبيضين ، هبطت منه سيدة ترتدي البوشي والعباءة السوداء ، وأمامه رجل بالعقال والكوفية والخنجر في حزامه ، فاستقل عبدالرحمن وإسماعيل الربل ، ليقوما بجولة قبل الذهاب إلى ملهى دلال مصابني ملهى «جريف أدب» قرب سينما روكسي .

كلاهما صامت ، وهما ينظران بنشوة إلى الشوارع الإسفلتية التي تفرق البنايات العالية عن بعضها . كلاهما صامت ، وهما ينظران إلى الأرصفة المزروعة بأشجار اليوكالبتوس ، وفي الأعلى قبب المساجد الخضر الصامتة ، والمآذن الشائهة في الهواء ، بينما كانت مصابيح الكيروسين الموضوعة على جانبي الربل تضيء الشوارع المضببة في الشتاء . كانا يراقبان مقاهي الرصيف التي لا تغيب النارجيلة عنها أبدًا ، ولا استكانات الشاي ، والأفندية يزدحمون في الشوارع بالأيدي النظيفة ، بالبذلات

الإفرنجية ، وهم يسيرون قرب النباتات الطحلبية التي تنمو في الطين اللزج ، في الثقوب التي تملأ الأرصفة الإسفلتية ، وكانت السافرات يتزاحمن على محال البقالة في الأسواق ، يتزاحمن على المغازات ، أو يجلسن عند أبواب المنازل على العتبات (كل شيء يتكرر طوال الستينيا · سينما رويال ، سينما روكسي ، مكتبة مكنزي ، كورونيت ، المقهى السويسري ، أورزدي باك ، سارتر ، تروتسكي) وعبدالرحمن كالتمساح لا يفتح عينيه إلاّ ليبكي . كان يسير وعيناه تروغان يمينًا وشمالاً إلى الصدور الممتلئة ، التي كشفت الستينيات عن كراتها الحليبية من فتحة الصدر ، كان يحدق في الأجساد المائعة ، يحدق في السيقان الذهبية والتنانير الكبردين والمظلات البراقة .

-٣-

إن فيلسوف الصدرية لا ينقصه الصديق التعيس إنما تنقصه الوظيفة العمومية ، وكتابة مقالات الدعاية لنفسه ، لم تكن تنقصه الوسامة التي تروق للسيدات ، ولا الأناقة التي تبهر الرجال ، ولا المال الذي يعجب بائعات الهوى ، كما كان له ذكاء وظرف في آن واحد ، وقد حقق بالفعل نجاحًا باهرًا في مجتمعات المقاهي الأدبية . فقد كان يلذ للأفندية في زمنه أن يروا شابًا بغداديًا له القدرة على الرد على أعظم فلاسفة الغرب ومفكريه ، ومن ضمنهم سارتر ، كان يلذ لهم أن يجدوه منزويًا ، يطيل التأمل والتفكير بالوجود وبعبثيته وعدمه ، كان يلذ لهم أن يتحدث الفيلسوف بلغة غريبة ، صعبة ، معقدة عن الوجود لذاته والوجود من أجل ذاته ، وكان هو من جانبه يعجبه أن يرى تألّقه السريع وشهرته ، هذا التألق الذي يدعو إلى تفسيرات عدة ، ابتداء من كبريائه الطبقية وانتهاء بتواضعه الفلسفي ، مرورًا بأدب السلوك الفرنسي : اللياقة البسيطة ، الكلمات

المنمقة ، الحركات المتميعة ، والتي كثيرًا ما كان يفقدها عندما يثمل .

كان عبدالرحمن يطمح إلى مركز رفيع باهر ، وسلطة فعلية ، وسمعة مجلجلة ، إلاّ أن شعوره بعدم القدرة والعجز يلهبه فكرة أن الفيلسوف لا يعمل إنما يفلسف .

وحين عاد عبدالرحمن من باريس في زيارة صيفية لبغداد ، قدمه والده إلى رئيس الوزراء نوري السعيد في العام ١٩٥٧ على أمل أن يستحدث له رتبة فيلسوف رئاسة الوزراء ، بعد عودته نهائيًا من باريس ، وقد اهتم فخامة السياسي اللامع به اهتمامًا خاصًا ، ونصحه نصيحة ظلت عالقة بذهنه على الدوام .

«أنت فيلسوف وعليك أن تفلسف ، وإن العمل سيعوق فلسفتك ، فالوظيفة لا تليق بك ويمكنك أن تستغني عنها ، وأن تتركها لنا نحن عباد الله الذين لا شغل لنا بالأفكار السامية والأشياء العظيمة» .

خرج عبدالرحمن من مكتب السيد رئيس الحكومة مبتهجًا ، فربما أطلقه فخامة الرئيس من أسار هذا الأمر الذي ورطه والده به ، بينما خرج أبوه مبتئسًا ، غاضبًا ، متحسرًا ، حاسبًا أن الرئيس خاف على مركزه من نبوغ ابنه ، وقد دوّن الرئيس في مذكراته الشخصية للعام ١٩٥٧ (وهو دفتر صغير ومتواضع وجدته بحوزة السيدة آمنة السعيد) الملاحظة التالية :

(طالما يثقل عليَّ النبيل شوكت أمين باقتراحات لو أخذت بها لقلبت الوضع السياسي على رؤوسنا ، ومنها هذا اليوم ، إذ جاء إليَّ بابنه الذي تخلصنا منه بإرساله إلى باريس ليدرس الفلسفة ، يقترح علينا تعيينه بوظيفة فيلسوف في رئاسة الوزراء بعد عودته من باريس ، وقد أفهمته بشكل غير مباشر ، أن الوزارة يمكنها أن تسقط دون حاجة إلى فيلسوف مثل ابنه ، ولكن الأكثر سوءاً في هذا الأمر أن هذا الشاب عاد بحال أسوأ من حاله عندما كان في بغداد ، وقد أدركت بشكل قاطع ، ومن الوهلة

الأولى التي تكلم بها هذا الشاب ، أنه مجنون ، فإن لم يكن مجنونًا فأنا المجنون ، ووالله لا أدري كيف أصبح هؤلاء الأوباش أرستقراطيين) .

مما لا شك فيه أن ملاحظة السيد رئيس الحكومة ، لم تكن في محلها ولم تكن منصفة ، فقد كانت ملاحظة غامضة ومنحازة ، ولم يكن يدرك أن عبدالرحمن بوصفه فيلسوفًا كبيرًا كان ينفر من العلاقات من ذوي النفوذ ، ومن الأسر المرموقة ، وكان يحتقر حياتهم ، وكان يدرك بشكل جلي أن المجتمع الذي يحق له الارتقاء به ، هو المجتمع الذي يحمي مخيلته من السقوط ، ولم يكن هذا المجتمع هو المجتمع الأرستقراطي على الإطلاق ، وذلك لو أنه قال أمام رئيس الوزراء أنه يشعر بالغثيان لأصبح عرضة لعاصفة من الضحك ، لتعرض إلى السخرية المريرة ، وهي قضية تتعلق بنظامه الشخصي أكثر مما تتعلق بنظام الأخلاق ، ولذا فإنه وإن كان يشتهي نساءهم ، كان يحب إذلالهم ، فلو تزوج منهم لكان قدّرهم وشرّفهم ، ولذا فإنه عاد إلى بغداد بامرأة إفرنجية تفوقهم أخلاقًا وفلسفة ، كان يريد احتقارهم وإهمالهم وإظهار تفوقه الفلسفي والفكري عليهم ، وقد عدّت النساء اللواتي كن يتحلقن حول السيدة والدته هذا الأمر نوعًا من الغش باللعب .

على الرغم من الغثيان ، على الرغم من الشعور بعدمية الوجود ، ولا جدوى الحياة ، لم يكن ينقص عبدالرحمن حبّ السهر ، ولا الرقص في صالات الليل ، لم يكن ينقصه حب الكونياك أو الضحك مع السقاة ، والراقصات ، والسكارى . وكانت دلال مصابني صاحبة أكبر كباريه في بغداد كباريه «جريف أدب» ، تفتخر بصحبته الفكرية ، وتشكو للآخرين إصابته وإصابتها بالغثيان ، وهي من جانبها لا ينقصها الفن المرح ، الفن المصنوع والمتوتر ، ولا النساء المطليات بالدهان ، والمتوترات بالرغبة بالكسب والكحول والمخدرات والموسيقى ، وإلى هذا كله كان عبدالرحمن يأخذ معه

إسماعيل ، يدفعه في التاكسي الواقف أمام حديقة الملك غازي ، ويقول : سنعيش ساعتين غثيانيتين أو ثلاثًا .

ملهى جريف أدب ، الملهى الذي تملكه الراقصة الكبيرة دلال مصابني ، الملهى المقابل لسينما روكسي ، كان موضوعًا على واجهته الخارجية صندوق مزجج يحمل صور الراقصات العاريات والإعلانات الخليعة ، ولافتات مثل (أحلى الساعات مع الراقصة دمع العين ، أو سكر القلوب ، أو عذراء الوجودية) الاسم الأخير من اقتراح إسماعيل طبعًا . ومن أجل أن تسير الأمور معه جيدًا ، اقترح عبدالرحمن يومًا أن يُزيّن الممر الطويل الذي يقود إلى صالة الرقص في الملهى ، بصورة كبيرة لجان بول سارتر وأن يوضع مصباح أحمر يثبت في مواجهتها من الحائط المقابل ، فوافقت دلال مصابني في الحال .

جاء عبدالرحمن في مساء اليوم التالي مع إسماعيل حدوب ، وهما يحملان صورة ضخمة مؤطرة بإطار خشبي نحيف ، ودخلا باب الملهى على ضجة البويات والراقصات ، وكان دلال تتقدمهم حيث صعد عبدالرحمن على كرسي صغير في الممر ليدق الصورة ، بينما وقف إسماعيل أمامه وهو يشير إليه بموازنتها ، وحين سألتْ دلال عن صاحب الصورة ، ابتسم عبدالرحمن ابتسامة فلسفية حزينة ، وأطرق رأسه قليلاً ، وتحرك ليشير بإصبعه الذي وقع بالضبط على عين سارتر العوراء وقال لها :

«يا دلال هذا هو الذي علمنا جميعًا أن نشعر بالغثيان» .

فهزت دلال رأسها وقالت :

«آه غثيانجي أصلي» .

هذا ما فهمته دلال من الأمر ، بينما وحده إسماعيل ، شعر بعمق المسألة وأهميتها ، أمام الراقصات والبويات الذين فغروا أفواههم أمام الصورة الجميلة الملغزة .

وصلة راقصة ، ثم يدخلون في دهليز طويل بين صفين من الصور المعلقة ، صور الراقصات شبه العاريات وقد أحاطهن الزبائن بسورة من الجنون وكؤوس الخمرة بأيديهم ، ثم يجلس عبدالرحمن وإسماعيل إلى طاولتهما الموضوعة في الركن البعيد تقريبًا ، هذه الطاولة التي تقدست منذ ذلك اليوم الذي دخل فيه عبدالرحمن الملهى ، بعبارة (طاولة الفيلسوف) . في حين كانت مغنية بدينة ذات أفخاذ بيضاء ، وصدر ممتلىء وشعر أحمر ناري ، تتأوه في الميكرفون بصوت مفجوع ودنيا الملهى مقلوبة على رأسها ، وحين يتلقون التحيات من الندل ، وبعض السكارى وبنات الهوى ، تغتنم المطربة الفرصة لتحية وصول الفيلسوف ، فيلسوف الصدرية (عبدالرحمن سارتر) وعلينا أن نغفل أنها كانت تلفظه (سانتر) ، ومنذ الكأس الأولى يتحول عبدالرحمن إلى فيلسوف حقيقي ، ويتحول إلى متفلسف جبار ، أما إسماعيل الذي أدمن الشراب منذ صغره فكان أكثر مقاومة ، أكثر صلابة ، أكثر ممانعة أمام السكر ، وقد كان مولعًا براقصة آثورية صغيرة يلقبها أهل الملهى بـ(وزّة) . كانت وزّة بيضاء ، متميعة ، كل شيء يهتز فيها مع علكتها : صدرها ، وعجزها ، وأقدامها التي لا تستقر على مكان ، وقد كانت تحفظ قاموسًا من الكلمات الخليعة ، وبين آونة وأخرى تشير بظفرها الطويل الملون بالأحمر الفاقع إلى صدرها شبه العاري ، وتقول لهم إن الغثيان يرقد هنا ، فتقوم الدنيا ولا تقعد .

«صدر وجودي!» هكذا يقول إسماعيل لعبد الرحمن ، الذي ينادي على ميخا ، ويطلب أربع كؤوس جديدة تاركًا لصديقه تنشق رائحة شعرها المنكوش والمصبوغ ، ومحاولة تقبيل عنقها أمام المائدة الممتلئة بكؤوس الكونياك ، والويسكي ، وأطباق الفستق الحلبي ، والجاجيك ، والزلاطة ، والفول ، وأعقاب السجائر ، وكانت وزة هي عذراء الوجودية .

كان عبدالرحمن يذل نفسه أمامها ، ويركع لها ، ويزداد هوسًا

بمغازلتها ، وهذا ما لا يعجب إسماعيل طبعًا ، وبين آونة وآخرى توشوش في أذنه بفم يفوح منه بخار الكونياك الرخيص ، ويغرق في ضحك مجلجل ، بينما تضرب يده العصبية على الطاولة فتتطاير أعقاب السجائر التي تملأ المنفضة . وكانت وزّة تضحك ضحكتها الرعناء كلما مسّ الفيلسوف كتفها العاري ، أو زندها ، والموسيقى الصاخبة تلهب المكان ، حتى تدغدغ حواس الفيلسوف ، فيغني بالفرنسية أغنية ، يقول لهم إنه النشيد الوطني للوجودية ، فتفغر أفواهم أمامه ، أمام فلسفته الفرنسية غير المفهومة ، على أنغام موسيقى مخبولة ، ومع كل كأس كانوا يزدادون غثيانًا ووجودية ، حتى تلتمع عيونهم بهذه الفلسفة العظيمة .

«المرأة ، لا شيء في الحياة سوى المرأة وكأس الكونياك . . .» قال إسماعيل ، وقبل أن يكمل انتفض عبدالرحمن من مكانه ، ومسح على جبينه بيده العصبية المشعرة ، فأُصيب المكان ببرودة مفاجئة جمدت الجميع ، فوجّه كلامه إلى إسماعيل الذي أذلّ الوجودية وخانها مع المرأة :

«هل نسيت الوجودية . . يا كلب . . . هل أنستك راقصة ، ما علّمتك إياه؟» .

تلعثم إسماعيل أمامه ، أمام هذه النبرة العصبية المؤنّبة ، وتدلى رأسه حتى أصبحت خصلات شعره الأسود اللامع على عينيه ، فتناول سيجارة بيده المهتزة ، وأشعلها فسقط نور أحمر على وجهه ، ورفع بصره السكران وقال :

«لا يا عبدالرحمن . . . لا يا فيلسوف الصدرية . . . لا يا سارتر العرب . كل هذا وأنا أشعر بالغثيان ، إن هذه المرأة هي الوجود بذاته ، أما أنا . . . فأنا الوجود من أجل ذاته» .

كانت هذه الكلمات الوجودية ، هذه الجمل الفلسفية المتلاحقة ، هذه الأفكار السارترية العميقة ، ردت عبدالرحمن إلى مكانه ، وبرّدت أعصابه ، بينما الراقصات المسكينات ، الوجوديات الحقيقيات ينظرن بأفواه

فاغرة إلى هذا العالم المقلوب على رأسه ، ولكنهن شعرن بأن الأمر سوته هذه الكلمات السحرية ، فعدن إلى صخبهن ، بينا تاه عبدالرحمن بفعل جواب إسماعيل بأحلام كباريه الجبسي بالحي اللاتيني ، طار بأحلامه إلى أيام مونمارتر في المعرض الدولي ، ورقص الغجريات السمراوات اللواتي يتمايلن مثل أوراق التبغ ، حيث كانت الكلمات البوهيمية تلهبه ، وتنعش ذاكرته بالمشاهد الباريسية ، الملغزة : الوجودية ، الأصوات المرغية ، الفلسفات اللاتينية ، وملابس النساء الموشاة برقائق الدانتيلا الحمراء .

«فلنجعل من بغداد باريس أخرى ، فلنجعل من بغداد عاصمة للوجودية» .

«كيف؟» قال إسماعيل .

الراقصة الزنجية القادمة من البصرة برقصها الحريمي المخلع ، ونطنطتها على خشبة المسرح ، بقوامها المهتز ، ببدنها البني الذي يلمع تحت النيون ، برائحتها الزنخة وشفاهها المكتنزة ، بأسنانها البيض كالعاج ، ألهبت عبدالرحمن فكرة الوجودية الوطنية .

«من قال إن الوجودية لا تُعنى بالسياسة ، ولا بالوحدة الوطنية ، وإلاّ فما معنى الالتزام السارتري؟» .

بعد صمت معجز ، بعد صمت ملائكي ، أمر عبدالرحمن البوي ، أن ينادي على الراقصة دمع العين ، أن ينادي على وزّة ، وعلى وريزان الكردية بعد تختها الشرقي الراقص ، وعلى لميعة ومنيبة وسنية ، ثم أعلن فيلسوف الصدرية تأسيس الوجودية الوطنية ، التي تلم الشمل الوطني بإذن سارتر ، فانقلب الملهى إلى ساحة رقص أو إلى ساحة مصارعة ، وانقلبت الكراسي في الصالة ، وانقلبت الطاولات ، وتكسرت الزجاجات وتطايرت صحون المزّة على الأرضية ، فهرب الزبائن من الباب الضيق وتصارخت العاهرات ، وأخذ المحاسبون والندل يصيحون بأعلى أصواتهم ، وتطوح الراقصون

كالمجانين مترنحين على أصوات موسيقى مخبولة ، حتى سقطوا على الأرض فحمل البويات عبدالرحمن وإسماعيل اللذين أُغمي عليهما من السكر والتعب وألقوا بهما خارج الملهى .

-٤-

بعد ساعات أوصله التاكسي إلى منزله ، فدفعه إسماعيل بيديه حتى نزل مترنحًا وقد تعتعه السكر ، السيجارة في الفم والجاكتة محمولة بإصبعه على كتفه . وحين طرق الباب بيده الثقيلة ، تهاوى شيئًا فشيئًا حتى سقط على عتبة الباب ، وبعد برهة من الوقت فتح الباب الصاج ذو الطلاقتين بهدوء ، وحين فتح عينيه الزائغتين - وهو ممدد على الأرض - بقوة ، وجد جرمين بملابس للنوم واقفة وأقدامها عند رأسه .

لقد كان الفيلسوف وجوديًا جدًا ، ولأنه كان وجوديًا ، فإنه لم يكن يبحث في الحب عن الآلام واللوعة والعذاب الناتج عن الحب المستحيل ، إنما كان الحب لديه مثل أي شيء آخر ، غير موجود ، هكذا ببساطة ، غير متشكل ، غير متكون ، غير موجود ، لأن الحب من العدم ، والعدم وحده خالق كل شيء ، فحضور جرمين هو وهم ، مثل غيابها ، وهي مثل كل الأشياء الأخرى التي تحيط به ، أوهام ، أوهام حسب الوجهة التي أرادها الفيلسوف لها .

كان الفيلسوف يسخر من الانصهار العضوي في الحب ، كان يسخر من التناسخ ، والتواشج ، والتلاحم في الحب ، لأنه غير موجود ، ومن أجل أن يكتمل فيلسوفًا بالحب ، عليه أن يبتدعه ابتداعًا ، عليه أن يطهره من العقم الذي لحقه على يد المثاليين ، عليه أن ينقّيه من سوء الفهم ، من الوحدة ، من الخيبة ، فكل حب خائب هو حب مرضي ، لا يحمل سوى سوء الخلقة ، فجرمين قبيحة ، وهو يدرك ذلك جيدًا ، ولكن قبح جرمين هو

جمال أيضًا ، فجمالها ناتج من القبح الذي يميزها ، والبرهان على ذلك ، أنه بعد أن تذوقها مرات لا تحصى ، نسي ذلك الشيء وتعوده ، ماذا فعل الحب بعد إيمان متكرر به غير الندم؟ إن الحب كذبة ، وإن العدم الذي يخلقه هو وحده الذي يمكننا أن ننعته بالشيء الأصيل . في الواقع لم تكن تنقص الفيلسوف البراعة التكتيكية الفذة في خلق نوع من التطابق الحاد بين الحقيقة والخداع ، وأن سر الفيلسوف العجيب يكمن في إخفائه لعواطفه ، يكمن في الخداع ، والخداع الأول هو أنه لا يحبها ، ومن هنا تبتدىء لعبته الفلسفية في الحياة . وحين يكون دوره كمحب مجازًا خالصًا سيزيح تلك الغلطات الصغرى التي يرتكبها ، والكلمات الجميلة التي ينطقها ، ويحتجب بها عن نفسه ، ويحتجب بنفسه عنها ، ويظل يدور في هذه الحلقة المغلقة على نفسها ، سيدور في هذه الحلقة التي وجد نفسه فيها فألفها ، وكان عليه أن يجد استراتيجيته في التعامل مع جرمين ، سوف يضغط عليها كلما تمتنع عنه ، ويستسلم لها كلما صدته ، ولكن حينما يراها خاضعة سيبتعد عنها ويبعدها عن نفسه ، سيزيحها عن خياله تمامًا ، سيرميها بعيدًا . وقد كانت تروق له هذه اللعبة الجميلة التي تجعله يفكر ، ويحيك الخطط ، ويدبر ، كانت تروق له هذه الأفكار ، وهو يصوغها ويبريها ، فيستيقظ صباحًا لينفذ ما كان يفكر به ببراعة في الليل . ولكن خطورة هذا الأمر كانت تكمن في مكان آخر ، كانت تكمن في مجال آخر ، كانت خطورة هذا الأمر تكمن – في حقيقة الأمر – في أنه لم يكن هو الذي يخطط ويدبر ، إنما كان ينفذ ما كانت جرمين تخططه وتدبره ، وكانت على براعة فذة في إيهامه بأنه هو سيد الأمر ، هو الذي يخطط ويدبر ، كان عبد الرحمن يتوهم ، كان عبدالرحمن يتخيل أن القرار بيده ، وهو في – واقع الحال – كان مفعولاً لا فاعلاً ، إذ لم يكن يعرف أن القرارات التي نفذها لم تكن قراراته هو إنما قرارتها هي .

لقد كانت جرمين تمتلك استراتيجية على درجة كبيرة من الخطورة والبراعة والأهمية ، كانت جرمين تدرك ما تريد ، مثلما كان الفيلسوف لا يدرك ما يريد ، والطريقان المؤديان إلى أهدافهما يمران عبر أبواب متقابلة ، واحد يفضي إلى طريق بعيد ، وآخر يؤدي إلى طريق صعب متعرج يحتاج إلى جهد كبير لاجتيازه ، ولذا فإنها قرّبت المسافة بين البابين حتى جعلتهما بابًا واحدًا . لقد أرادت أن تجعل هذا الحديث خافيًا عن بصره ، ولكنه كان مطلوبًا ومُبتغى ، فلم تكن جرمين تتكلم مثله عن هدف نهائي ، هدف أقرب ما يكون إلى المثالية ، هذه المثالية التي تطبع الفيلسوف حتى وإن أنكرها ، ووسمته بميسمها حتى وإن أدانها ، فلم تكن جرمين فلسفية مثله ، ولم تكن تعرف من التجريد سوى التعابير الجغرافية مثل : المدار الشمالي ، أو خط الاستواء ، لكن ابتغاء وصولها إلى الهدف لم يكن على درجة كبيرة من التفاهة ، والسخافة ، واللامبالاة ، فلقد كانت تدرك أن التوجه في هذه المسيرة إما شرقًا أو غربًا ، وليس هنالك من باب يقع في الوسط على الإطلاق ، فإن كان لكل منهما كيان متمايز ومختلف ، فإن لها وحدة من التماسك والتطابق ، هذه الوحدة أشد وضوحًا من وحدته وتماسكه ، ولكن الشيء الآخر الذي يوحدهما ، هو أن كليهما يدّعي أشياء أمام الآخر لا يملكها ، وهذا ما يدركه كل منهما ، يدركه ويخفيه عن الآخر ، ولكن كلاً منهما كان يدرك بغريزته ، ويعرف بدخيلته أمرًا على شيء من الخطورة ، وهو أن الآخر عاطل عن المواهب الكبيرة ، ولكن جرمين كانت على عكس الفيلسوف تمامًا ، كانت تفرق بشكل حاد بين ما هو عقلي وبين ما هو معتاد ، وهي إحدى مسافات الفكر الفرنسي التجريبي ، التي تعرفها جرمين بعفويتها ، أما التظاهر بنكرانها ، بنكران هذه المسافة ، فإنه لن يجدي سوى إطالة الفترة ، لن يجدي سوى تمديدها ، وكانت جرمين على قدرة فائقة في فصل الأشياء عن بعضها ، وعلى نحو

لا رجعة فيه ، لقد وضعت جرمين كل شيء في مستواه ، في مكانه ، وقد حسبت الأمر جيدًا ، وقاسته قياسًا ديكارتيًا دقيقًا على النحو الآتي :

هنالك طريقان : طريق الخدمة في باريس ، الخدمة في شقق الموظفين ، والاستسلام لذوي الجيوب الممتلئة ، والدخول العالية ، والطريق الآخر هو الزواج من الشرقي الحساس ، هاوي الوجودية ، وهو رجل ذو أناقة في اتباع الذوق الأحدث ، منحدر من أسرة أرستقراطية على علاقة مع الأسر الحاكمة وعوائل الأرستقراطيين في بغداد ، وله مكانة من نوع ما في المدينة الشرقية .

وقد وقفت الفرنسية الديكارتية أمام رؤيتين متمايزتين ، وقفت أمام إمكانية واحدة من إمكانيات الحياة واحتمالاتها ، الأولى : كانت رؤية بيولوجية ، وهي الحب ، أو لنقل الجنس ، والثانية : اجتماعية ، وهي المال ، ففضّلت الثانية . وقد أدركت جرمين ذلك الأمر ، في اللحظة التي اندهشت فيها دهشةً بحجم الباقة الكبيرة التي جاء بها عبدالرحمن إلى شقتها ، وقال لها :

«هل تحبين الزعرور؟» وهو مطرق ، فقالت :

«نعم» وهي تطرق رأسها قليلاً ، متظاهرة بالخجل . فانتزع عبدالرحمن كيسًا من جيب جاكتته السوداء ، ووضعه على الطاولة ، ثم تحرك قليلاً ليصب كأسين من الشامبانيا ، وهو يسوّي زهرة بيضاء زيّن بها عروة جاكتته ، ثم تحرك نحو الزاوية الأخرى ليخرج من الكومدينو كومة من الشموع والأواني المقدسة والصحون التي لفتها جرمين بقطعة من القماش ، ووضعها أمامها على الطاولة .

«جرمين . . . هل تتزوجينني؟» . قال وهو يقف متصالبًا أمامها ، فقالت :

«أفكر!» .

لم تكن جرمين ترى بغداد مدينة بشعة ، لا ، لا على الإطلاق ، ولم يكن يضيرها هواؤها اللاهب قط ، ولا سكانها الشرقيون المختلفون اختلافًا كليًا عن أبناء وطنها . وحين أستأجر لها عبدالرحمن منزلاً في محلة الصدرية ، منزلاً فخمًا ، منزلاً مسيجًا بالأشجار والقرميد ، كان والد عبدالرحمن هو أول من بارك هذا المنزل الذي سيشهد ولادة أحفاده ، وسيحفظ ذكره أبدًا في الحياة ، لقد كان والد عبد الرحمن مقتنعًا بعبقرية ابنه ، كان يحترم نبوغه ، لا لأنه فيلسوف وحسب ، إنما لأنه تزوج من فرنسية ، إذ كان زواج ابنه من فرنسية امتيازًا لا امتياز في الحياة يعادله ، هذا يعني أن أوروبا بكل عبقريتها ونبوغها قد قدرته ، قد احترمته ، ومنحته واحدة من بناتها . كان يراها مصاهرة بينه وبين ديغول ، كان يراها قضية سياسية أكبر من كونها زواجًا بين طالب ذهب ليدرس في باريس فجاء بواحدة ممن عرفهن هناك . وهكذا كان والده منشغلاً بترتيب منزل مؤثث على ذوق ومزاج الفرنسية ، كان يريد أن يهيىء كل شيء لها ، لأنه لا يريد أن يظهر أمام هذه السيدة الأجنبية بمظهر البخيل ، وإن كان يضايقها بهذا الكرم الباذخ والتطفل غير المحدود ، إلاّ أنها قبلت ، وافقت ، قدّرت عواطفه واحترمته .

وعلينا أن نقول إن جرمين من جانبها ، كانت قد أعجبتها هذه المحلة بغرائبيتها ، بطرازها الشرقي ، بأزقتها الضيقة الملتوية ، وكان السوق يمنحها شعورًا متميزًا بأنها كانت تسيح في بغداد ، مستعيدة في ذهنها ما قرأته من «ألف ليلة وليلة» وأنها محظية نصرانية ، سجنها الأمير الشرقي في مقصورتها ، وإن كان عليها أن تقسم رأسها نصفين ، فقد قسمته وجعلت نصفه الأول يفكر بروح تهكمية عالية ، والنصف الآخر يحمل مشاعر الغثيان لترضي بها زوجها . لقد استطاعت أن تخفي سخريتها وتمضي سنتها الأولى دون عوائق كثيرة ، أمضت سنتها الأولى وهي ترضي زوجها

وذوقه الوجودي بأشياء متعددة ، إلاّ أنها وبعد أن ذهبت إلى باريس لتضع توأمًا ، ولدًا وبنتًا ، واتصلت بزوجها لتسأله عن تسميتهما وكان قلبها يدق بقوة ، قال لها :

«الولد سميه (عبث) والبنت سدى» . فطلبت جرمين منه أن يترجمهما لها إلى الفرنسية ، وما إن ترجمها حتى أغلقت سماعة الهاتف وجلست على الكرسي شبه منهارة ، إلاّ أنها وفي الوقت ذاته شعرت بوحدتها وقد عادت إليها ، شعرت بأن رأسها الذي قسمته نصفين قد عاد رأسًا واحدًا .

لقد امتعضت أول الأمر ، تقززت ، غضبت ، ثم كظمت غيظها ، لإدراكها أن زوجها جاد لا يتزحزح ، لقد شعرت أن هاوي الوجودية موسوس حقيقي ، مريض ، لا شفاء لوجوديته ، ولكنها بعد أن عادت إلى بغداد عاقبته بتوقفها التام عن الغثيان ، لم تعد تعبأ كثيرًا لا بفلسفته ، ولا به ، عادت إلى حياتها دون الشعور بالمظاهر الوجودية التي كانت تنتابها ، لقد توقفت الأعراض تمامًا ، لقد شفيت ، فانهمكت انهماكًا كليًا بتربية الأولاد كي لا يصبحوا مثل أبيهم ، كي لا يصبحوا مؤمنين موسوسين بشيء على الإطلاق ، ومن ثم كانت تريد أن تنتبه لنفسها ، تنتبه لحياتها ، كانت تريد أن تحافظ على صحتها وذلك بـ : العناية الفائقة بالبشرة ، بالرشاقة ، وبالنحافة وصحة الشعر ، والرياضة اليومية ، والأكل المنتظم ، والحمام الساخن . لقد عادت إلى الهلع الأوروبي من الشيخوخة ، من الموت ومظاهر الهرب من التفكير بالنهاية المبكرة للحياة ، الخوف من المرض والتهدم المتوالي للجسد .

ولم يعد للفيلسوف مكان حقيقي في المنزل ، فالغثيان ولّى ، تركته جرمين في باريس وجاءت دون مظاهر وجودية . والجنس لم يعد له حقيقة مع امرأة ليست لها مواهب فلسفية ، فأخذ عبدالرحمن يبحث عن غثيانه

في منطقة أخرى ، في مكان آخر ، ولم يكن هذا المكان الآخر سوى الخمارة وهي خمارة شريف وحداد في شارع الرشيد ، أو في مقهى البرازيلية ، وفي المساء ، فإن الغثيان لن يتفجر إلاّ في ملهى جريف أدب مع دلال مصابني قرب سينما روكسي .

-٥-

وإن كانت دلال - وهي راقصة مسيحية تدربت على يد واحدة من أشهر راقصات شارع الحمراء في بيروت أوانذاك ، والتي كانت تدير ملهى راقيًا في الستينيات ، هو ملهى جريف أدب قرب صالة سينما روكسي الشتوية في شارع الرشيد - تشعر هي الأخرى بالغثيان ، ولا سيما حينما يشعر الفيلسوف به أمامها ، فإنها كانت تمتلك أيضاً شعورًا بمرض العصر ، لقد كانت لها سحنة شاتوبريانية ، كما يقول فيلسوف الصدرية ، أو لنقل كانت لها سحنة غلمانية ، وهذا ما جعل تابع الفيلسوف إسماعيل حدوب ينجذب إليها ، ولنقل بصراحة تامة إن سمح لنا المجال ، إنّ دلال التي كانت مغرمة بفحولة حدوب ، كانت منجذبة ، وبالقوة نفسها ، إلى جيب الفيلسوف .

لم يكن من السهل على دلال ألاّ تشعر بما يشعر به زبائنها ، ولذا فإنها كانت ، وبعد كل مضاجعة مع الفيلسوف ، تعترف بقوة بأنها شعرت بالغثيان ، وهذا ما جعل الفيلسوف ينجذب إليها ، لأن زوجته - في واقع الأمر - بعد أن عادت إلى بغداد ، لم تعد تشعر بما كانت تشعر به في باريس ، ربما كان المناخ الوجودي الذي يشكل الغلاف الجوي لباريس ، هو الذي كان يؤثر عليها بهذه المشاعر الفلسفية الخالصة ، فهي حينما كانت تعيش في باريس ، حينما كانت خاضعة بشكل طبيعي لمؤثرات هذا المناخ هناك ، كانت تشعر بشكل تلقائي بالغثيان وبمظاهره ، إلاّ أنها بعد أن

غادرتها مع عبدالرحمن إلى بغداد ، وبغداد - هذا واقع حال - لا تمتلك الغلاف ذاته الذي تمتلكه باريس ، لذا فإن الغثيان قد توقف ، ثم اختفى تمامًا ، وحين سألها عبدالرحمن كيف كانت تشعر به في العام الأول من عودتهما إلى بغداد ، ابتسمت وقالت :

«ببساطة لأني لم أفقد الشحنة الوجودية بعد» .

وهذا ما جعل الفيلسوف يفكر بغيرها ، لأنه لا يقوى على رؤية الغثيان غثيانًا فرديًا ، كان يقول إن الغثيان مثل القبلة لا يتم إلاّ بالمشاركة ، لا يتم إلاّ بين رجل وامرأة ، فلم تعد جرمين تشكل له شيئًا على صعيد العملية الجنسية ، ولم يعد يشكل لها هو الآخر شيئًا ، ولا سيما بعد أن أنجبت «عبثًا» و«سدى» ، فلم تعد تكترث لا بالغثيان ولا بالمظاهر الوجودية الأخرى ، وحين آلمها مرة بإلحاحه ، صرخت به :

«إني أربّي لك «عبثك وسداك» . . . وأنت استقلّ بغثيانك . قسمة عادلة . فأنت لا تكترث لا «بعبث» الذي أصيب بالحصبة . . . ولا بسدى التي تبكي منذ يومين ، وأنا أقف أمام باب الطبيب سيمون بهلوان حتى المساء . . . فخذ عني غثيانك واذهب» .

وإن لم تكن تعجبه هذه اللهجة الموجهة بالضد من فلسفته ، والتي تشكك بكل مظاهر الوجودية ، إلاّ أنه ابتلعها وهو يضع كتاب «دروب الحرية» على الطاولة ، وعدل من نظارته السوداء ، التي تشبه نظارة سارتر ، على عينيه ، ثم نهض من مكانه ، وارتدى ملابسه على عجل وخرج إلى الشارع .

خرج عبدالرحمن من المنزل ليسير عصرًا في شارع الملك غازي ، وكان كنّاس الشوارع ببذلته وغترته ومكنسته يسير ، فتقدمه قليلاً ، وهو يدفع بالأزبال أمامه ، وحين أراد أن يتجاوزه لم يستطع ، فوقع عبدالرحمن ضحية حساسية الغبار ، وقد بدأ بالعطاس لاستنشاقه الطوز الأبيض المتطاير في

الهواء ، مثلما كان يعطس لغبار طلع الأزهار على الرصيف ، فاستدار قليلاً وسار نحو ساحة زبيدة ليصل إلى جادة الملاهي ، حيث تقع دور السينما ، ثم أخذ يتطلع إلى لوحات الإعلانات المضاءة بالنيونات ، والملصقات الموضوعة على الجدران ، وكان لا يفوته الشعور بالغثيان لدى رؤيته اصفرار ورقة على غصن ، أو ريشة عالقة على مظلة بقالة ، أو قشرة مهروسة بين الأقدام . كان قلبه يحنّ إلى تغير الفصول ، كان يحنّ إلى غثيان يرتّب له الملذات كلها في سمفونية واحدة ، تتناول مختلف الحواس ، وتترك له في النهاية أرق انفعال ، هذا الانفعال الذي يحرك الذهن ويداعبه ، وكان غثيانه - لا غثيان سارتر - وسيلة لاستمتاع عظيم ، وسيلة للإعراب عن أحاسيسه بكل تعقيداتها واضطراباتها ، وهو نزوع لا مناص من مقارنته بالملذات المستقلة ، لذا كانت هذه هي المرة الأولى التي يستطيع بواسطتها التعبير عما يجول في رأسه الصغير ، لقد كانت هذه هي المرة الأولى في حياته التي يجد فيها نفسه وقد استطاعت أن تختار ، وأن تعبر ، وتفكر ، وترضى ، بعد أن ظل طوال طفولته ومراهقته ، يشعر بالقمع والتكميم والخرس التام ، بينما الآن وبواسطة الغثيان ، أصبح عبدالرحمن قادرًا على إيجاد وسيلة جديدة ، وسيلة محوّرة ، وسيلة مطوّرة تجمع بين البصر والشم اللذين يتداخلان ويشتركان في تكوين انطباع واحد ، انطباع مرسوم بنظرة تفوق الوصف ، وتتعدى التعبير ، وتمنح رائحة لفكرة يمكن أن تعبر عن نفسها بصورة ساحرة ، بل بسحر لا مثيل له ، بسحر عميق ، وملغز ، وهو الشعور الذي يطلق عليه في هذه الفلسفة التي تبناها عبدالرحمن ، الشعور بالغثيان .

كانت هذه الجملة الصغيرة العطرة ، هي أعظم لغز بالنسبة إلى معاصريه ، وهي أعظم سحر ، سحر موضوعي ، موسيقي ، سحر عميق ، يهذب كل انطباع من انطباعاته التي لا تخلو من الخشونة والرطانة .

وسيكون الهدف الذي يسعى إليه عبدالرحمن ، الهدف الذي يجذب أنظاره ، هو الفلسفة . وسيكون انتظار ذلك الحين هو انتظار فلسفي ، لا حين عفوي ، والوصف الذي يستخدمه عبدالرحمن لهذا الحين ، هو وصف فلسفي ، وهذه الفلسفة هي فلسفة وجودية لا ميتافيزيقية ، فلسفة تنزل الأشياء العالية إلى الأماكن السفلية ، فلسفة تمتزج بالأشياء الموجودة ، تمتزج بالأشياء الأرضية .

الكرات البيض على السطح ، الأوراق القاتمة ، والأزهار الناعمة ذات النجوم اللامعة ، التي كانت تتساقط بلمسة في باحة داره ، وتضوع منها رائحة طيبة مثل الحلوى الرخوة ، القشور التي تحط على حوض الماء ، العبير الذي يترك ألوانه الرائعة الطافية على زجاجة النافذة ، كل هذا له لون واحد ، لون عذب ، هو لون عدمي ، يظهر كل يوم في الربيع منذ زواجه من جرمين ، منذ نزوله في هذا المنزل المنيف الذي يطل على السوق ، يظهر في المسافة التي تفصل بين الأغصان والسماء ، تفصل بين الأعلى والأسفل بعد أن تنث السماء قليلاً من المطر .

لقد كانت زهور «مخالب القط» هي أجمل الأزهار على الأرض ، لأنها ومن بين جميع أنواع الزهور المنتشرة في الحديقة ، وهي : الروز ، والليلك الأبيض ، والليلك الوردي ، والياسمين . . تفهمه ، وتشعره على نحو أفضل بغثيان أعمق من الزهور الأخرى . كان عبدالرحمن يكنُّ لهذه الزهور حبًا خاصًا ، ويكوِّن عنها فكرة واحدة ، فكرة متبلورة حول الفلسفة هي : إن زهور مخالب القط هي زهور وجودية قبل الوجودية ، وقد أشعرته بعدمية الوجود منذ فجر الخليقة ، ولذا كان يطالب البستاني بغصن منها ، بغصن يحمله معه في حجرته ، لكي لا يفارقه الشعور بالغثيان حتى في الأحلام ، وكان حالمًا ينظره في حديقة منزله ، أو على طول السياج المحيط بالمنزل ، وهو ينظر إليه بشهوة ، شهوة أليمة طاغية ، يكاد يصهل ، يكاد

يبكي ، أو يصرخ .

الأشياء التي يحبها الفيلسوف كثيرة ، وأقربها إلى نفسه تلك التي تركّز في ذهنه هذا الشعور الطاغي بالغثيان ، مثل : القشدة البيضاء وعليها شيء من مربى الكرز ، فهي ألذ شيء يتمتع به ، ويطالب بأكله يوميًا تقريبًا ، هذا اللون الأحمر المزهر الشفاف الناتج من خلط القشدة البيضاء الناصعة مع مربى الكرز الشفاف ، هذا اللون الملوكي يجعله يتذكر لون النبيذ الذي كان يشربه سارتر في السان جرمان دوبريه . هذا الشبه الممتع ، الشبه اللذيذ ، هو الذي ساعده على ملاحظة مزاج سارتر ، هو الذي منحه هذه الذكرى التي لا تمحى ، ذكرى من ذكريات الوجودية الشرهة ، لشخص يحب الموائد والنبيذ ، والصحة الجيدة . لقد كانت وجودية عبدالرحمن وجودية أرضية ، أي وجودية حقيقية منسقة ، عفوية ، تلقائية تؤدي إلى كمال النفس ، لا إلى نقصها ، تؤدي إلى ارتفاع الروح وسموها ، لا إلى هبوطها واندحارها . لقد كانت هذه الوجودية توفر له مجالاً واسعًا من مجالات الحياة ، لأنها توفر له من الدقائق أبهاها ، ومن الساعات أندرها ، وأعظمها ، كانت توفر له لذة كاملة ، لذة تامة إلى حد يمكننا أن نقول عنها ، إنها وجودية شهوانية ، غثيانها يؤدي إلى الحياة لا إلى الانتحار ، وغثيانها يؤدي إلى وجبات الطعام الغزيرة ، والسهرات المعربدة ، السهرات الثملة ، والقبض على شعر عاهرته ليخلع سروالها ذات الدانتيلا المزركشة ، والزعيق بصوت عال ، كما هو عليه الأوباش والمكاربة ، وحرافيش العامة .

وجودية موجهة لا تقف عند حد ، إنما تنتهك كل حدّ ، والغثيان هو الشعور بعذوبة لا تصدق ، الشعور برغبة لا تقاوم ، الشعور ببهجة عصية على الوصف ، غثيان يترك كتفه تميل وتصطدم بكتف العربنجية ، تجعله يسقط من على الكرسي ، وينطرح على أيدي الندل ، تجعله يتدحرج بين المياه الآسنة

على الرصيف ، أو في منزله ، تجعله يسقط أسفل السرير أو في الحديقة .

لم يكن عبدالرحمن بحاجة إلى نشوة اصطناعية لمعرفة هذه السعادة ، التي هي أكثر نقاء من كل سعادة . إنما كان بحاجة إلى نشوة تلقائية أكبر لمعرفتها ، ولكنه كان يكتفي بتمييز نوعين من الأخطاء التي تهدد الذه ، ، وهي الأشياء التي تقع في الخارج ، والتي في سبيلها إلى إيقاف مسيرة الغثيان . والأشياء التي في الداخل التي تدفعه إلى نسيان هذا الشعور ، إلى نسيان ، ولو للحظة ، هذا الإحساس بالغثيان . مثلاً :

كان التنبه الفكري والوعي الحاد في ظرف ما يوقف كل نشاط طبيعي يؤدي به إلى هذه المسيرة الفلسفية ، فينسى بعد أن يسكر سكرة ثقيلة ، أن يعبّر عما يتحرك في داخله ، ينسى أن يعبر عن نفسه ، أن يقول إنه مصاب بهذا الذي يطلق عليه في الفلسفة (غثيان) ، وحين يتذكر بعد حين ، حين يتذكر بعد أن يصحو - وربما يكون في حجرته وقد فات الأوان - فإنه يثور على نفسه ، لأنه لم يستطع أن يلمس هذا الطابع الغثياني تلك اللحظة ، لم يستطع أن يتحسسه أو أن يشعر به ، وبالتالي فإنه فوّت على نفسه لحظة من اللحظات العظيمة للغثيان . أحيانًا ينسى عبدالرحمن أن يعبر عن هذا الشعور بكل وضوح ، يحس به وقد غادره ، وفي الحقيقة أن الفيلسوف هو الذي يغادر أحيانًا هذا الشعور ، هو الذي يتوقف عن الغثيان ، بعد أن ينغمس كليًا في الحياة ، بعد أن يجد جسده منسحقًا تمامًا تحت أشكال الحياة ، فلا يترك لنفسه إلاّ القليل من الاكتراث ، ليفرح فرحة قلقة ، فرحة خدرة ، بعَرَض من أعراض الحياة . وهذه السعادة التي يشعر بها لا تكون في الأعم الأغلب إلاّ سعادة ناشئة عن توتر بحت للأعصاب ، توتر يوقف لديه هذا الشعور الذي لا يستطيع أن يستعيده في لحظات الانغماس الكلي ، فيضفي على الشعور الأبدي بالغثيان الطابع الوقتي ، بينما لا يريد له الفيلسوف - أو بالأحرى لا تريد له الفلسفة - إلاّ الطابع الأبدي ، فبعد

لحظة غثيانية جميلة تزول هذه اللحظة ، تختفي ، تذوب مثل زبد في ماء البحر ، بينما يريد الفيلسوف لها أن تبقى ، أن تظل ، أن تتأبد :

«ماذا لو بقي الإنسان في لحظة شعور غثيانية مستمرة من الولادة إلى الممات؟» .

«كيف يكون ذلك . . .» قال إسماعيل حدوب وهو يسجل ملاحظات الفيلسوف .

«مثلاً أن تشرب كأس كونياك كهذا الكونياك الفاخر ، أو أن تدخن تبغًا كهذا التبغ الهولندي الرائع ، أو أن تصعد صدر امرأة كهذه المرأة ، وربّت على كتف دلال – وقد اندفع صدرها إلى أمام مثل كرتين منفوختين – وتشعر بغثيان في الطاقة القصوى من الغثيان ، وتبقى مثلاً إلى الممات شاربًا الكأس ، أو واضعًا الغليون على فمك ، أو صاعدًا على صدر المرأة ، شاعرًا بغثيان مستديم ، لحظة واقفة ، حركة واقفة ، غثيان واقف ، وعالم يجري حتى تموت ، فتحقق بذلك وجودية كاملة ، وجودية غير منقوصة ، وتصبح أنت أعظم وجودي على الأرض» .

قالها وهزّ رأسه قليلاً ، ثم طوّحه إلى الوراء بصورة فلسفية ، ودخل في وجوم كبير ، فثار إسماعيل من جانبه وقد أثر به هذا الكلام :

«هذا ما فات سارتر . لم ينتبه سارتر إلى هذا الأمر أليس كذلك؟» .

«لا لم ينتبه سارتر إلى هذا الأمر» – قال فيلسوف الصدرية – «وبودي أن أنقل إلى هؤلاء الذين يعبدون الوجودية ، أفكاري الوجودية ، أريد أن أعنيهم بأفكاري ، لأن الوجودية لذة عامة ، لذة مشاعة ، وليست فردية ، ولا أنانية ، أو بالأحرى هي لذة أنانية كي يستمتع بها الغير ، ومن هنا فإننا سنحقق وجودية عربية ، حيث تتحقق غيريتها من خلال اتساعها ، وإشاعتها ، وبذلك ستكون هذه الغيرية لا تشبه الغيرية الغربية التي ابتدعها سارتر» .

سارع إسماعيل حدوب لتسجيل هذه الملاحظات التي دوّنته ، هذه الكلمات غير المفهومة ، هذه الملاحظات الملغزة ، لا لشيء إلاّ لأنها ملاحظات فلسفية ، لم تكن فلسفتها بحاجة إلى برهان على الإطلاق ، إنما كانت تدل على نفسها ، لا من خلال تعقدها وحسب ، إنما من خلال صياغتها أيضًا ، ولذا كان إسماعيل لا يفهم الفلسفة إلاّ من كونها لا تُفهم ، ولا يعرف الفلسفة إلاّ من كونها لا تُعرف ، وهكذا كان غموض كلمات عبدالرحمن يجذبه ، يسحره ، كان عبدالرحمن يقول أشياء غير مفهومة ، غير معروفة ، وكان يمنحه هذا الكلام نوعًا من التسامي والتفوق على أقرانه ، لأنه غائب في بخار فلسفي ، وإنه بوساطة هذا البخار يمكنه أن يحقق نجاحًا كبيرًا ، وكان هذا الأمر هو الذي يطمئن والديه ، بينما كان هو يتعلق بمستقبله الشخصي ومصيره . وكان عبدالرحمن يدرك أن هذه القدرة على قول الأشياء الغامضة تمنحه قوة التحكم بالكائنات الضعيفة وإن أنكرته العقول القوية ، كان عبدالرحمن يحتمي تحت مقولة : إن مجتمعاتنا غير فلسفية .

وكان إسماعيل حدوب يسجل كل كلمة يقولها الفيلسوف لئلا تفلت ، كان إسماعيل وحده الذي يشعر على نحو لا يقبل الشك أن عبدالرحمن فيلسوف عملاق ينبغي تصديقه ، ينبغي الانجذاب إليه ، واتّباعه ، فهو فيلسوف ، بينما كان إسماعيل عاطلاً من الفلسفة . وهو غني ويمكنه أن يصرف ، بينما كان إسماعيل فقيرًا لا يجد ما يأكل . وعبدالرحمن يشبه سارتر ، بينما لم يكن إسماعيل كذلك . لا يشبه إسماعيل في الواقع إلاّ نفسه ، وإن عبدالرحمن متزوج من ابنة خالة سارتر ، بينما إسماعيل أعزب يبحث عن زوجة غنية .

وهكذا كان الفرق بينهما محسوسًا ومحسوبًا ، وكان كل منهما يدركه ويعرفه ، فلم تستطع الفلسفة إزالة الفوارق الطبقية بينهما ، بل ربما كانت

هي التي تعمّقها، وتبرزها. لم يكن أي منهما يغفل حقيقة وجوده، حقيقة هيئته، حقيقة مكانته، حقيقته، وكان كل منهما يحاول - ربما - أن يعمق وجوده وحياته طبقًا إلى هذا التناقض، طبقًا إلى هذا التنافر، فعبد الرحمن كان يحب أن يكون منفصلاً عن طبقته، مبتعدًا عنها، كارهًا لها، وكان لا يفوته أن يعلن ذلك الأمر، وهذا الأمر بطبيعة الحال يذكره على الدوام بأنه ينتمي إلى طبقة راقية، إلى طبقة رفيعة، كان يذكّر الآخرين كذلك بسمو طبقته، وبرفعة هذه الطبقة وتعاليها. ولذا كان يريد أن يهبط، كان يريد أن ينزل السلم، ولا يهبط السلم إلاّ من كان على السطح، إلاّ من كان ساكنًا في الأعلى، هذا أمر طبيعي، بينما نجد من الجهة المقابلة أن إسماعيل كان يريد أن يصعد، كان يريد أن يتسلق، فلا بد أنه كان في المكان الأسفل، في الدور السفلي، وإلاّ لماذا يريد أن يرتفع؟ وهكذا فإن فرق الصعود وفرق الهبوط هو فرق طبقي لا فلسفي. هو فرق اقتصادي، إن توخينا المعنى الدقيق في هذا الأمر، أو الفرق بين الغني والفقير، بين الشحاذ وبين الذي يتصدق، ولا يهم نوع الصدقة سواء كانت صدقة مادية أو فلسفية، فكان عبدالرحمن هو المتصدق، بينما كان إسماعيل هو الشحاذ، كان عبدالرحمن هو الفيلسوف بينما لم يكن إسماعيل سوى تابع.

-٦-

لم يكن إسماعيل حدوب أرستقراطيًا كالفيلسوف ولا مدللاً مثله، ولم يظهر إسماعيل في بغداد إلاّ منتصف الخمسينيات كبائع للصور الخلاعية.

لم يجد إسماعيل أول أيامه ما يأكله، أو ما يشربه، ولم يجد مكانًا ينام فيه، كان إسماعيل يأكل كل ما يقع في يده، ولا يقع في يده إلاّ ما

تخلفه مطابخ القصور العالية من الفضلات والأزبال ، ويشرب ما يجده متخلفًا في زجاجات العرق المرمية قرب البارات ، وينام حيثما يتيسر له مكان للنوم ، ويعمل ما يتاح بيده من عمل : بائعًا للصور الخلاعية ، عتالاً أمام الفنادق الرثة ، قزازًا في سوق الجام ، كناسًا في البلدية ، أو خادمًا في منازل البكوات والجلبية . وكان لديه ميل غريزي إلى طلب المتعة ، واللهو ، والتشرد ، والتسكع ، والنشل في المحطات . لا يسكن إسماعيل إلاّ في فنادق قذرة وسخة ، في فنادق شبه مهدمة مع المهربين ، والقوادين ، واللصوص ، والطراشين ، والخبازين ، والمكارية ، ويطرح نفسه أنّى كان ، في خوان رخيصة غاطسة بالماء ، في اصطبلات عفنة غاطسة بالبول والروث ، أو أعلى سطوح العمارات المتهالكة مع أربعة أو خمسة رجال حين يستأجرون سقيفة على سطح منزل في الميدان ، ثم يتسكع أمام السينمات ، أو أمام محلات البقالة ، أو دكاكين الصاغة ، أو في البارات ، أو ساحات الربلات ، ليبيع الصور الخلاعية ، وينشل محافظ النقود ، ويبيع العرق المغشوش ، والتهريب ، ولعب القمار ، والقوادة أحيانًا .

كان إسماعيل يسيح بعيدًا ، كان يطوف في مناطق بعيدة ، ثم يعود بهيئة أخرى ، كان يعود بزي آخر ، ويعمل غير العمل الذي كان يمتهنه من قبل ، وربما قاده الخان الذي يقع بالقرب من منطقة أبو دودو إلى محلة الصدرية ، أو قاده إلى محلة سراج الدين . لقد أمضى إسماعيل ست سنوات في هذا الخان المحروم من الهواء ، المحروم من النور ، هذا الخان الذي لا يكاد يعرف لمن ينظر إليه من الخارج إلاّ كجحر ، أو سرداب طويل ، إذ ينفتح في نهايته المظلمة على القاذورات ، ينفتح على العفن . وكان إسماعيل تقوده قدماه إليه في الليل ، ومديته محزومة على بطنه ، حيث يستلقي على فرش محشو بالخرق ، فرش هزيل ، فرش رقيق كدف خشبي ، ويتغطى ببطانية سوداء كالحة من الهوام ، كان قد تعود رائحتها الكريهة ،

تعوّد لزوجتها ، ولا يسلم أحيانًا حتى على هذا الفرش الكريه ، فـ(عبود) شقي «سراج الدين» حينما يأتي في الليل يدحرجه من فراشه ، يرميه على الأرض ، ويأخذ فراشه منه .

كان إسماعيل يضع هذا الفراش أحيانًا على الطابوق ، يضعه على القواطي ليرفعه عن الأرض ، ولم يكن هذا الفراض فراشًا وحسب ، إنما كان يقوم لديه مقام الخزانة ، وكان يقوم لديه مقام طاولة الطعام ، فهو من الأسفل مستودع ، مخزن لبعض الحاجيات مثل : الأواني ، والسكاكين ، والسلع المسروقة ، والمقالي ، والعلب الفارغة ، والصور الخلاعية ، وحتى الخبز اليابس . وفي الليل يصبح للنوم ، للراحة ، للاستلقاء ، حيث يضطجع إسماعيل عليه لينام ، ليغفو قليلاً على شخير النزلاء الذي يصعد ويهبط بشكل منتظم ، على الشخير الذي ينظم إيقاع الخان . كما كانت لسعات القمل وعضات البق لا تكفيها حكة واحدة ، عضات لا يكفيها الهرش بالأظافر الغليظة ، فيظل يهرش حتى يسقط على الأرض ، وأحيانًا لا يستطيع إسماعيل أن يرفع نفسه عن الأرض من التعب ، أو من الإرهاق فيكون معبرًا للصراصير ، معبرًا للعثّ والجرذان السمينة ، الجرذان العنيدة والنشطة التي تقرض حافة بنطاله وهو يهش عليها بيده وعيونه مغمضة .

كانت تتوسط الخان لمبة تتدلى من السقف ، مسجونة بقفص حديدي صدىء ، كانت تقوقىء وتذوي فوق رأس عتال كردي ، كان هو المسؤول عن إشعالها وإطفائها ، وهناك ثلاثة أكراد قادمون من أربيل واثنان من البصرة ، كانوا يعملون في تنظيف المجاري ، وفي الليل يتخاصمون بشأن هذه اللمبة المغبرة القذرة البائسة ، وحين ينامون في الليل فإنهم يئنون أنين الكلاب من التعب ، يشخرون مثل السعالي ، بينما تصاحب شخيرهم وأنينهم ، فرقعة عظام ، وشتائم مقذعة ، وحين يعودون في الليل إلى هذا المأوى وهم يرتجفون ، وهم يسعلون ، ويبصقون ، فإنهم يجلسون في الزاوية

ليدخنوا اللفائف الصغيرة الرخيصة ، وهم يقرفصون ملمومين على أجسادهم ، وأسنانهم تصطك من البرد ، ومؤخراتهم تتنمل من الرطوبة ، وأحيانًا يقودون عاهرة إلى الخان أكثر بؤسًا منهم ، أكثر صفرة من وجوههم ، وشعرها المنتوف أكثر لزوجةً من شعرهم ، وزناختها الكريهة التي تصدّ الرأس أكثر شراسة من زناختهم ، وهي في الغالب إما عوراء ، أو درداء ، أو عرجاء أو مجنونة ، ويناموں معها على الفرش القذرة واحدًا بعد آخر ، وهم يضحكون ضحك المجانين ، أيدٍ تلوح ، وجوه شاحبة ، حيث ينبعث من أنوفهم البخار لبرودة المكان ، ثم يصرخون عليها ويتقافزون مثل القردة حولها ، ويفرقون عليها أجرتها ، ثم يتسللون إلى التواليت الغاطس بالبول واحدًا بعد آخر .

ومع الفجر يخرج إسماعيل مع هذه الكائنات الرخوة المهدمة الساقطة المحطمة من باب الخان الخشبي الخلع ، منطلقًا مع هذا الجمع بخطوات محمومة ، مع هذا الجمع الذي لا يعرف من الحياة سوى الشقاء والاختلاج والخلاعة ، مع هذا الجمع الذي ليس له في الحياة سوى السباب والعراك والسرقة ، وحين تقبض الشرطة على إسماعيل لسبب من الأسباب وهي : إما لنشل محفظة أحد الركاب ، أو لسقوطه على الرصيف سكران ، أو هاربًا من مطعم لأنه لا يريد أن يدفع الحساب ، أو متحرشًا بفتاة ، أو متخاصمًا مع عاهرة ، فإنه يبيت في مخافر الشرطة ، فيقوم نزلاء الخان بالواجب تجاهه ، يزودونه بالمال والأكل والشرب ، ويظهرون له الكثير من الكرم والطيبة والعاطفة ، وحين يعود إلى الخان فإنهم هم الذين يسرقون منه الأكل والشرب والمال ، ليعودوا مرة أخرى بثيابهم الرثة ، بجلدهم الوسخ ، بذقونهم القذرة ، بمعداتهم الفارغة ، بفقرهم الدائم بفاقتهم الدائمة أو بعطالتهم الدائمة .

وهم ما إن يعمل أحد منهم في مكان ما ، حتى يعود إليهم بعد فترة

وجيزة مطرودًا من عمله .

وهكذا ظهر إسماعيل في محلة الصدرية يومًا كبائع للصور الخلاعية ، وبعض الصور الستربتيز لفتيات تركيات ، وذلك بعد أن طرد من عمله في البلدية . ولم يكن يأتي كل يوم إلى محلة الصدرية في واقع الأمر إلاّ لزبون واحد مدمن على هذه الصور ، إذا لم يكن هناك من يدفع مالاً أكثر مما يدفعه شاؤول ، وإن كان يدفع لإسماعيل بعد مساومات ومماطلات مضجرة ، إلاّ أنه كان يدفع في النهاية المال الذي يطلبه إسماعيل ، وهذا ما يجعل الأخير يأتي كل يوم إلى محلة الصدرية .

لقد تردد إسماعيل طويلاً على متجر شاؤول تلك الأيام ، وكان قد جلس طويلاً في متجره ، وأخذ منه مالاً كثيرًا لقاء الصور الخلاعية التي كان إسماعيل يجلبها معه من أحد الأكراد الذين يقطنون الخان . ولم يكن هذا الكردي سوى عتال في محطة غربي بغداد ، يحمل حقائب المسافرين في القطارات الذاهبة إما للموصل أو للبصرة أو لتركيا ، ليوصلها إلى مكان الأمتعة في الفارغونات الخلفية ، فيعطيه بعضهم نقودًا والبعض الآخر كان يعطيه طعامًا ، وبعضهم كان يعطيه هذه الصور ليبيعها . وكان هذا العتال هو الأكثر ثراء في الخان ، إذ كان يجلب معه من دهوك سلعًا نادرة ، بضائع غريبة ، ملابس صوفية ، وحشيشة مهربة ، وفي الغالب يستحوذ عليها إسماعيل إما بواسطة السطو الليلي الذي يقوم به في الخان برفقة عبود شقي محلة سراج الدين ، وإما يشتريها منه ليبيعها إلى شاؤول .

وفي يوم من الأيام كان شاؤول قد طرد سليم الذي كان يعمل في متجره ، وهو اليهودي الكريه الذي كان يضع نظارتيه على أنفه وينظر من الأعلى مثل قنفذ ، وحين كان يتكلم فإنه يخرج الكلام من أنفه ، ولم يكن سليم يحب إسماعيل ، فقد كان يظنه مخادعًا كبيرًا ، جاء ليسلب رب عمله ماله لقاء تصاوير ورقية لا تساوي شيئًا ، وفي صباح يوم سبت ،

انقذف سليم من باب المتجر ليسقط على وجهه في الشارع ، فسقطت نظارته من أنفه على الأرض ، وخرج شاؤول وراءه يزبد ويرعد :

«لك سليم تبوقني ، آني اللي سويتك آدمي . اشناقصك حتى تبوقني» .

فكر شاؤول بعد يومين بمن سيعوضه في المتجر ، كان يريد شخصًا آخر يحل محل سليم ، ولكن هذه المرة لا تشبه المرة السابقة ، لأن سليم في واقع الأمر كان مفروضًا عليه فرضًا ، لقد أجبرته زوجته بقوتها وجبروتها على تشغيله في المتجر لا لشيء إلاّ لأنه أحد أقربائها ، وهذه المرة وبغياب الزوجة ، أراد شاؤول أن يفكر بشخص آخر ، بشخص يغذيه بأفكاره ويشبعه بمبادئه ، ففكر في نفسه طويلاً . وقد وجد أن كل شيء سيغدو عبثًا إلاّ الأفكار ، فلو استطاع مثلاً أن يربّي شخصًا على الأفكار ، وتكون بينهما رفقة الأفكار والمبادىء ، فإنه يستطيع أن يستولي عليه ، سيكون بإمكانه أن يستحوذ عليه ، ويجعله مطيعًا ، خانعًا ، خاضعًا ، إن لم يكن هذا باحترام المسافة الطبيعية التي تفصل بينهما ، فإنه سيكون بواسطة الأفكار التي تربطهما . ولأنه لا يريد شخصًا كان قد تربى على الأفكار قبله ، وبالتالي فإنه لن يعترف له بأبوته ، فعليه أن يأتي بشخص خام ، بشخص مثل ورقة بيضاء ، وسيكتب عليها شاؤول ما يشاء ، وبالتالي لن تردد هذه الورقة إلاّ الأشياء التي يكتبها عليها شاؤول . وفي صبيحة أحد الأيام جاء إسماعيل يخفي الصور الخلاعية في جيب جاكتة سوداء متهرئة وكان شعره منكوشًا ، ويداه مغبرتين من الهرش والحك ، وياقة قميصه قذرة ، وتنبعث من فمه رائحة العرق الرخيص . فجلس إسماعيل في أحد الزوايا البعيدة من متجر شاؤول المكتظ بالسلع والأدوات الجديدة التي تلمع وهي تحت السليفون ، جلس إسماعيل في الركن تمامًا على أريكة نظيفة ، وهو يشفط بأنفه ويمسحه بيده بقوة ، وهو ينظر بابتسامة ذائبة

إلى شاؤول ، وكان شاؤول يمسك بيده مطرقة الذباب وينش بها بهدوء ، وقد ثبت عينيه على إسماعيل المنكمش على نفسه في الركن . ثم أخذ شاؤول بالتقرب منه شيئًا فشيئًا حتى جلس بالقرب منه ، أمامه بالضبط ، ثم أخذ بالحديث اللين معه . كان إسماعيل يضع يده في جيبه ليتحسس الصور الخلاعية الصقيلة الناعمة ، وكل مرة يهم أن يخرجها من جيبه ، إذ كان مندهشًا في سره من عدم سؤال شاؤول عنها ، إلاّ أن شاؤول كان يتحدث عن شيء آخر ، كان يريد أن يفهمه أنه ضحية استغلال اجتماعي ، فقال له إن فقره هو فقر مؤقت ، وإنه قادر على أن ينتشله من هذا الفقر ، قادر على أن يحوله ، يغيّره ، وأن يمنحه صورة جديدة ، فليس هناك من شيء ثابت مستقر في الحياة ، إنما الأشياء كلها عرضة لتلاعب الجيب ، والمال ، والنقد ، والدفع ، وإنه سيكون شيئًا آخر إذا ثقل جيبه ، إذا عمل ودخل في النظام الاجتماعي . كان شاؤول يمنّيه بشيء ملموس ، يمنّيه بشيء واقع على الأرض ، وموجود ، يمكنه أن يتلمسه ويتحسسه بيديه ، كما أنه كان يمنّيه بأشياء أعظم من هذا وذاك ، كان يقول له إن فقره هو فقر تاريخي ، لم يأتِ هذا الفقر من إسماعيل ذاته ، أو من عائلته ، إنما من التاريخ ، فصعق إسماعيل حين سمع بالتاريخ ، وقال له بعد أن سحب سكينه من بطنه :

«دليني على تاريخ وإني أخليلك مصارينه بالكاع» .

ابتسم له شاؤول وقال له :

«علينا أن نصلح التاريخ لا أن نقتله» .

هكذا قال شاؤول وهو يلمظ بلسانه الذي كان يخرج بين آن وآن ليبلل شفتيه ، كان يخرجه مثل جلدة حمراء مسلوخة ، بينما كانت عيناه تتلاقطان خلف النظارات الطبية السميكة ، عينان مسطحتان لا حياة فيهما ، تتحركان يمينًا وشمالاً مثل خرز لدن ، بينما اختفى حاجباه خلف

إطار النظارة البلاستيكي الأسود ، ولم يظهر منها سوى عروتين مسلوختين تتحركان بصورة منتظمة .

مما لا شك فيه أن أفكار شاؤول هدت الجدار الصلب الذي يحتمي خلفه إسماعيل ، لقد رنّحته هذه الأفكار الكبيرة ، التي لم يفهم منها سوى أنه بإمكانه أن يستولي على الناس . لم يفهم إسماعيل من هذا الكلام إلاّ جوهره ، وجوهر هذا الكلام - نسبة إلى إسماعيل - هو أنه سيرمي هذا الخرق التي يلف بها نفسه ، وسيكون نظيفًا مهذبًا ، سيكون له شأن ورفعة وحياة كالآخرين ، سيترك اللانظام ويحل محله النظام ، سيتخلى عن الحرية التي لم تورثه سوى الفاقة ، وسيدخل في العبودية التي ستجعله سيدًا ، ولأنه جرب الحياة الأولى فإنه راغب بكل ما أوتي من قوة بالحياة الأخرى ، راغب بالثراء والجاه ، والنساء النظيفات ، والشرف المزيّن بالقاط ، وسيكون شاؤول هو المخلّص العظيم .

لقد جذب إسماعيل شاؤول دون سواه ، لأن إسماعيل شاب يافع هيجته الحياة ، فأقبل عليها بكل قوته ، وراح يتذوق طوال سنواته الأولى حياة صاخبة أتاحتها له سنّهُ ، وظرفه الاجتماعي الذي عدّه شاؤول مؤقتًا ، ولأن شاؤول يريد أن يبني على الأرض مستعمرة السعادة ، لذا فإن حياة إسماعيل ، المتوحشة الدّاعرة الفالتة من النظام ، هي مسؤولية تاريخية لا مسؤولية فردية ، وإن التاريخ لا غيره هو الذي جعل إسماعيل فاسد الطوية ، جعله متخمًا بالفسق والفجور ، ومندفعًا نحو الطيش ، ونحو إشغال الجسد وتركيز الحياة دون إشغال الذهن .

-٧-

وهكذا بدأ شاؤول بالخطوات الأولى لتنظيف إسماعيل وتطهيره وتنقيته جسديًا وفكريًا . فقد كانت المرحلة الأولى تشتمل على أخذه إلى

حمام السعادة في البتاوين ، وشراء ملابس جديدة له من متاجر حسو إخوان من شارع الرشيد ، ومن ثم حلاقة الشعر والذقن لدى صالون حلاقة بابيت . وهكذا أخذ إسماعيل حدوب يتعلم الحياة الجديدة ، يتعلم الاندفاع نحو المآثر الكبرى في الحياة الرخوة ، ويرى نفسه ، أكثر فأكثر ، بأنه أكبر من الحجم الذي تصوره عن نفسه ، ولا سيما بعد أن بدأ شاؤول يضع أقدامه الأولى على طريق الحياة الجديدة . لقد أدهشته هذه الحياة بمظاهرها الجميلة المترفة الرخوة ، فشاؤول يسكن قصرًا فخمًا في الكرادة الشرقية ، على مقربة من البساتين المشيدة على ضفة النهر ، وكان للقصر حدائق كثيفة ، تتصل بالحقول الواسعة والمراعي الحرة المنسرحة على مدى البصر ، فأخذ إسماعيل يحدق بأشجار التفاح والحامض والزيتون التي تتراكم عند أقدام المنزل بكثرة ، وأشجار النخيل المنسقة تنسيقًا عظيمًا ، بينما كانت ترتع قطعان الأغنام على مبعدة من السياج الوطيء .

لقد كان إسماعيل يسير منذهلاً أمام القصور العالية ، بسطوحها الزرقاء وواجهاتها المشيّدة بالقرميد ، فأخذ يسير وقد بلّده الرفاه والفخامة والهواء الرائق المشبع بعطر الفواكه . وحين وصل للمرة الأولى أمام قصر شاؤول أحسّ بالضياع ، أحسّ بالاضطراب أمام القصر المرتفع بالأعمدة الرخامية ، وقد انعكست أشعة الشمس على الزجاج الملون والسطوح المضلعة بالآجر الثمين ، وحين مرّ على القنطرة القريبة من بوابة القصر الخارجية ، أخذ ينظر إلى صورة الأعشاب التي انعكست على صفحة الماء الراكد .

وما إن دخل الاثنان من البوابة المصنوعة من خشب الصاج المشرّح ، بعد أن اجتازا الحديقة الشاسعة ، حتى أحسّ إسماعيل بدفء المكان ، وبالحرارة المنبعثة من الوجاق الذي يتوسط الصالة ، كانت الصالة مؤثثة تأثيثًا جميلاً ، ففي كل زاوية من زواياها الواسعة كانت هنالك مكتبة

عظيمة من خشب السنديان ، وكانت المزهريات المليئة بالزهور النادرة تصطف عند المدخل المرقوم بخشب الصاج ، فجلس كلاهما على أرائك وثيرة مفروشة بالسجاد الإيراني الناعم بصورة متقابلة ، كانت الستائر الحريرية إلى يمين إسماعيل مرخّاة ، فأخذ ينظر إلى الشمس الغاربة وهي تلقي بظلالها الأرجوانية على الحقول الخضر ، ومن بعيد كان يتصاعد في الأفق ضباب خفيف جامد لا يتحرك ، يخفي صفحة النهر بشكل غلالة خفيفة ، وكان الوجاق ، قد التمعت في داخله ألسنة النار التي تلهب الصالة بدفء وحرارة حميمية لا تصدق ، فأخذ إسماعيل يشم رائحة طيبة تنبعث من أرجاء المنزل ، وهو يستمع إلى صوت البلبل الذي يصدح في القفص المذهّب ، الذي يتدلى من القمرية قرب النافذة الطولية ، التي تمتد من الأرض إلى سقف المنزل .

ثم أخذ شاؤول إسماعيل إلى حجرة نومه في الطابق العلوي والتي تطل على النهر مباشرة ، فأخذ ينظر إلى النهر الجميل وقد ملأته القوارب الصغيرة التي تعبر النهر إلى الضفة الأخرى ، ومن بعيد لاحت لعينيه مآذن الجوامع والقبب الزرق والقصور العالية المشيّدة على النهر . وبعد أن هبط إسماعيل من السلم وهو يرتدي البرنص القطني ، والبيجاما الكستور ، والخف الصوفي ، كانت الخادمة قد أعدت الأكل النظيف على الطاولة في الحجرة الصغيرة القريبة من الصالة . وبعد أن أكل كلاهما وشربا الشاي ، صعد إسماعيل إلى حجرته لينام على سرير جميل مغطى بالشراشف الناعمة ، وبطانيات فتاح باشا الصوفية السميكة ، والوسائد الريش ، فأحس بنفسه وللمرة الأولى في حياته ، وكأنه يطير في الهواء ، يطير أعلى فأعلى حتى نام نومًا عميقًا ، دون أن يشعر بشيء حتى الصباح حين أيقظه شاؤول عند الفجر ، وهو يفرك بعينيه ليصطحبه إلى المتجر معه . فذهب إلى المغسلة لغسل وجهه بالصابون اللوكس المشبع برائحة الليمون ، ثم

ناوله شاؤول فرشاة الأسنان ومعجون الكولينوس الإنكليزي ، وأجبره على غسل أسنانه وهو يكاد ينام على المغسلة . وبعد أن ارتدى ملابسه قدم له شاؤول كأس الحليب الساخن ، الذي يتصاعد البخار منه ، وقطعة من الصمون الممسوح بالزبدة والعسل ، وأجبره على أن يغسل يديه بعد أن انتهى من الأكل ، ثم غادرا المنزل ولم تشرق الشمس بعد .

لم يعد إسماعيل من العمل إلاّ مساء برفقة شاؤول . وبعد أسبوع واحد ، وبعد أن تعرف جيدًا إلى بضائع المتجر ، أخذ إسماعيل يعود وحده ، لأن شاؤول لا يستيقظ صباحًا ، إنما يأتيه إلى المتجر في الضحى ويعود إلى المنزل بعد الظهر ، فأحس إسماعيل أنه يأكل جيدًا ويشرب جيدًا ، إلاّ أنه يعمل مثل الزمال ، وإذا كان الزمال ينام جيدًا فإن إسماعيل لا يشبع من النوم . لقد أدرك إسماعيل بشكل قاطع ومن الأيام الأولى أن هذه العملية تنطوي على نوع من الغش ، شبيه بالغش الذي كان يصنعه في لعب القمار ، فشاؤول الذي يتحدث عن المساواة لا يتساوى معه في العمل على الإطلاق ، ولذا فقد انحرفت عيونه إلى الزوايا البعيدة في هذه المغامرة كي يستطيع أن يستفيد منها ، وكان بحاجة إلى غريزته لتدله على الطريق الصحيح ، كان يشم رائحة الخديعة ، فكل عمله الذي يستغرق الليل والنهار لا يتقاضى بدلاً عنه مالاً ، إنما الأكل والشرب والقصر والنوم القليل والسمعة الطيبة . لقد أدرك أن هناك نوعًا من الغش فانتبه إلى التناقض البربري بين أخلاق المجتمعات الكبيرة وصالونات الأسر العريقة في الجاه والحسب ، وأخلاق الناس البسيطين والوضيعين ، وهذا التناقض هو الذي يلفت الانتباه أكثر مما يثير الافتتان ، ولذا انكشف لإسماعيل نوع القلق ، ولا سيما بعد أن تعرف إسماعيل إلى أناس ذوي أهمية كبيرة في المجمع من خلال صالون شاؤول .

لقد تعرف إسماعيل إلى الشخصيات الأدبية والثقافية التي كانت

تتردد على صالون شاؤول أيام الخميس والجمعة ، حيث كان يعقد جلسة للشاي والكعك في المساء ، وحيث كانت تتردد عليه شخصيات مهمة تتحدث بأشياء خطيرة مثل : أنور شاؤول ، مير بصري ، بدر السياب ، والفنان جميل حمودي الذي زيّن الصالون بلوحة كبيرة ، وبعض الشخصيات الإنكليزية مثل ديزموند ستيوارت ، والروسية مثل نيقولا كارنسكي ، وماري أرامينوف ، والفرنسية : مثل السفير آنذاك وهو مسيو ليونيل بلونشار وصديقته الرسامة صوفي غارسو ، وسيدات مثل روز خدوري ، وبولينا حسون ، وأمينة الراضي ، فكان إسماعيل يجلس قرب الوجاق بالبذلة السوداء وقد وضع المنديل الأبيض في جيب الجاكتة الصغيرة وهو يصغي إلى الأحاديث المعقدة التي تدور بينهم . كان إسماعيل يصغي وحسب ، وهم يتحدثون بحماسة وقوة كبيرتين في السياسة والأحزاب والأداب والصحافة ، كان يفهم من الكلام جوهره : أن هنالك ظلمًا كبيرًا في هذا العالم ، ولم ينقذ هذا العالم إلاّ هؤلاء الناس بعبقريتهم وأهميتهم . وشهد مرة في صالون شاؤول خصومة بين روفائيل بطي وشخص آخر انتهت بالسباب والشتائم بينهما ، ولأنه كان قد تعرف إلى روفائيل بطي قبل أن يتعرف إلى هذا الشخص الأخير ، لذا فإنه عدّ هذا الأمر اعتداء شخصيًا على المنزل ، وقبل كل هذا فهو اعتداء كبير عليه شخصيًا ، وكما تعود في خان (أبو دودو) على النزاع المسلح ، سارع إلى تلقف السكين الموضوعة على الطاولة قرب صحن الفواكه بيده وهجم على الضيف ، وإن أخطأه بالطعن فإنه ضربه بقبضة يده على وجهه ، ولم يكن يعرف كم كانت هذه الشخصية المهمة جبانة حيث أخذت تصرخ وتتقافز على الطاولات والكراسي حتى الباب ، وبعد أن كثر الذين وقفوا بينهما وهم يصرخون ليوقفوا النزاع ، كان روفائيل بطي قد سقط على الطاولة مغميًا عليه ، بعد أن رأى السكين مشهرة أمامه ، فلم يكن قد رأى في

حياته سكينًا حقيقية ، سكينًا مشهرة وهي تلمع لينقضّ بها شخص على بطن شخص آخر ، وبعد دقائق وضعوه على الأريكه المواجهة للنافذة وسكبوا على رأسه الماء ، وأخذ يتنفس بعمق فطلب أن يحملوه لأنه لا يريد أن يبقى أكثر ، على الرغم من توسلات شاؤول ، بيما وقف إسماعيل عند محجر السلم لا يعرف ما يقول ، فالتفت إليه شاؤول وهو يصرخ :

«ولك هذي خصومات أدبية ، إحنا هوني بصالون ما بخان خجة» .

لقد كان إسماعيل يندهش من هذا النفاق ، ومن هذه المراوغات والغش في العواطف . كان يندهش من أن المتخاصمين في الصالون يخرجون وكأنهم نسوا كل شيء ، إذ إنهم ينهون الأمر بعبارات المجاملة لإخفاء العداء الحقيقي ، الذي كان يمكن أن يؤدي بهم - لو كانوا في خان خجة - إلى النزاع المسلح . لقد كان يدهشه أن الحاضرين يجلسون الساعات تلو الساعات وهم يسبون ويشتمون أحد الشعراء ، لكنه حين يدخل الصالون ، فإنهم ينقلبون بلمح البصر إلى أصدقاء ، يقبلونه ويحتضنونه ، ويقولون له :

«مشتاقين» .

هذا ما ولّد لديه قلقًا جليًا ، قلقًا ظاهرًا حتى من شاؤول ، فلم يكن بإمكانه أن يرأب الصدع في متناقضاته ، فشاؤول اليهودي الغني البخيل الذي كان همه هو جمع الثورة لنفسه ، يتظاهر ببناء مستعمرة السعادة على الأرض . لقد كان مضطربًا من هذه الصورة التي كان يحتفظ بها عن شاؤول ؛ الذي لا يعطيه ثمن الصور الخلاعية إلاّ بعد مساومات تشق النفس ، لا يعطيه ثمنها إلاّ بعد أن يمارس كل مهاراته وقدراته على المساومة ، وبين حبه للشباب الباهر والحياة السعيدة الجميلة المنظر ، الظريفة الهيئة ، الحياة الرخوة الباذخة ، كان ينظر إلى كل هذه الأشياء التي تملأ المنزل وهو يتساءل في نفسه : هل جلب شاؤول كل هذه الحاجات

بالمساومة؟ ومع ذلك قرر إسماعيل أن يترك كل الاعتراضات التي كان يمكنه أن يثيرها في نفسه ضد شاؤول، ويضع بدلاً منها السذاجة الكالحة، التي يمكنها أن تقنع متبنيه، وتطمينه من جهات عديدة، وأن تجعله واثقًا ومن وجهات نظر مختلفة بأن هذا المسكين مقتنع أشد القناعة بفكرة السعادة الشمولية. إلاّ أن إسماعيل في واقع الأمر كان بحسّه الغريزي عاجزًا عن التصديق، لأن القياس هو أداته هو، لا أداة غيره، وكانت كل الأشياء تخضع لديه إلى القياس، إلى المعيار الدقيق، فشاؤول شخص متناوب، متذبذب، فهو ثري ثراء فاحشًا إلاّ أنه لا يشتري الصور الخلاعية إلاّ بأبخس الأثمان، إذن لا يمكنه أن يبني على الأرض مستعمرة النقاء والفداء والسعادة! ومن ثم كيف يمكنه أن يحل هذا التناقض، فشاؤول صاحب متجر عظيم وقصر فخم، فإن كان يؤمن بأن الثروة هي للجميع، فلماذا لا يوزع المتجر على الفقراء، ويجعل قصره خانًا للأشقياء والمكارية والعتالين!

ولم يحتمل إسماعيل طويلاً هذا الأمر إنما تجاسر يومًا وسأل شاؤول لماذا لا يوزع متجره على الفقراء ويضع قصره في متناول الأشقياء والمكارية والعتالين، فغضب شاؤول من سؤاله، وقال له بعصبية شديدة:

«وهذا يحل مشكلة الفقر، قلّي، يحل مشكلة الفقر، ولك الفقر قضية تاريخية، ما قصري اللي صنعها، أنت تقيس فتغلط، الشيطان من قاس غلط».

فصمت إسماعيل مرتعبًا أمام شاؤول الذي فقد أعصابه فجأة، إذ إنه لم يكن يتوقع أن هذا السؤال سيثير غضبه إلى هذا الحد، أولاً: حينما دخلت القضية في التاريخ، أصبحت قضية صعبة، وهو حين يسمع بالتاريخ فإنه يرتعد ويصمت، ولا يدس أنفه مطلقًا في القضايا التي تخص هذا المسؤول عن آلام الكون كلها، الذي كلما طرأ حادث مؤلم قال شاؤول

إن هذا هو بسبب التاريخ ، إلاّ أنه أصغى إلى قصة الشيطان الذي قاس فأخطأ والتي سردها له شاؤول حتى نهايتها ، ولكن المفارقة أن إسماعيل أصبح أكثر اضطرابًا وبلبلة من ذي قبل ، فقصة الشيطان التي سردها شاؤول لم تكن تزيده إلاّ إيمانًا بأن القياس صحيح وأن الشيطان على حق .

في الواقع كان إسماعيل يدافع عن قضيته الشخصية ، كان يدافع عن سعادته هو ولم يكن يهمه كثيرًا سعادة الفقراء من أبناء جلدته ، كان يريد أن يجعل الأشياء التي تخص سعادته على المحك ، لذا كان عليه أن يختبر أوجه هذه الشخصية المتناوبة التي كان يشتمل عليها شاؤول ، كان يحاول إيجاد عنصر مشترك بين الأشياء التجريدية والأشياء المحسوسة ، فيحاول استعادة هذه الشخصية ، استعادة عامل آخر ، مشترك ، عامل يجعلها ثانية أمامه ، فلا الملاحظات الصغيرة ولا الكلمات تجدي نفعًا أو فائدة ، إنما الأشياء بصفاتها الحسيّة ، وبقوامها العمودي والأفقي ، الأشياء التي يضعها أمامه ، ويراها كما يريده شاؤول أن يراها ، كان يردد وراءه العبارات ذاتها وهو يكتشف بعد جهد قليل أن الثقافة وإدارة فن القول بسيطة ، يكفي أن تتعلم بعض العبارات وتضعها في مكانها ومناسبتها وتعبر بوجهك تعبيرًا معينًا حتى تصبح شخصًا مقنعًا . وهذا الأمر كان يثير في نفس إسماعيل لذة نوعية ، ويوقظ في روحه رعشة كبيرة كانت غافية وراء ملامحه الجامدة .

-٨-

فإن كان إسماعيل حدوب خاملاً فكريًا فيما مضى ، وعربيدًا متبلدًا ، فهو الآن قد استيقظ إلى الأبد ، ولن يعود إلى خموله وتبلده . لقد استيقظ إسماعيل على يد شاؤول وانطلق نشطًا للقنص والصيد ، ولكن هذه المرة ، على خلاف المرات السابقة ، انطلق إلى القنص الوفير ، إذ لم يكن

إسماعيل سوى قناص ماهر، قناص جاء ليصطاد ويطارد الملذات والمتع والمسرات بالحنكة التي ولدها لديه فقره وبؤسه وتشرده . كان إسماعيل يقف وسط الركام ليشم، ليفتح أنفه بقوة ويشم، وهي قدرة الكائنات الفقيرة على الشم، مثل قدرة الكلاب على شم اللحم من بعيد، ولكن هل كان شاؤول غبيًا ساذجًا إلى هذا الحد؟ بكل تأكيد لا .

إنما شاؤول مثل كل الأغنياء، مثل كل الأثرياء على الأرض، مثل جلد المرأة المريضة الناعم الذي يخفي تحت نعومته داء فتاكًا، لذا كان من الممكن أن تكون هنالك مصالحة ظاهرة، وإن كانت تخفي هذه المصالحة بعض العيوب والنواقص، إلاّ أنها مصالحة بعد كل شيء . فإسماعيل يبحث عن المال، أي مال وبأية وسيلة : سواء كان قادمًا من الحكمة، أم من الأم البعيدة، أو من حادث وفاة، تركة . . . إفلاس . . . لا يهم، وكان شاؤول من جهته يبحث عن تابع ليستغله، وقبل أن يضع في فمه قطعة اللحم كان يريد أن يضعه على سطح مستوٍ، كان يريد أن يضعه تحت عدسته المكبرة التي يفحص فيها المجوهرات، ويعطيه أحجامه، ثم يضعه على مكان مستو من خلال أفكاره وكلامه وعباراته، فيرجعه مرة للوراء ومرة للأمام، ثم يتحسسه جيدًا بالزمان والمكان، ويبرزه من خلال أفكاره السياسية .

لقد كان إصلاح التاريخ لا يتم لدى شاؤول إلاّ بواسطة بناء مستعمرة السعادة، وشاؤول مثل جوبتير يصبح أكثر سعادة أمام المحرومين منها . وقد أدرك إسماعيل من الأيام الأولى أن فترة وجوده مع شاؤول هي فترة انتقالية، لأن البحث عن السعادة شاق، ويمر عبر طريق طويل معقد ومتعرج، طريق لا يقنع بالوصول ولا ينتهي . إلاّ أنه أدرك من جهة أخرى أن هناك سعادات أعظم، وأن هناك أناسًا غيّروا منشأ السعادة لديهم فلم تعد السعادة تكمن في الضحك والمرح، إنما تكمن في البكاء والدموع،

وهي سعادة يتلقاها هؤلاء الناس ليعيشوا العالم على نحو أفضل . وهكذا أدرك إسماعيل من الأيام الأولى من عمله ، من اليوم الذي دخل فيه شاؤول إلى المتجر وقطرات الدمع البلورية تصب على خدوده ، تصب من عينيه الجامدتين مثل البلاستيك ، وقد أجهش أمام إسماعيل بكاء على بطل رواية كان قرأها في الليلة الفائتة ، أدرك إسماعيل أن منشأ السعادة يمكنه أن يتغير ، يمكنه أن يتبدل من مكان إلى آخر ، ولذا لم يجد صعوبة في تقليد شاؤول ، فقد أجهش أمامه في بكاء حار ، وتهالك على الطاولة وأخذ يضرب بيده ، أجهش إسماعيل أمامه في البكاء ولو على سبيل التهكم ، أو على الأقل كان إسماعيل يريد تقليد لغة شاؤول ورؤيته للعالم ، ليرسم صورة لنفسه لا تخرج عن الإطار الذي يضعه شاؤول لها : يريد شاؤول أن يظهر القيمة الحقيقية لهذا الشاب ، وكان هذا القناص اللامع يدرك ما كان يريده منه شاؤول ، ولذا فإنه قلّده وخدعه ، ولم يدرك شاؤول هذه الخديعة إلاّ في اللحظة التي عاد فيها فيلسوف الوجودية إلى الصدرية ، وحينما تركه إسماعيل وركض وراء عبدالرحمن ، أدرك شاؤول أن البشرية لا تضحي بشيء إلاّ من أجل الزفر .

-٩-

كان إسماعيل مثل كل الأدباء المنحدرين من الوسط البائس ، مثل كل الأدباء الذين لا يرون في الأدب والفن إلاّ واسطة ، إلاّ وسيلة للدخول في الصالونات والقصور الفخمة ، ولم يجدوا بالفن إلاّ زينة يزيّنون بها حياتهم ويجملونها ، كي يحظوا في النهاية بفتاة غنية ، جميلة مترفة يضحون من أجلها ، يضحون في سبيلها ، ليمتصوا الرحيق الذي بين يديها ، وبعد أن تشيخ وتكبر يبحثون عن الأفراح والمسرات في نساء أخريات .

كان إسماعيل يريد أن يصل من خلال تسلحه بالأدب، ليثأر لكرامته، ويبني مجده على متانة مجد غيره، كان يريد أن يكون طموحًا، وقويًا، كان يريد أن يكون رهيبًا وغنيًا ليتحسس كل شيء ويستولي على كل شيء، كان يريد أن يروي ظمأه في الحياة من خلال تسلحه بالأفكار، وما هذا البحث إلاّ وسيلة وواسطة ليستولي بها على كل شيء، كان يريد الحياة، كل الحياة، لا من خلال التفكير بها إنما من خلال امتصاصها وازدرادها، يريد أن يعيش لا على حسابه إنما على حساب غيره، فالحياة لا يمكن الوصول إليها إلاّ بالمال، والمال لا يمكن الوصول إليه إلاّ بالأدب، والأدب بحاجة إلى مال وصكوك وصرف ونقد، ولكن على حساب التجار والوسطاء والسماسرة والسياسيين.

لم تكن هذه المعادلة سهلة على الإطلاق، ولم يكن هذا الأمر بسيطًا كما كان يظن أول مرة، لأن هؤلاء السماسرة والسياسيين الذين تدربوا على الكسب والسلب والنهب والأخذ والمساومة، ليسوا بهذه السذاجة أبدًا، ليسوا بهذه البراءة على الإطلاق، إنما كانوا محنكين حنكة جبارة، وكانت حنكتهم وقوة نفسهم تدلهم بسهولة على الوسيلة التي يستخدمون بها هذه الكائنات لحسابهم، ويجبرونها على أن تخدم مشاريعهم، فهم وإن كانوا بحاجة إلى من يصورهم ويقدمهم وينمذجهم، وربما إلى من يشتمهم أيضًا، إلا أنهم يقدمون له الأزهار ولكن ليست دون سم، يقدمون له اللقمة ولكن ليست دون عظمة، إنهم في الواقع يقدمون بضاعة فاسدة إلى من يتعقبهم، ويسير خلفهم، ويشتمهم، ويتشمم مؤاخراتهم كالكلب، وكان يطيب لهم أن يعاقبوا بقسوة أولئك الذين يتكلمون عن الكرامة، عن الرفعة، والشعور بالعزة، وأحيانًا يتحدثون عن استهجانهم وقرفهم من الكائنات التي ترتجي من الأدب مكسبًا. وهكذا فالمال بيد أصحابه والطريق إليه ليس سهلاً، وأصحاب المال يتأرجحون حسب

الهوى ، وبأيديهم رائحة الزفر ، مرة يمدونها للكلاب التي تنبح ، وأخرى يمدونها للكلاب التي تجلس ولعابها يسيل من فمها ، والكلاب ، وربما الكلاب وحدها ، تعرف أن لا فائدة من النباح ، ولا من الشم ، ولا من التملق ، ولا من التحلق على أقدام مالك اللحمة ، فهذا هو نفوذ الكائنات الفاسدة على الكائنات الرخوة ، وأصحاب الملذات ونفوذهم على الكائنات التي لا إرادة لها .

-١٠-

إن إسماعيل حدوب قد تغير تمامًا .

لقد منحته حياته مع شاؤول في المتجر امتلاءً كاملاً لغروره وكسله ، وقضت فيه على كل مقاومة وعنف ، وقد جذبته حياة المثقفين التي وفرتها له صبحة شاؤول ، وسكنه في منزله . إلاّ أنه انتبه إلى أن شاؤول لن ينسى له أبدًا أنه منحدر من منبت وضيع ، وأن ملابسه الجديدة لن تُنسي شاؤول الخرق التي رماها بيده في البرميل الكائن أمام قصره ، حتى وإن كان شاؤول يؤمن بأن الإنسان محكوم بالظروف والعادة والتكرار ، حتى وإن كان يؤمن بأن الحياة الرخوة تنقذ الإنسان من عداوته ووحشيته ، وتهذبه وتعلمه ، ذلك لأن هنالك أشياء أخرى كثيرة ، هنالك أشياء ليس بمقدور إسماعيل إدراك كنهها أو معرفتها والتحقق منها على الإطلاق ، فما أدركه إسماعيل بصورة جذرية ومجردة إلى حد كبير ، هي أن شاؤول لن يترك له كل شيء بعد وفاته ، كما أوهمته غباوته بذلك ، لقد أدرك إسماعيل وبصورة خالية من كل بلاغة وتزويق أن المتجر والقصر المنيف والمال المودع في المصارف لن يتخلى عنها شاؤول له هكذا بكل طيبة خاطر .

لقد قيد شاؤول كل شيء باسم زوجته التي هربت منه ، باسم زوجته التي هجرته وخانته ومرغت أنفه في الوحل كما كان يقول ، وقيّد المال

الذي كان يملكه في الخارج باسم أولاده الذين يقطنون في لندن ، وبعض الأملاك باسم عشيقته الليتوانية التي كان ينام معها كلما سافر إلى روسيا من صيف إلى صيف .

لقد عدّ إسماعيل هذا الأمر حماقة من شاؤول ، ثم خيانة منه لمبادئه ، عدّه حماقة ذلك لأن من حق شاؤول ، بشكل لا جدال فيه ، أن يعاقب هذه الزوجة القذرة الخائنة ، بل وأن يدمرها مثلما دمرته ، ولم يقنعه شاؤول الذي ينظر للإنسان بأنه عبد تصيّره الظروف وتخلقه مثلما تخلق الأصابع الطين النقي ، بوجهة نظره ، إنما كان يرى شاؤول أحمق ، كان يريد أن يثبت لزوجته وعلى نحو أفضل أنه لا يريد المال لينفق وهو حي ، إنما كان يريده لينفق وهو ميت ، وكان عده خيانة لمبادئه ، ذلك أن شاؤول لم يكن يؤمن بعبقرية إسماعيل ، وأنه لن ينسى أبدًا أن إسماعيل مهما تغير وتبدل فلن يكون سوى بائع صور خلاعية متجول ، لن ينسى أبدًا أنه هو الذي انتشله وصيره وبناه وخلقه ، وبالتالي فإن إسماعيل لا حق له بأي شيء من ماله الذي كثّره وأنفق حياته في سبيله ، وهكذا فإن المال الذي سيأتي من شاؤول لن يأتي ، والحلم الذي حلمه إسماعيل في الفراش الوثير أول يوم دخوله قصر شاؤول ، تحول إلى كابوس في اليوم الأخير الذي قضاه إسماعيل في قصره .

وقد أدرك إسماعيل بصورة لا لبس فيها ، أن السعادة هي السعادة بالملمس لا بالحديث النظري ، وأن المال بالإنفاق لا بالتجميع والتكثير والادخار ، فبريق الذهب لا ترقبه العيون دون أن تدمع ، وأن النفس لا ترى النساء دون أن تطمع ، ومن ثم أدرك إسماعيل أن حياة الثقافة مع شاؤول ليست هي الوحيدة على الأرض ، إنما حياة الثقافة مع شاؤول هي أكثر فقرًا وقفرًا وخواء . لقد أدرك إسماعيل أن حياته مع شاؤول هي حياة جافة مثل خشبة معلقة في باب الإصطبل ، فلا نساء ولا سكر ولا عربدة ، وأن في

نفسه ما يدفعه إلى الملذات ، ما يجبر قلبه على الذوبان أمام الأشياء المسكرة الشهية ، ما يهزه أمام الركض وراء الأشياء البرّاقة والمخملية التي تخفي تحت كثافتها الملمس الناعم والجنس والمخدرات ، وهي الأشياء التي كان إسماعيل مؤمنًا بها ، مغرمًا بها ، ومنقذفًا نحوها بشكل غريزي . يريد إسماعيل صور الثراء والإعجاب والأبهة التي يتحمل كل معاملة من أجلها مهما كانت هذه المعاملة قاسية ، مهما كانت جارحة ، لأنه كان يريد الوصول إلى نهاية السلم الذي يفضي إلى حجرة اللذة ، لأنه كان يريد الوصول إلى الأشياء التي بإمكان اليد أن تلمسها ، لا إلى الأشياء التي بإمكان العقل أن يدركها . فلا يكفي المعدة الامتلاء ، إنما هنالك حاجات أكبر كان تعودها ولمسها وتحسسها ، فإن كان قد تخلى عنها يومًا فإنه كان قد تخلى عنها مؤقتًا ، كان قد تخلى عنها من أجل أن يصل إلى مركز يهيئه للنقلة الثانية ، وحين رأى أن النقلة الثانية ليست على يد شاؤول تخلى عن شاؤول ، طرده أول الأمر من ذهنه ، ومن ثم أخذت عيونه تتلصلص على غيره ، وحين وصل عبدالرحمن إلى سوق الصدرية وجد إسماعيل حدوب النقلة الثانية .

-١١-

لقد هرب إسماعيل حدوب من شاؤول والتحق بعبد الرحمن .

الحقيقة هي الحقيقة ، والوقائع هي الوقائع ، والأسلوب الذي اختاره إسماعيل لتصميم حياته القادمة هو أسلوب القناص الذي يريد أن يصطاد الحياة بواسطة الفلسفة ، لا أن يصطاد الفلسفة بواسطة الحياة . فركض خلف عبدالرحمن لأن هذا الأخير ، وعلى خلاف شاؤول ، كان يتحدث عن الحياة بشكل عملي ، كان يتحدث عنها بدقة ، وبأناقة ، وبشيء من الدعابة ، بكثير من النكتة ، كان يتحدث بشيء من المزاح وبخفة الدم ،

وكل هذه الأشياء كانت تنقص شاؤول وتنقص ثقافته ، وكانت فلسفة عبدالرحمن أكثر جاذبية من فلسفة شاؤول ، ذلك لأن الوجودية واضحة في هذا الأمر أكثر من ماركسية شاؤول ، مثلاً :

- حينما يقول عبدالرحمن : عدمية ، هذا يعني أنه سيسكر .
- وحين يقول : حرية ، فهذا يعني أنه سينام مع امرأة .
- وحين يقول : التزام ، فهذا يعني موعدًا في البار أو في الملهى .

هكذا قال إسماعيل يومًا لأحد أصدقائه الجدد في مكتبة كورونيت .

وكل هذه الأشياء هي أشياء تُمتع ، أشياء تؤنس ، بينما مستعمرة السعادة التي يريدها شاؤول لن تكون إلاّ بالنضال والقتال ، هذا يعني نناضل ، ربما نموت ولا نحصل عليها ، فأي فردوس هذا؟

لذا وجد إسماعيل حدوب في الذوق والمتعة تفسيرًا غنيًا للحياة طالما تتعلق الحياة برغبات آنية لا برغبات مؤجلة .

وقد قابل فيلسوف الصدرية هذا الهروب أول الأمر بالابتسام ، ومن ثم قابله بارتياح كبير . وحين رأى هيجان شاؤول وفقدانه لأعصابه أصرَّ على الالتزام بإسماعيل ، لأنه اختارحريته ، والحرية التزام . هكذا فسر عبدالرحمن الأمر لتابعه الذي عدَّ خياره الشخصي بأنه صدى لذكريات بعيدة في نفسه ، وقال للفيلسوف وهو يقف أمامه في المقهى إنه وجودي منذ أن كان في القماط . وحين وصلت هذه العبارة إلى شاؤول قال :

«ولِكُم هم صدقتوا أن هذا الحمار كان ملفوف مثل الأوادم بقماط ، لكم هذا نغل مصلخ ، كانت أمه القحبة زاتته بشطيط» .

لقد هرب إسماعيل من شاؤول من أجل فكرة عنيدة في رأسه ، من أجل فكرة صلبة نحو الحب والجنس والسكر والملذات ، ولم يمنح عبدالرحمن من جانبه هروب إسماعيل أية سمة مأساوية ، إنما عدّه نوعًا من الميل الطبيعي لدى الناس أجمعين للانغماس في الحياة ، وأن تتمة

هذا الميل تكمن في الجلوس في المقاهي والسهرات الفلسفية الحمراء في ملهى جريف أدب . إنه السكر ، العربدة ، الجنس والخروج الساخر على الأعراف .

-١٢-

لقد أثار هروب إسماعيل حدوب إلى عبدالرحمن فيلسوف الصدرية عاصفة من الشائعات ، والتقولات التي كانت تغضب شاؤول وتدمره ، وتثير عربدته وصياحه وهياجه ، فكان يقف أمام متجره ويصرخ بأعلى صوته مهددًا بالانتقام بفم لا يكف عن التثاؤب ، بفم ذابل وهو يلفظ الراءات غاءات ، مما يثير في جماهير الناس عواطف ساذجة من الضحك والسخرية ، كان يقف أمام متجره ويصرخ بأعلى صوته الأجش المبحوح :

«وين تغوح مني؟ . . وين تغوح؟» .

فيتجمع الماكرية وشقاوات الصدرية يضجون بالضحك والدعابات الخشنة ليهيجوا أعصاب شاؤول ، فيتدخل الزبالون وباعة الخضرة والحلوانيون الذين يتعاطفون مع شاؤول ، بدفع المكارية وضرب حميرهم فتحدث مشاجرة صاخبة ، يتدخل فيها باعة الفواكة واللحامون وأصحاب الخراف والخزافون وباعة الفرفوري ، فيتأرجح شاؤول في الهواء كورقة شجرة جافة ويسقط على الأرض .

-١٣-

هكذا يجيء عبدالرحمن كل يوم ظهرًا ، وهو يمر من شارع المتاجر في سوق الصدرية ، يسير تحت المطر بمظلته التي تقطر ماء ، وبمعطفه المشمع الأسود المبلول ، يسير بقدمين مرتجفتين من البرد وبخطوات مترنحة ، وعصير التبغ يقطر من غليونه المطعم بالأصداف .

لقد جذب إسماعيل بكل قوة ، لأنه الكسل واللامبالاة والفواحش الظاهرة ، وكانت فلسفته ترد كل زلة أخلاقية إلى الطبيعة الإنسانية القابعة في ضمير كل واحد منا ، وهكذا كانت الفلسفة نسبة إلى إسماعيل أعظم وأخطر بكثير من الحديث النظري عن مستعمرة السعادة .

-١٤-

في أيام كثيرة كان عبدالرحمن يأتي بصحبة إسماعيل ، يأتيان وهما يترنحان من السكر أمام متجر شاؤول قادمين في الصباح بعد قضاء ليلة معربدة في الملهى ، وحين يصلان إلى رأس الجادة فإنهما يتباطآن في المسير حتى يصلا أمام متجر شاؤول فيتقيآ أمام الباب تمامًا ثم يمسحا فميهما بأكمامهما ويهرولان ، فيركض شاؤول وراءهما وبيده عصا المكنسة ، إلاّ أنهما يختفيان في عطفة الشارع فجأة مثل «أصابيع الديناميت» .

وفي أحيان كثيرة يتوقف عبدالرحمن وإسماعيل في نهاية الجادة ، حيث تتناثر بعض محلات الدعارة والصفوف الطويلة من الأفندية تتدافع لتخلع سراويلها الأنيقة قرب النساء اللواتي يخرجن بالكورسيهات وأخريات يسفحن ماء الغسيل على العتبات ويضحكن ضحكًا مجلجلاً .

-١٥-

كانت رحلات عبدالرحمن وإسماعيل يومية ، حيث كانا يستقلان إما سيارة التاكسي أو ربلاً بحصانين أشهبين لا تتعدى أجرته درهمًا واحدًا .

كانا يلذا لهما أن يستقلا ربلاً لينقلهما من الملهى قرب سينما روكسي إلى شارع الملك غازي وبالعكس ، حيث يجلس كل منهما في ركن من العربة ويمران بالأحياء السكنية المزدحمة منطلقين بين أشجار اليوكالبتس

التي تطلق رائحة ثقيلة ، وهما يستعيدان مع العربنجي الحشاش حديث العرق المغشوش ، والويسكي الأجنبي ، بينما تنساب العربة في الشوارع الضيقة الملأى بالنساء اللواتي يرتدين عباءات سودًا ، وحليهن الزائفة تبرق عند ارتفاع الأردان .

وحين تصل العربة ساحة زبيدة تشق جموع الناس بصعوبة ، حيث تتلكأ العربة لكثرة الأطفال الذين يتقافزون في الشوارع ، بينما تجلس النسوة عند العتبات ، أو يطللن من النوافذ المشرعة أو يجلسن فوق السطوح ، والعربنجي الذي يشد رأسه بعصابة ويضرب على عجيزتي الحصانين اللذين يدربكان بشكل منتظم على الإسفلت ، يتصايح وهو يسير مع البقالين والطراشين والقزازين على جانبي الشارع ويشتبك في معارك كلامية مع أشقياء الحارة ومن ثم ، يصل عبدالرحمن وإسماعيل إلى ملهى جريف أدب حيث تكون دلال مصابني بانتظارهما .

-١٦-

كانت دلال مصابني أشهر راقصات زمانها آنذاك على الإطلاق . ولدت في بغداد من أم لبنانية مشهورة بنزقها ومغامراتها ، اسمها عايدة قسطلي ، وأب عراقي مجهول الهوية ، إلاّ أن البعض كان يعتقد أنه شخصية معروفة بوجاهتها التجارية في الموصل ، يتخفى في بغداد باسم عبدالحميد الهاشمي .

وبعد أن هجرته الزوجة النزقة إلى لبنان مع ابنتها التي كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عامًا ، ترك هو بدوره المنزل الذي أجره في بغداد لزوجته ورحل إلى إيران ، وقد اختفت آثاره تمامًا ولم يعد يسمع به أحد على الإطلاق ، إلاّ أن عايدة لم تطق حياتها في بيروت ، فرحلت إلى أميركا بعد عام مع صديق مقامر ، تعرفت إليه في إحدى صالات الروليت يقطن

في كاليفورنيا ، وتركت ابنتها دلال في أحضان مهرب مخدرات شهير ، يطلق على نفسه اسم سامي الخوري .

لم يكن سامي الخوري سوى المهرب الشهير الذي شغل الصحافة العالمية في الستينيات (حوالي العام ١٩٦١) والذي أقلق شرطة الأنتربول بمغامراته وعملياته الضخمة في التهريب ، وكان له ولع خاص بالنساء الجميلات ، حتى انتهى بقصة حب مع المطربة الفرنسية الشهيرة (ماريا فانسان) بعد أن تعرف إليها في ملهى غوردن بلو في اسطنبول .

في الواقع كانت دلال قد تعرفت إلى سامي قبل شهرته في شارع الحمراء في رأس بيروت ، حينما كانت في الخامسة عشرة من عمرها ، أي بعد وصولها مع أمها مباشرة ، وقد قدمتها له سميرة شويري أكبر غانية في بيروت ذلك الزمان . كانت دلال آنذاك صغيرة السن ، تعمل كراقصة متدربة في ملهى مصابني ، وحين تركت الملهى وغادرته سكنت الشقة الفخمة التي كان يملكها سامي في الروشة ، وقد جذبت الأنظار بشعرها الأشقر الطويل ، وجسدها النحيف وخصرها النحيل ونظراتها الهادئة ، وكان أهل بيروت يتحدثون عن الفتاة الجديدة التي رافقت ملك المخدرات في سيارته الكاديلاك ، والتي تتعشى معه كل يوم في مطعم الكاف ، حيث يجلسان في زاوية مظلمة ويشربان الشمبانيا ، وبعد منتصف الليل كانا يظهران كأجمل (كوبل) على مائدة من مواد القمار وهي تقف عند رأسه وفي يدها كأسان من الويسكي واحدة لها وواحدة للمقامر المحترف ، وتجعله يشرب الكأس من يدها رشفة رشفة .

وبعد عامين كانت صورة دلال تتصدر الصحف اللبنانية والعربية جنب مهرب المخدرات ، وقد ضبط في أكبر عملية تهريب للحشيش إلى القاهرة .

لقد ألقي القبض على دلال في أوتيل ريجنت في القاهرة .

كانت في تلك الساعة فاقدة تمامًا لأعصابها ، كانت قلقة مضطربة ، فأخذت تشعل سيجارتها (الكنت) البيضاء الطويلة بالولاعة الموجودة في حقيبتها ، ثم أخذت تنفث الدخان في الهواء ، بينما كانت نظراتها الحائرة معلقة على باب الأوتيل .

فجأة دخل رجلان من رجال المباحث المصرية إلى الأوتيل ببذلات أنيقة ونظارات سود ، فاقتادهما شخص كان يقف لدى الباب إلى دلال ، وما إن وقف الثلاثة أمامها حتى بادرها أحدهما :

«هل أنت دلال هانم؟» .

«نعم» . قالت دلال بثقة .

فاقتادها من يدها ليخرجا من باب الأوتيل أمام أنظار الخدم والعاملين في الفندق إلى السيارة المارسيدس السوداء التي كانت تقف بالخارج ، وانطلقت بهم بسرعة .

أمام طاولة المحقق التي تحوي محبرة صغيرة وأقلامًا متنوعة وحقيبة صغيرة (تعرفت إليها على أنها حقيبة سامي) جلست دلال على كرسي وثير أمام المحقق ، البدين والأصلع ، الذي خلع جاكتته ورماها على الأريكة .

«دلال هانم ، ما هي قصة المخدرات التي جاء بها سامي إلى القاهرة؟» . قال المحقق بتهذيب كبير وهو يتفحص عينيها الجميلتين والحزينتين . فصمتت دلال ولم تجب ، وحين دخل سامي برفقة أحد رجال المباحث ، وقفت دلال حالما رأته وكأنها تريد أن تعانقه . فقال سامي للمحقق إنّ لا علاقة لها على الإطلاق بقصة المخدرات إنما جاء بها من بيروت إلى القاهرة كغطاء ، وإنها لا تعلم بما كان يحمله . ثم جلس على الأريكة وهو يمسك

سيجارته بعصبية ، وحين رمقته دلال برقة ، وضع رأسه بين يديه دون أن ينطق بكلمة .

وبعد أيام من التحقيق المتواصل ، لم يستطع المحقق أن يثبت أي شيء ضدها ، مما أجبره على إطلاق سراحها ، فوُضعت يومين في فندق ريجنت ومن ثم سفِّرت عنوة إلى بيروت ، بينما حكمت المحكمة على سامي بالسجن لمدة سنتين في سجون القاهرة ، فعادت دلال إلى الشقة التي استأجرها لها سامي في الروشة ، لتقضي العامين بانتظاره مع خادمته اليونانية ، التي كان يثق بها ثقة كبيرة ، دون أن تخرج من الشقة على الإطلاق . كانت حياتها مريرة وهي بانتظار العاشق المغامر والمقامر الذي تركها في القاهرة ، وما زالت ذكرى عينيه الواهنتين ، وهو يضع السيجارة في فمه أمام المحقق تعذبها . كانت كل يوم تجلس أمام النافذة الزجاجية الواسعة لتتذكر الأيام السعيدة التي كانت تقضيها معه في الروشة ، أو في شارع الحمراء على موائد القمار ، وهي تتحدث إلى خادمته ، التي كانت من جانبها تتحدث لها عن شبابه المراهق والمغامر ، وعن نجاته كل مرة من عمليات القبض عليه ، إلاّ هذه المرة التي خاف فيها على حياتها ، فقرر أن يستسلم كي لا يعرضها للخطر . وكان هذا الكلام يزيدها حبًا وتعلقًا به .

وفي يوم جاءتها خادمتها بخبر وصول سامي إلى بيروت ، سمعت ذلك من أصدقائه ، فاستعدت دلال لهذا اللقاء في اليوم ذاته ، وفي اليوم الذي تلاه دون أن يأتي ، وحين استاءت ويئست ، قررت أن تخرج بنفسها لتسأل عنه بين أصدقائه علها تفلح بلقائه ، إلاّ أنها أخفقت ، إذ أقنعها أصدقاؤه أنه يخشى على حياتها ، وعليها أن تتحفظ وتتكتم على الأمر . وبمرور الأيام شعرت دلال بأن الأمر ينطوي على شيء أخطر من ذلك ، فكادت أن تفقد أعصابها ، إذ لم يكلف نفسه أن يمر وهي التي انتظرته هذه الأيام كلها ، ومما زاد في يأسها وإحباطها أنها علمت فجأة بسفره إلى

اسطنبول لتنفيذ عملية جديدة ، فأخذت تنتظره مرة أخرى الانتظار المعذب الطويل ، حتى سمعت بعد أشهر أنه تزوج من المطربة الفرنسية (ماريا فانسان) التي كانت تغني في أحد ملاهي اسطنبول (ملهى غوردن) وبعد ذلك اختفت أخباره تمامًا ، ولم تسمع به إلاّ مرة واحد ، حين جاءها أحد أصدقاذه بمبلغ من المال حمّله إياه سامي ليوصله لها ، وليقول لها إنها حرة فقد وجد حياته مع واحدة أخرى .

عادت دلال إلى الملهى الذي كانت تعمل فيه قبل أن تتعرف على سامي الخوري ، لتنضم إلى شلة الراقصات ، وأخذت تتدرب على الرقص الشرقي ، وتؤدي بعض الوصلات الراقصة على خشبة المسرح ليلاً ، إلاّ أنها تعبت من هذا العمل المرهق ، وشعرت أنها غير قادرة على منافسة راقصات محترفات ، كن تدربن في أشهر معاهد الرقص آنذاك ، وعلى أيدي أشهر الخبراء في القاهرة وبيروت ، فقررت العودة إلى بغداد ، حيث استطاعت بمال بسيط تركه لها المهرب الكبير ، أن تفتح ملهى جريف أدب قرب سينما روكسي ، وسرعان ما ذاعت شهرتها ، ولا سيما بعد أن أصبح الفيلسوف العراقي واحدًا من روادها ، حيث أشيع عن هذه الراقصة فكرة مفادها أنها تؤوي الأدباء وترعى الكتاب وأنها من أنصار الثقافة ، ولم يجدها عبدالرحمن غير ذلك ، حيث كانت تخصص له مائدة بأكملها مكتوبًا عليها (طاولة الفيلسوف محجوز رجاء) .

-١٨-

كانت دلال تلهب الفيلسوف بفمها الأحمر القاني الملتهب ، الشفاه العريضة الشهوانية الملمومة على سيجارتها الكنت البيضاء ، وهي تنفخ في وجهه الدخان الذي يحمل رائحة المشروب ، والعطر الذي تضعه ، فيشعر بالتحرر الكلي الممزوج بدغدغة مهيّجة في جسده ، وهي تهتز أمامه بصورة

منتظمة والعلكة تطق في فمها . كان يتعلق بها لأنها كانت تشعره بالتحرر من الغيرة والمسؤولية الأخلاقية والاجتماعية معًا ، كما أنه لا يعبأ أمامها بأية قيمة ولا سيما قيمة الشرف . كانت دلال تحرره من المسؤولية ، وهذه الحرية هي التي جعلته يتعلق بها ، لأنه على الرغم من تعلقه بها ك ن يشعر أنها عرفت آلافًا غيره ، وستعرف آلافًا غيره فيما بعد ، إلاّ أنها كانت عادلة ومتوازنة ومنطقية ، إن لم نقل إنها كانت فلسفية . فقد كان لها صديق إنكليزي تستقبله في حجرتها ، تدّعي أنه يلقنها بعض الدروس باللغة الإنكليزية إلاّ أنها تصرفه حال دخول الفيلسوف إلى الملهى ، كانت تودعه إلى الباب بلباقة وتهذيب كبيرين لتستقبل الفيلسوف هناك بالتهذيب ذاته وباللباقة ذاتها ، دون أن تثقل كفة على حساب كفة ، أو أن يشعر أي واحد منهما بالإهانة أو بالمرارة لأنها اهتمت بالآخر دونه ، أو به دون سواه ، لقد كانت تنفذ ببراعة عملية توزيع الصديق واستقبال الآخر بطريقة مريحة وبأتيكيت في غاية الطلاقة والخبرة .

وحين تنهي وصلتها الراقصة كانت تجلس مباشرة إلى طاولة الفيلسوف ، لتستمتع بحديثها مع إسماعيل وعبدالرحمن ، وإن كانت - بعض الأحيان - تستجيب لرغبات الزبائن فتجلس معهم ، فإنها تفعل ذلك على مضض ، ذلك أنها كانت تشعر بنوع من التعالي على الآخرين الذين لا يعرفون من الفلسفة شيئًا ، وأنها لا يعجبها إلاّ مجالسة الناس الذين هم بمستواها وبمكانتها . ولكن علينا أن نقول إن هذا الأمر لم يكن يجرح الفيلسوف على الإطلاق ، فلم يكن يعجبه أن تكون خاصته كي لا يشعر بأية مسؤولية أيضًا تجاهها ، كان يعجبه أن تكون مشاعة للجميع كي يتخلص من مشاعر الغيرة التي هي مشاعر لا فلسفية بالنتيجة ، إلاّ أن هذا الأمر كان يجرح إسماعيل الذي لم يكن يفهم مشاعر الفيلسوف على الإطلاق ، لأنه بعشائريته وبدائيته كان يعد هذا الأمر نوعًا من الإهانة . لم

يفهم إسماعيل ماذا يعني أن تكون الراقصة خليلة الفيلسوف ومع ذلك فإنها تجلس مع أحد غيره ، إلاّ أن عبدالرحمن كان يرد على هذه الأفكار الشرقية السمجة بصورة فلسفية :

«أنت ما تصير وجودي حقيقي إلاّ إذا تخليت عن هذي الغيرة الشرقية» .

«بس هي صديقتك؟» .

«صديقتي نعم ،لكن هذا ما يعني أغار» .

وأخذ الفيلسوف يسرد إلى تابعه حادثة كانت وقعت لجان بول سارتر في باريس وكان شاهدها عبدالرحمن نفسه . قال له :

(مرة كنت في منزل صديقي سارتر وكانت سيمون معنا ، سيمون دو بوفوار طبعًا ، وكان معنا بعض الأصدقاء الفلاسفة مثل مرلوبونتي ، وغابرييل مارسيل ، وفلاسفة آخرين . كنا نشرب معًا ونشعر بالغثيان ، كانت حفلة على ما أذكر . . . أو لنقل كانت دعوة صغيرة للشعور بالغثيان في شقة سارتر . . . وكنت أتحدث مع صديقي سارتر عن بعض الاختلافات الجوهرية والتعديلات التي أقترحها عليه ليكتبها في فلسفته . . . وكان سارتر يوافقني كلمة كلمة ، وحرفًا حرفًا . . . وكان يوافق كل ما كنت أقوله له) .

«عظيم» صرخ إسماعيل :

(وفجأة اختفت سيمون عن نظرنا - واصل الفيلسوف وهو يشرب من كأس الويسكي الذي أمامه وينفث في وجه صديقه الدخان - اختفت فجأة عن نظرنا . . . حيث كان سارتر يبحث عن محفظة أقلامه ، وكان يريد أن يسألها إن كانت معها أو أنها رأتها في مكان ما ، وحين أخذنا نبحث عنها لم نجدها لا في التواليت ، ولا في المطبخ ولا في الشرفة ، فلم يكن أمامنا إلا حجرة نومها) .

. . . فقاطعه إسماعيل فاغراً فمه أمامه :

«ودخلتم حجرة النوم؟» قال إسماعيل وهو يعض بأسنانه على كأس الويسكي .

«نعم دخلنا حجرة النوم ، فوجدناها منطرحة على الفراش ، وقد رفعت تنورتها و(غابرييل بتروفتكش) فوقها» .

«من هذا؟» .

«فيلسوف وجودي روسي . . . يكتب باسم مستعار هو (ميدانوفسكي)» . . . قال عبدالرحمن دون أن ينظر بوجه تابعه ، فشهق إسماعيل وارتفع حاجباه وجحظت عيناه ، وكأنه فاق من السكر قائلاً :

«وماذا فعل سارتر؟» .

«لا شيء . . لا شيء» - قال عبدالرحمن - «فقط قال لها . . . قال لها . . . (آسف يا حبيبتي ما كان بودي إزعاجك)» .

فغر إسماعيل حدوب فمه ، والتمعت عيناه من السكر والدهشة معًا ، وهو يصغي إلى هذه القصة التي أربكته ، وهو في الواقع كان يكبت غضبه واحتقاره لهذه الواقعة ، وحزنه على احترامه لبوفوار ، كل هذه الفترة كان يحترمها دون أن يعلم أنها هكذا ، ومع ذلك كان عليه أن لا يفرّط بصداقته ووجوديته أمام هذا الفيلسوف الذي ذهب إلى فرنسا ورأى الوجودية بأم عينيه ، في الوقت الذي لم يكن هنالك من أحد بإمكانه أن يرى ما رآه ، فالكتب مهما بلغت دقتها لا يمكنها أن تنقل الأفكار على حقيقتها مثلما يفعل النظر ، وعبدالرحمن كان قد رأى الوجودية بعينيه ، الوجودة ذاتها ، بدمها ولحمها ، ثم إنه لمسها ، وتحسسها ، وتمسك بها في حين أن كل الوجوديين هنا لم يروها ، إنما حلموا بها ، وتصوروها ، وتخيلوها .

عبدالرحمن شيء والوجوديون هنا شيء آخر ، الفرق بينهما فرق كبير ، لأنه فرق بين مجرب وحالم ، بين من يعرف الشيء وتكلم معه

وخبره وقاساه وعانى منه ، وبين من توهمه وتصوره وتخيّله ، لا بد أن يكون عبدالرحمن عرف الوجودية بدمها ولحمها كما لم يعرفها أحد مثله ، ومنها خطر لإسماعيل خاطر :

أخذ إسماعيل حدوب ، منذ ظهيرة اليوم الذي أمضاه مع فيلسوف الصدرية في ملهى جريف أدب ، يتغيب عن الفيلسوف ، متعللاً بعمل في صحيفة «أبناء الزمان» وكان يلتحق أحيانًا ولو في سبيل المجاملة بصديقه الفيلسوف مساء في المقهى ، أو في الملهى لدى دلال مصابني ، كان يقول بأن سليم ملكون طلب منه أن يكتب مقالة عن الوجودية ، مقالة عن سارتر يرد فيها - وهذا ما كان يعجب عبدالرحمن - على المحرِّف سهيل إدريس .

ما كان يرضي عبدالرحمن أن يجمع سهيل إدريس بين القومية والوجودية ، كان يضحكه هذا الأمر ، وهو لا ينفك يسخر منه ، كان يعفط في المقهى بصوت عال كلما سمع أن سهيل إدريس قومي ، لم يكن يؤمن على الإطلاق بشيء اسمه سياسي في الوجودية أو أيديولوجي ، وحين كان يواجهه شاؤول أحيانًا وهو يقول :

«ولكن سارتر يكتب في السياسة» .

كان عبدالرحمن يسخر من شاؤول ، لا من شاؤول فحسب إنما من كل من يدّعي بأن سارتر يكتب في السياسة ، كان يقول إن سوء الترجمات العربية هو الذي يقلب كتابات سارتر إلى مقالات سياسية .

كان عبدالرحمن يضجر من السياسة ، يدوخ منها ، يحتقرها ، كان يشمئز من كل السياسيين ، ومن متعاطيها ، ومن الذين يتناقشون بها ، وكان لا يرى في الوجودية إلاّ الشعور بالغثيان ، غثيان مستديم من كل ما هو سياسي واجتماعي وأخلاقي وحياتي .

المهم في الأمر أن إسماعيل أضحى دائم الغياب عن صحبة الفيلسوف ، ولم يكن من قبل كذلك ، إنما كان يلازمه ويرافقه أنّى ذهب ،

وكان إسماعيل حدوب يتعلل أمام عبدالرحمن بأن غيابه ذو التزام سارتري ، التزام وجودي ، وهو مسؤولية ، لا مسؤولية سياسية كما يظن سهيل إدريس ، إنما مسؤولية وجودية ، وما كان من عبدالرحمن المؤمن المخلص للوجودية إلاّ أن يبرر له غيابه ويعذره ، ولم يكن يسأل عن إسماعيل على الإطلاق ، إلاّ ليتابع الرد العنيف الذي سيقوم به التابع على سهيل إدريس .

في الواقع كان عبدالرحمن يبغض شتائم جاسب الأعور لسهيل إدريس ، ذلك لأن هذه الشتائم موجهة لوجودي ، حتى وإن كان هذا الوجودي ممن لا يتفق معه عبدالرحمن . كان يقول :

«هل كان سارتر راضيًا عن غابرييل مارسيل؟» ، قال الجالسون في المقهى بصوت واحد :

«لا» .

لم يكن عبدالرحمن يحب أي وجودي عربي ، وكان يرى أن العرب لا يمكنهم أن يكونوا وجوديين إلاّ بشروط خاصة ، كالشروط المتميزة الإلهامية التي حدثت له ، لأنه لم يكن وجوديًا إلاّ لتوفره على أشياء ثلاثة هي :

أولاً : كان عبدالرحمن قد عرف الوجودية بدمها ولحمها وشحمها ، وكان ضاجعها وركبها وعرفها ، وهي في حجرتها في باريس .

ثانيًا : لأنه يشبه سارتر إلى حد كبير ، ولم يكن سهيل إدريس ولا غيره من الوجوديين العرب يشبهه ، أو يقترب بالشبه منه ، كان يقول إن ثلاثة أرباع الوجوديين العرب هم صلعان .

ثالثًا : إنه تزوج من مواطنة سارتر ، أو كما كان يقول إنها ابنة خالة سارتر ، وكان سارتر قد زوجه له مصاهرة لخلق وجودية عربية على يديه ، كما كان يفعل الملوك لئلا ينحرف العرب ويتزوجوا روسية فيصبحوا

شيوعيين ، أو أميركية فيتحولوا إلى رأسماليين .

في الواقع لم يكن إسماعيل - وهذا ما أكده غير واحد من محلة الصدرية - يذهب إلى صحيفة «أبناء الزمان» في الصباح كما كان يُعلم صديقه الفيلسوف بذلك ، وكما أن الصحافي الكبير سلمان ملكون لم يكن أحمق إلى الحد الذي يكلف به هذا الجاهل بالرد على أكبر وجودي عربي في زمانه هو سهيل إدريس ، وكما أنه لم يكن قادرًا على توريط نفسه بهذه المشكلة ، وكان يدرك جيدًا أنه يكتب بأخطاء إملائية شنيعة ، وأسلوب ركيك ، وأفكار غير واضحة وبطريقة تكاد تكون مضحكة مثل :

(الوجودية ما هي الوجودية ، هي في الواقع غثيان وجودي غثيان من ذلك النوع الذي علمنا إياه أستاذ الغثيانات الوجودية الرائعة - سارتر - الذي كتب رواية الغثيان بشهر واحد كما أكد لنا فيلسوف الصدرية ، وقد رآه في فرنسا بأم عينه ولا سيما أنه متزوج من ابنة خالته . . .) .

وهكذا تتحول المقالة بعد ستة أسطر إلى شتائم لكل منتقدي الوجودية ، ولا ينسى ذكر شاؤول وجاسب الأعور طبعًا وشتائم من اليمين إلى الشمال .

ما كان لمقالات ساذجة مثل هذه المقالات أن تُنشر بصحيفة مثل صحيفة «أبناء الزمان» ، وحينما يقرأها إسماعيل على عبدالرحمن وبحضور الراقصة بديعة في الملهى ، وعلى أصوات الغناء وصخب السكارى وصراخهم ، ونباح العاهرات ، والشتائم ، وانقلاب الكراسي ، وتراكض الندل كانت بديعة تنبهر بهذا الفحل ، إلاّ أن عبدالرحمن يدرك أن المقالة ينقصها شيء ، ولكن لا يدري ما هو ، ومع ذلك كان عبدالرحمن يعذر غياب إسماعيل المتكرر ، حتى أصبح هذا الغياب حقيقة بالنسبة إليه ، حقيقة لا مناص منها ، فهو يذهب بمهمة ، أو بالأحرى «بمهمة وجودية ، وربما كان عبدالرحمن هو الشخص الوحيد الذي صدّق

إسماعيل ، وحتى بديعة كان يساورها شك في الأمر ، فلم يعد إسماعيل راغبًا بوزّة كما كان ، ولذلك كانت تحاول بصورة أو بأخرى أن تلفت نظر عبدالرحمن إلى غيابه ، إلاّ أنه كان يصرّ على أن إسماعيل يذهب بمهمة وجودية ، وهذه المهمة هي من الأعمال العظيمة ، حتى وإن كانت الكتابة بلا معنى ، فإن الحياة هي أيضًا بلا معنى ، ولكن طالما هو ليس بفيلسوف مثله ، فعليه على الأقل أن يدافع عن عرين الفيلسوف ، ويخرس جاسب الأعور وشاؤول وسواهما .

وقد أكد لي غير واحد من محلة الصدرية أن إسماعيل كان يتردد على منزل فيلسوف الوجودية بغياب الزوج ، كان يتردد على زوجة الفيلسوف ، على السيدة الفرنسية التي يزعم عبدالرحمن أنها ابنة خالة سارتر ، وهذا الأمر بالنسبة إلى إسماعيل كان عاريًا من الشك ، فهي ابنة خالة سارتر حقيقة لا خيالاً ، وطالما هو يستطيع أن يركب ابنة خالة أكبر فيلسوف فرنسي فكأنما ركب فرنسا كلها .

-١٩-

إن مشردًا معدمًا مثل إسماعيل يمكنه أن يتباهى بفحولة حقيقية تجذب فرنسية ، لم يعد زوجها راغبًا بها ولم تعد راغبة به ، وكان يذهب كل يوم إلى الملهى لدى خليلته أمام مرأى الجميع ومع ذلك كان يشعر بالغثيان .

فإن كان عبدالرحمن يشعر بالغثيان (ولو سلمنا أن خليلته هي أيضًا تشعر بالغثيان) فهل كان إسماعيل يشعر بالغثيان كما كان يؤكد للفيلسوف؟ في الواقع كان إسماعيل ديكًا من الديكة الشرقية (ينقر ويطفر) .

كان يسير في العاشرة ضحى كل يوم ليتجول في محلة أبو دودو ، ثم

يجتاز عقد النصارى وساحة الدير وعقد اليهود ، ليتجول قليلاً في الصدرية أمام الديكة المرمية في الأقفاص ، وليسمع صراخ باعة الفواكه الطازجة ، وليتطلع إلى النساء ذوات العباءات ، والرجال بالقصات الحديثة .

كان شاؤول يعرف أين يذهب إسماعيل ، يعرف ذلك جيدًا وهو يدق بالمسامير على كرسي أمامه ، وجاسب الأعور يعرف أيضًا وهو يصرخ بالتفاح المغسول المكوم في عربته ، وحمدية البائعة في السوق تعرف ذلك ، وحتى الطبيب سيمون بهلوان يعرف أين يذهب إسماعيل حدوب في الصباح وأحيانًا في المساء ولا يخرج إلاّ قبل نصف ساعة من عودة الزوج .

-٢٠-

لقد كانت الوجودية هي الفلسفة التي تخللت لحم المثقفين العراقيين في الستينيات بلا منازع ، وإن وصول الفيلسوف إلى محلة الصدرية يعدّ أكبر حدث في الستينيات ، حيث شغل فراغًا فلسفيًا عظيمًا ، فلم يكن بإمكان المثقفين آنذاك انتظار ظهور فلسفة كبيرة ، أو تأويل فلسفي لواحدة من الفلسفات الكبيرة في تلك الفترة ، وإن كانوا ينتظرون هذا الحدث التاريخي بفارغ الصبر وكانوا – وهذا ما أكده كل الستينيين دون استثناء – تائهين وسط فلسفات نصفية ، وما إن كانوا على هذه الحالة من الارتباك والتشوش والتخبط ، حتى جاءهم عبدالرحمن ابن السيد شوكت ، أكبر عقلية فلسفية في عصره ، والذي ما كان لهم من دونه حل هذا الإشكال الفلسفي بصورة نهائية ، فقد جاء لهم بوجودية حقيقية لا وجودية زائفة ، وجودية لا شبه فيها ولا التباس ، إذ إنها لم تكن نقلاً ميكانيكًا عن الوجودية إنما كانت تأويلاً عربيًا لها ، كانت تأويلاً خلاّقًا ، لا تأويلاً سلبيًا خاضعًا أو تأويلاً منفعلاً ، إنما تأويل فاعل حيث كان عبدالرحمن يساهم مساهمة فعلية في تكوين هذه الفلسفة وتأسيسها ، ويدفعها إلى الطريق

الذي لم يكن قد فكر فيه مخترعها وبانيها السيد جان بول سارتر .

-٢١-

كان اتِّباع فيلسوف هو غير اتِّباع تابع الفلسفة ، فعبد الرحمن هو فيلسوف ، ولذا فإن اتِّباعه هو غير اتِّباع سهيل إدريس تابع الفلسفة ، ولذا خرج المثقفون العراقيون في الستينيات جماعات جماعات لاتِّباع هذا الفيلسوف العظيم .

ومن ثم كان ابتعاد عبدالرحمن عن المجتمعات الكبيرة ، وعن صالونات الأسر الشريفة ، قد حتَّم عليه الهبوط إلى الشارع ، الهبوط إلى القاع حيث كان أغلب ذلك الجيل يسكنون فيه ، ومن ثم كان عبدالرحمن شابًا وسيمًا ، وثريًا ، وأنيقًا ، وهذا الأمر يمنحه قوة واستقلالاً ، ودافعًا للبحث الغريزي - ولو في سبيل الاعتدال والتواضع - إلى معاشرة الرجال الأقل جاهًا مثل إسماعيل حدوب ، وكان إسماعيل حدوب من جانبه يعدّ هذا الأمر امتيازًا له ، وتقديرًا لعبقريته البديلة عن منبته الوضيع ، مما جعله يتعلق بصورة حميمية بفيلسوف الصدرية . في الواقع عاش إسماعيل مع فيلسوف الصدرية أيامًا جميلة ، كان يسير وراءه حاملاً دفترًا بأوراق مربعة ، وقلمًا مذهبًا ، ويكتب الأشياء العظيمة التي كان ينطق بها الفيلسوف .

وفي يوم من الأيام بدأ المطر يهطل بشكل متسارع ، كان الطقس في غاية البرودة ، كان يومًا من أيام كانون الثاني / يناير في بغداد ، في شارع الرشيد حين وقف إسماعيل أمام المقهى خلف الفيلسوف ولم يكن يرتدي سوى كنزة صوفية مخططة بالموهير الأسود ، كان قد أهداها له شاؤول حينما كان يعمل معه في المتجر ، وهو يصطك من البرد ، فما كان من عبدالرحمن - أول ما التفت إليه ورآه يرتجف - إلا أن خلع جاكتته

الصوفية السوداء وألبسها إسماعيل ، وقال له :

«أنت تشكل لي ما تشكله سيمون دو بوفوار لسارترا» .

فتلقف رواد المقهى هذا الخبر ، وأخذوا يشيعونه في كل مكان ، أخذوا يشيعون عن هذا الفيلسوف الذي يربي مريديه ، ويصنعهم ويضحي من أجلهم ، وهم مندهشون من هذه الصداقة الحميمة التي تربط فيلسوفًا بتابعه . كانوا مندهشين من الصورة الوجودية التي تعبر خير تعبير عن إنسانية هذا الوجودي الطيب ، هذا الغثياني ، هذا السارتري الفذ الذي فاق سارتر بفلسفته .

وبعد أربعة أعوام ، أربعة أعوام فقط ، كان إسماعيل قد خان عبدالرحمن مع زوجته الفرنسية ، التي يقال عنها إنها ابنة خالة سارتر ، وسارت الفضيحة في كل مكان ، فعبدالرحمن مات ، أو قتل أو انتحر ، وابنة خالة سارتر عادت إلى منزل سارتر ، وكان المثقفون العراقيون يقولون إن سارتر لا يعرف أين يخبىء وجهه من الفضيحة ، ولم يبق من عبدالرحمن سوى جاكته صوفية سوداء وكحلية موضوعة على أكتاف إسماعيل حدوب .

-٢٢-

حينما تاه فيلسوف الوجودية في متربول الوجودية ، وقبل عثوره على منزل في شارع (غي لوساك) كان قد عثر على قراره واقفًا على الرصيف - بذلة حمراء غامقة ومعطف من الصوف وقبعة من الدوشين بسيطة -عثر على جرمين التي تزوج من خلالها لا فلسفة بأكملها إنما أمة بأكملها .

ولكن قبل لقاء الحب ، لقاء الفيلسوف مع جرمين في ذلك المساء من مساءات باريس ، كان فيلسوف الوجودية قد عقد صداقة مؤلمة ، صداقة مروّعة بامتياز ، صداقة حب معذب مع فتاة تعمل نادلة في مقهى فلور في

السان جرمان دوبرية ، وما كانت جرمين سوى المعجزة التي عالجت ثلمًا في حياة الفيلسوف ، لأنها لم تكن في حياته وفلسفته سوى نوع من الخلاص ، الخلاص من معاناة المصير الرديء الذي أدى بحياته الفلسفية إلى صحراء لا تنتهي ، فإن كانت جرمين هي الاندفاعة إلى أرض ومناخات فلسفية ، ومشاهد وجودية لا تصدق ، فقد كانت نادلة فلور أكثر مرارة وانفلاتًا وفراغًا وأسى في حياة الفيلسوف .

لقد هام الفيلسوف بنادلة مقهى فلور في اللحظة التي سقطت عيناه على نهديها البارزين المكوّرين بصلابة ، الظاهرين من فتحة في القميص ، وكان خياله يدفعه للمضي إلى غايته ومكاشفتها ، يدفعه إلى هذا البركان الذي لا يهدأ إلاّ عند سفح من الرمل ، إلاّ أن جبنه كان يصده عنها ويبعده عن جبل الذهب الذي كان أسيرخميرته وعذوبته ، لقد كان عاريًا من أية قيمة أو فتنة وهو يعرض أمامها جوعه العارم إلى التجربة ، وإلى الاستطلاع الدائم ، والرغبات التي لا تحد ، الرغبات التي تؤدي به إلى المخاوف والكوابيس والضيق والتوحد والإحساس بالنبذ . كان شعوره بالضعف يجعله جالسًا أمامها على مقعد مريح أمام كأس بيرة مضلع شفاف ، أو كوب شاي يتصاعد البخار من فوهته ، وغليون تبغ ملقى قرب صحيفة «اللوموند» أو أحد كتب سارتر ، ومن ثم يلوذ أمامها بصمت أصم ، صمت كان يبدو لمن ينظر إليه صمتًا مفكرًا في حياة متوحشة ، في حياة مقامرة ، إلاّ أنه من الداخل لم يكن سوى صمت فراغ ، تشكله صور متناثرة ، صور جنسية طليقة ، كلما انحنت نادلة مقهى فلور على طاولة أمامه ، أو كلما عبثت أصابعها بصليب صغير محصور بين كرتي صدرها . وحين انحنت يومًا على طاولته لتنظف منفضة ، وتحمل كأس بيرة فارغًا وقعت عيناه الذابلتان الملتمعتان على تكويرة صدرها الصلبة خلف الكنزة الصوفية البيضاء ، فسألته بماذا يفكر :

هبط السؤال عليه مثل هدية ، كان عليه أن ينبهها بأنه نموذج متفوق ، عليه أن يدهشها فلسفيًا بواسطة قدرته على النفاذ إلى الآفاق المفتوحة الطليقة لكينونته ، ولكن كيف؟

ارتبك قليلاً وهو يبتسم لها ، كانت ضربات قلبه تزداد ، وصوته يتحشرج من المفاجأة ، وحمى الجواب انطلقت بصورة عفوية وفلسفية معًا :

«أفكر بما قاله سارتر عن المرأة ، يقول إنها لا تستطيع أن تستغني عن الرجل» كانت شفتاه ترتجفان ، وقلبه يضرب بقوة ، ويده ترتعش وهي تمسك الغليون .

فضحكت نادلة مقهى فلور ضحكة خافتة ، وهي ترفع خصلات شعرها الشقراء عن عينيها الزرقاوين ، وغمزته قائلة :

«وهل أنت بحاجة إلى رأس سارتر لتعرف هذا الأمر؟» .

لم يكن الفيلسوف يتوقع أن ردها سيكون صاعقًا ، ومولًما ، وجارحًا ، ومستهزئًا إلى هذا الحد ، كان يتصور أنها ستفغر فمها وستقول :

«أوه . . . هل أنت فيلسوف؟» .

فيدور المصير الرديء دورته الكاملة ليلتحق بدائرة السعد ، وستكون هي على عتبة تبدل عظيم ، ذلك التبدل الذي سيجعلهما على وشك انصهار كامل ، وستتعلم شيئًا فشيئًا إبراز هذا الخفي والغامض واللامكتمل في نفسها ، ستكتشف السر الأعظم الكامن في نفسه ، عبر محاولاته المتواصلة للتعبير عن الطبيعة العميقة والسريّة في ذاته . إن سرًا ما كان يؤرقه ، وكان هو بحاجة إلى علاقة حب ، هذه العلاقة ستدفعه إلى سلم الناس البارزين ، والمنحازين بعمق إلى أفكارهم ، لكن الرد كان صاعقًا ، وهذا ما جعله قطعًا مهشمة مشدودة إلى الأرض .

لقد شحب لونه وهي تدير ظهرها وتذهب ساخرة لتختفي وراء الباب ، ولم يبق في ذهنه سوى صورة أردافها وهي تهتز اهتزازة حنونة .

بينما أخذت يداه ترتجفان وأسنانه تصطك وهو يلملم جرائده وغلبونه المملوء بالتبغ وكتبه ونظارته ، ثم غادر المكان ، وهو يلتقط النفس الأخير لهزيمته .

-٢٣-

دفع باب شقته بعنف وقذف بنفسه على السرير ، ثم لاذ بصمت طويل ، صمت معذب ، لقد شعر بمرارة انهزامه ، شعر بشيء شبيه بالفضيحة يغلي فيه ، فقال وهو يضرب الوسادة في قبضة يده المضمومة بقوة :

– لقد كان ذنبي . لو لم أكن أحمق ما كنت قلت هذا الأمر . . . لقد أخجلتني . . . وكان عليها أن تكون أكثر لطافة معي .

لقد شعر برأسه وقد انقسم إلى نصفين ، وفي كل ناحية من كينونته كان هنالك حل ، حل ربما لا يقود إلى نتيجة حتمية ، إلاّ أنه حل على أية حال ، لقد شعر بأنه ممزق على نحو ما ، وبأنه مسحوق ، وأنه ضحية ، وقد بدأ في تلك اللحظة يدرك قدره المأساوي ، كما أدركه في بغداد مع نادية خدوري ، لكنه طابق قدره خطر المراحل التي عرفها ، فانقلب العالم على رأسه ، ليجد نفسه منبوذًا ، شاذًا ، مهولاً ، لقد كان عليه أن يختار ، أن يجد الشجاعة لمواجهة هذا الوحش الطليق الذي يطوف في نفسه ، وأن يستخدمه بعيدًا عن جميع الترميمات ، والتدقيقات ، والانحيازات .

وهكذا اختار ولكن في اليوم الثاني .

-٢٤-

في ظهيرة اليوم الثاني ، في ظهيرة خريفية ممطرة ، خرج عبدالرحمن على عجل من شقته الكائنة في بناية قديمة في الطرف القصي من شارع

(غي لوساك) ، قذف بنفسه سريعًا نحو النسمات المنعشة التي كانت تصفع وجهه ، وتعبث بشعره ، بينما كانت يداه في جيبي معطفه المطري ، وقبعته كان يدنيها إلى جبينه ، وقد أحنى رأسه ، وأقدامه تتقافز من برك الماء على الرصيف ، قاصدًا شارع السان ميشيل ، ليلتقي صديقًا عراقيًا يقطن منذ سنوات في باريس .

كانت حدائق ميدان اللوكسمبورغ تضوع رائحةً شذية بعد أن هطل المطر طوال الصباح : الشوارع مبتلة ، البنايات مغسولة ، والأشجار تقطر خضرتها العميقة بصمت ، فالتقى أحمد عند عمود هاتف في ناصية الشارع ، وأخذا يسيران متجهين نحو شارع «لو برنس» . كان يسير جنب صديقه دون كلام ، وبوجه مرتاب ، صادق ، مخدوع ، لا يريد أن يتخذ قرارًا دون نصحه ، دون إبلاغه ، ولم يكن منكرًا على الإطلاق للأنباء الفاجعة .

«أريد أن أخطط . . . أجعلها تندم وتغير رأيها» . قال بعصبية وهو يسير بصورة مضطربة .

«سيجارة . . هل معك سجائر؟» قال أحمد ، وكأنه متعود على الطريقة التي يتحدث بها الفيلسوف .

أخرج عبدالرحمن علبة سجائره وناوله واحدة ، ثم توقفا ليشعلا سيجارتيهما أمام أحد المتاجر المقفلة بالسلاسل ، وتابعا السير بهدوء .

«لماذا أنت مهتم بها إلى هذا الحد؟» ، قال أحمد وهو يلتحق بصديقه عند عطفة شارع صغير مملوء بالمتاجر ، والمقاهي ، والمظلات ، وهو شارع قريب من الأوديون .

«لأني مللت العاهرات . . . هل تفهم؟ مللت» . قال عبدالرحمن وأسنانه تصك على عقب سيجارته ، وأقدامه تخط بأوراق الأشجار الملونة الساقطة على الرصيف . . وعند سياج أزهار عند الرصيف ، قطف أحمد

زهرة محنية ، وهو يتابع المسير خلف الفيلسوف .

وسرعان ما أدرك أحمد أن الفيلسوف عاجز عن المقاومة ، ولا بد من استغلال هذه الفرصة ، لقد ازدرى نفسه ، وما كان يتحمل أن يطلقها هكذا دون أن يضعها على السرير ، لم يكن حبه قويًا بما يكفي ليدفعه إلى القفز على الأسيجة والأسوار المحيطة بحدائق اللوكسمبورغ .

ولكن أين الحقيقة في هذا الأمر؟ من الذي يقرر؟ من الذي يحدد المعايير؟

لم تكن في رأسه غير فكرة واحدة ، هي حبة الوجيز الهائل ، وغيرته القادمة ، وجبنه ، وخوفه ، وكانت ميزته الوحيدة هي العجز عن اتخاذ قرار ، ولذا فإنه يعوضه بالعبارات المبتذلة ، فقال :

«هل جمعت لي عنها معلومات؟» .

«نعم عرفت عنها أشياء مهمة» .

«ما هي؟» .

«عرفت أن لها صديقًا جزائريًا اسمه معمر» .

توقف عبدالرحمن فجأة في وسط الشارع ، أخذ ينظر بينما كانت سيجارته في فمه :

«صحيح؟» .

«نعم يمكنني التعرف إليه» . قال أحمد وقد انفرج وجهه بابتسامة جميلة .

«وأنا؟» قال الفيلسوف وهو ينظر بصورة غريبة إلى أحمد .

«طبيعي . . . طبيعي . . . فأنا أتعرف إليه من أجلك» .

أخذ عبدالرحمن يسير ببطء في الشارع ، كانت يداه في جيبي معطفه ، ودخان سيجارته يتطاير في الهواء البارد خلفه ، بينما كانت قطرات من المطر تتساقط من قبعته إلى الأرض .

كانت فكرة الوصول إليها بكل ثمن تؤرقه ، كانت ترده إلى طبيعته الحيوانية ، الطبيعة الكائنة في الأسرار الأولية للخليقة ، كان يريدها بكل صورة : بالاستمناء ، بالاغتصاب ، بالقتل ، بالخيانة ، بالتجريح ، وبأي ثمن .

حين ترك أحمد واقفًا قرب كشك جرائد ، وذهب إلى المبولة الكائنة في طرف شارع الأوديون ليبول ، وما إن فتح سحاب بنطلونه وأخذ يشخ ، حتى شعر براحة غريبة ، وبتنمل لذيذ يسري من رأسه بما يحيط أذنيه حتى أصابعه التي تمسك بقضيبه . لقد شعر بهدوء ساحر هبط عليه ، بنشوة كبرى أعظم بكثير من نشوة الفلسفة ، وهو ينظر من الحاجز الذي يحرس المبولة إلى حائط متهدم ، وبرج كنيسة قديم ، بينما طار سرب حمام من سطح في الواجهة ، لقد شعر بلذة كبيرة وهو ينفض القطرات الأخيرة من البول عن قضيبه في المبولة .

خرج مترنحًا ليلتحق بأحمد الذي كان بانتظاره قريبًا من الكشك ، وقد أزاح القلق والرهبة عنه ، كانت الغيوم تتبدد ، والشمس تخترق بأشعتها برك الماء الساكنة على الرصيف ، كان يسير وعيونه تتنقل بعفوية إلى واجهات البنايات ، إلى زهور الساحات ، إلى المقاهي الكائنة على الرصيف وقد انتشرت أمامها المظلات الملونة ، وأكشاك بيع الكتب وأسواق الخضرة ، والساعة الكائنة في رأس الشارع . كان العجب قد زال ، والرعب أيضًا ، وحلت هذه السعادة العتيقة التي غسلت بجدول من الماء كل وباء في نفسه . كان ينظر بفرح إلى الأبراج الكالحة المصبوغة ، بينما شارع السان جرمان دوبريه مثل مخمل ممتد أمامه ، أبواق السيارات التي تنفخ وتنزلق ، رنين الأجراس التي تقرع بمطارق صغيرة ، الأنوار الحمراء التي تشتعل أعلى البارات ، سكون الظهيرة ، وقد تدفقت النساء من الشوارع الخلفية وهن يرتدين قمصان النزهة ، وسيجارات بيضاء في أطراف أفواههن المصبوغة بالحمرة .

«سأصل إليها بواسطة سي معمر، أليس كذلك؟ صرخ الفيلسوف بوجه أحمد» .

«بالتأكيد» .

كانت قناعة الفيلسوف، وهي قناعة ثابتة على الدوام، بأنه لو استطاع أن يتقرب منها، حتى وإن كان بواسطة صديقها، فإنه سيفوز بها .

لم تكن تنقص الفيلسوف الغاية، إنما كانت تنقصه الوسيلة، كانت تنقصه اللحظة التي يستولي بها على قلبها، أما وسائل الاستيلاء فقد كانت جاهزة على الدوام، لم يكن بحاجة إلى شيء إلاّ أن تجلس أمامه أو تتنزه معه نزهة الغروب فوق الجسر الذي تطفو تحته قطع الثلج، أو أن يكون وحيدًا معها في حجرة، مع الموسيقى ورائحة القهوة تضوع في المكان، أو أن يراقبا زوجًا من البط يطفو على سطح بحيرة ساكنة، فيندفع نحوه بشريط من الكلمات التي لا تتوقف، ليعثر على مفاهيم في غاية التعقيد مثل : وجود، ماهية، آخرية، زمان، عبث، غثيان . . وأنها ستفتن به، ستفتن بهذا الفيلسوف الشرقي الذي قدم إلى باريس مسلحًا بفلسفة عملاقة، فحفظ قاموسًا فلسفيًا عن ظهر قلب، وهي القدرة الفائقة التي تنقص مواطنيها، وماذا تنتظر نادلة من حظها لو أنها كانت صديقة فيلسوف؟ حتى وإن سخرت منه مرة، فإنها ستندم، ستركع عند قدميه، وتقول إنها كانت جاهلة به، ولكن لو عرفت أنه تلميذ الفيلسوف، وأن الفيلسوف هو فيلسوف ونصّ، فإنها ستقترب منه، وستحبه وستكتشف الرباط الداخلي الرائع الذي كادت تحطمه نتيجة لخطئها بالطبع دون أن تلحظ ذلك .

«من يكون هذا الجزائري بالنسبة إلي؟» .

«لا شيء!» .

«إذن لماذا قبلت به صديقًا لها؟» قال الفيلسوف وقد عبّر بوجهه عن حيرته واستهجانه .

«ربما . . . لأنه يصرف عليها» . قال أحمد بشكل واثق .

«إن كان يصرف عليها ، فأنا سأنتشلها من مقهى فلور ، بل سأشتري لها المقهى» .

فلم يبق سوى شيء واحد كان على الفيلسوف أن يسأل عنه أحمد .

كان يريد أن يسأل ولكن حياءه أحرجه . . . فأخرج يده من جيبه ، ثم عدّل من نظارته على أنفه ، وأخذ يسير وهو يستعرض الجاذبية واللماحة والرشاقة لجسده الشاب ، وهي الأشياء التي كان يعتبرها الفيلسوف حجر الارتكاز في العلاقات بين الرجل والمرأة .

«هل سي معمر وسيم؟» ، وفي اللحظة ذاتها أطلق أحمد ضحكة في وجه الفيلسوف . ضحكة شبيهة بوحش كاسر يتهيأ للقفز .

«لا . . . لا . . . أبدًا . كنت رأيته مرات في الحي اللاتيني ، له وجه مضلع يشبه زجاج كونياك» .

كان هذا الاختبار قد حرره ، وأضحكه ، ملأ فمه بقهقهات سريعة أدت إلى التماع عينيه ، وأشعرته بالخفة والبهجة ، وسارعت من نبضات قلبه ، وجعلت خدوده تشتعل من حمى الانفعال .

«هل هو . . . بأناقتي؟» .

«مستحيل! خرق ملابسه . . خرق مثل خرق الكلوشار . يقولون عنه حشاش ، يقضي كل وقته مع النشالين والحشاشين والتنابلة» .

«ها عظيم!» صرخ عبدالرحمن ، وهما يدلفان إلى شارع صغير ، تقع خمارة (مونبيليه) في طرفه .

كان عبدالرحمن يتباهى بذكورته ، وشبابه ، وقوته . كان يسير بشكل مفتعل ، وهي يضحك أمام الشباب الفرنسيين المخنثين بأعضائهم الضامرة ،

والنساء بفروجهن المنكمشة .

وحينما جلسا في المقهى قرب لوح الزجاج العريض المطل على الشارع في زاوية كانت مخصصة من قبل للمراحيض ، على طاولة كانت معدة للأواني المتسخة ، جاءتهما النادلة السمينة التي تلبس ملابس ريفية تحت الصدرية الحمراء ، وضحكتها تكشف عن سنها الذهبية في زاوية الفم ، فطلبا كأسي بيرة ، لقد كان المكان يبعث على الحنين ، وكان شعور عبدالرحمن شعورًا شهوانيًا ، حكيمًا ، وفكهًا ، وكان أحمد واثقًا من الكلمات التي ينطق بها .

«ولكن بقي شيء واحد» .

«ما هو؟» .

«يقولون عنه إنه وجودي» قال أحمد .

«وجودي؟» قال الفيلسوف باستغراب وقد انزل من فمه كأس البيرة على الطاولة .

لقد هبطت هذه الجملة على عبدالرحمن كالصاعقة ، وبعد صمت قصير استدرك قائلاً بصوت متسائل :

«صحيح . . . هو يفهم بالوجودية؟ . . . كيف؟» .

صمت أحمد قليلاً ، وقد شحب وجهه . كان يحاول أن يخفف الصدمة على عبدالرحمن بابتسامة خائفة ، كان يريد أن يتحدث معه بهدوء بعيدًا عن المزحات الخرقاء ، وكان يشعر بخوف الفيلسوف الذي كان يرتد إلى أحشائه حتى قرقر بطنه من الرعب :

«لا أدري ، يقولون إنه يتناقش كثيرًا . . . ويقول عن نفسه بأنه وجودي» .

لقد ارتسمت علامات القلق على وجهه ، بينما كان الحقد يقرح شفتيه ، فيبللهما بين آونة وأخرى بكأس البيرة أمامه .

لم يكن الفيلسوف ضعيفًا على الإطلاق ، لقد كان يدرك بشكل قاطع في داخله أن سي معمر بإمكانه أن يفعل أي شيء إلاّ أن يحفظ قاموسًا من الكلمات الفلسفية عن ظهر قلب .

فلتكن وجوديته ما تكون ، إنه لن يكون سوى طريدة سهلة للفيلسوف ، ليكن من يكن هذا الحشاش ذو الوجه الشبيه بزجاجة الكونياك ، فما إن يجلس أمامه حتى يهبط عليه بجملة من التعريفات الفلسفية حتى وإن كان لا رابط بينها ، إلاّ أنه سيقلقه ، ويفاجئه ، ويكتسحه اكتساحًا كاملاً ، ولن يستطيع سي معمر قول أي شيء ، ستكون المفاجأة أعظم من استحضار شيء ليقوله ، وستفغر نادلة مقهى فلور فمها ، ستختض من البهجة والفرح ، وستنظر نحوه بعينين حنونتين ، ستندفع نحوه ، ستقول له :

(إنك فيلسوف حقًا . . . وإن كلامك الغامض لساحر) .

ستطرق رأسها قليلاً أمامه ، وستعرف الفرق بين فيلسوف وكلوشار ، ستميز بين هذه المعجزة التي لا تصدق ، وبين هذه النتيجة الرديئة لوضاعة عمله ، ستفرق بين الفيلسوف الحقيقي وبين مدعي الفلسفة ، وستنتبه للمرة الأولى إلى ثراء روحه ، وهدوئه القدري ، واستكانته . ستغرم بعينيه الحالمتين ، بعينيه الشبيهتين بعيون الأنبياء ، وستصغي لصوته الرسولي ، لصوته المبشر ، وستدرك جيدًا من جانب آخر ، أنه رجل حواسي ، رجل أكول ، متمتع ، وسيم ، أنيق ، شهواني ، جنسي وفلسفي .

«ماذا تريد نادلة أكثر من ذلك؟» صرخ الفيلسوف بوجه أحمد ، وهو يضرب على الطاولة ، حتى قفزت سيجارته بين أصابعه وسقطت على الأرض ، فارتعد أحمد للصوت المفاجىء الذي أحدثته الضربة ، فغطس عنقه فجأة في صدره ، ثم صعد مثل نابض ، واستدرك بسرعة :

«لا تحلم بنصفك» .

فقال عبدالرحمن بعد أن اغرورقت عيناه من الانفعال ، واحمر خداه من حمى الحب والانفعال :

«سأهبها النصف الآخر . . . صدقني كلي لها هدية» .

«كرم . . كرم حقيقي» . صرخ أحمد في وجهه ، ووضع كأس البير في فمه .

-٢٦-

لقد نجح أحمد بفضل كلامه الناعم ، وبمساعدة أفكاره الحيوية أن يتكفل بالموضوع ، وأن يقنع الفيلسوف بصحة أفكاره ، بمجاراته تارة ، وتملقه ومداهنته تارة أخرى ، فإن كان أحمد فاقدًا للأناقة وراحة البال ، فإن الكحول كانت كفيلة بأن تجعل من لكنته لكنة محببة ، لكنة مسرحية ، وأن تجعل من صوته الأجش التقليدي صوتًا مؤنسًا ومحببًا ، وأن تمنحه نبرة دافئة ، متملقة ، مقنعة كانت تضفي على الفكر - مهما كان تافهًا - أهمية .

لم يكن الفيلسوف فيلسوفًا من النوع التقليدي ، فيلسوف يذهب به خياله بعيداً ، ولا سيما بعد أن يثقل رأسه من السكر ، بل كان يفكر بالأمر بصورة سريعة .

«هل أمر هذا اللقاء سهل؟» .

«إنه أمر سهل ، وإن الطريق سهل ، وسيفرض الفيلسوف على الآخرين وجوده ، وسيغزوهم بسلطته ، لقد كان يتعلق بهذا الانتصار الخيالي الذي تدفعه إليه الحاجة ، تدفعه إلى الاستيلاء على نادلة فلور ، كي يقدم لها صورة واضحة ، صورة غير مشوشة ، وخالية من كل فضيحة ، خالية من كل سخرية ، بوساطة إذلال محاورية ، والثأر منهم ، من أجل أن ينتقم من الإنكار الشنيع الذي واجهته به أول مرة ، كان يريد أن ينتقم

حتى لو كان هذا الانتقام مؤسسًا على هذه الصورة غير الشريفة من أجل أن يصنع لنفسه كبرياء عظيمة ويداري في نفسه هذه الروح المصنوعة من إحساس مرهف ومجروح .

قال في نفسه :

«سيبتلع سي معمر الصنارة . . . ستكون الصداقة جسرًا لصداقة نادلة فلور» .

ضحك حتى لامس رأسه حافة الطاولة .

كان بخار الويسكي يعبق من فمه ، لم يكن يؤنبه ضميره ، ذلك لأن ضميره لم يكن ضميرًا عاديًا ، إنما هو ضمير فلسفي ، ضمير أماتته الفلسفة ، لم يكن يفكر كالناس العاديين ، الناس الذين يراعون الأشياء المصنوعة ، والموضوعة ، فأخذ طغيان نفسه يستبد به ، كان يريد أن يفرض أحكامه ، ويتمتع بجبروته ، بكلامه ، وبروحه :

«لا ليس صديقي . . .» ثم صمت قليلاً .

«طبعًا» . قال أحمد .

«إن أنا أتعرف إليه . . . فلا أتعرف إليه لسواد عيونه» .

«أبدًا» .

«إنما لسواد عيون نادلة مقهى فلور» .

- . . .

«أنا أتعرف إليه لغرض . الغرض هي غايتي ، لا صداقة كلوشار . هي غايتي . . . ليست غايتي صداقة شحاذ رأسه مضلع مثل زجاجة الكونياك» .

ثم أطرق رأسه قليلاً ولم يستطع أن يحمل رأسه فتدلى على صدره .

-٢٧-

خرجا من البار يترنحان فواجهتهما عاهرة فيليبينية لدى الباب ، ابتسم الفيلسوف لها ، فالتفتت إليه ، وفتحت أزرار معطفها الصوفي الأسود ، وهي تضحك ، كانت تنورتها القصيرة تكشف عن فخذيها السمراوين ، وصدرها النافر يبرز بصورة مثيرة .

«هل تأتين معي؟» قال الفيلسوف .

«نعم» وهي تضحك .

فأخذ بيده أحمد وهما يترنحان ، بينما العاهرة الفيليبينية كانت تضع يدها في جيبه ، واتفق مع أحمد على اللقاء غدًا ظهرًا في شقته .

-٢٨-

عاد عبدالرحمن مع العاهرة الفيليبينية السمراء إلى شقته . كانا يسيران يدًا بيد .

كان المطر يهطل بغزارة ، وباريس مبتلة .

قطرات تلمع وسط الليل الحالك على أضواء مصابيح السيارات وواجهات المحلات المضاءة .

كان الليل كابوسًا من الماء . الزخات تتلاحق وقطراتها تصطف بصورة سريعة متلاحقة ، بينما كانت برك الماء على الرصيف تلمع مثل قطع من البلور ، كلما مرت حافلة في الشارع المظلم .

عبدالرحمن يعود كل ليلة إلى شقته ثملاً ، بعد أن يقضي الليل في المواخير ، والحانات الممتلئة بالنيونات ، والسكارى ، والأصوات ، والدخان . يعود بصحبة عاهرة فرنسية ، إيطالية ، آسيوية ، لا يهم .

إن ليالي باريس قاسية ، كانت تشعره بالوحدة والعزلة ، فلم تكن شتائمه إلى الآخرين غضبًا فلسفيًا مجانيًا ، إنما كانت نبلاً يائسًا رافضًا ،

كان الفيلسوف يتعذب ، وكان عزاؤه : أن الفيلسوف لا يصنع إلاّ بالآلام والأحزان والمآسي . أين السكينة؟ أين الملجأ؟ الظهيرة تنقضي سريعًا في شتاءات باريس ، ثم يهبط الليل مثل كابوس من الماء ، أو كابوس من الثلج . لم يكن لعبد الرحمن غير الحانة ، والماخور ، وأحيانًا الشجار برفقة صديقه أحمد الذي غادر بغداد أوائل الخمسينيات ليدرس الهندسة ، وحين تركها لم يجد غير العراقيين الأغنياء القادمين إلى مدينة النور ، كان طيبًا ، ودودًا ، مسكينًا ولم تكن مطالبه تتعدى السيجارة ، وكأس البيرة ، أو الكونياك ، وسندويشًا بسيطًا ، ثم يقوم بكل ما تحتاج له في مدينة مثل مدينة باريس ، كان لا يعود في الليل إلاّ ثملاً ، يعود إلى نزل صغير في بوابة إيطاليا ، يضع المفتاح في الثقب ، ثم يدفع الباب بعنف ، يخلع حذاءه ويتمدد على السرير ، ثم يرفع الغطاء الرطب إلى وجهه ويصك البطانية بأسنانه وينام .

-٢٩-

في ضحى اليوم التالي كانت الشمس قد بزغت بين قطع الغيوم المتفرقة ، فنشرت شعاعها الطيفي على باريس الرطبة والمبللة بسبب أمطار الليلة الماضية .

دفع أحمد باب الشقة ١٣ في البناية الكائنة في (غي لوساك) فواجهته الآسيوية الخارجة على عجل دون ماكياج ، وفي يدها حقيبة ملابس الليل . قبلته لدى الباب وهي خارجة ، وحين دخل أحمد الحجرة رمى الصحف الصباحية على الكوميدينو الموضوع قرب سرير الفيلسوف الذي استيقظ توًا فمد يده ليتناولها ، ووضعها في حضنه ، وأخذ يقلبها (اللوموند ، لوفيغارو ، ليبيراسيون . . .) بينما أخذ أحمد يعد الفطور اللازم لشخصين . وحين انتهى من تقليب الصحف دخل الفيلسوف إلى الحمام ،

وبعـد لحظات ، بعـد وشـيش المغـسلة ، وسـحب سلسلة التـواليت التي شـفطت سكرة الليلة الفائتة ، بدأ التخطيط للتعرف إلى سي معمّر على طاولة الفطور .

كان الفيلسوف لا يريد أن يتنازل عن مكانته وهيبتـه ولا يرضى بأية وسيلة للتعارف ، سوى وسيلة تحفظ له كرامته وكبرياءه ، وتضمن له أمام الغريب هيبة الفيلسوف . فأصر أحمد الذي كان يجالس الجزائريين لفترة طويلة على أن الأمر لا يستحق كل هذه البروتوكولات ، ولا يتعدى الأمر سوى أن يذهب لسي معمر مباشرة ويقوله له :

«ما أخبار الوضع في الجزائر؟» .

«لا . . لا . . . أنا أريد طريقة فلسفية» قال الفيلسوف وقطب حاجبيه بصورة ممتعضة .

«عرفت أن لسي معمر صديقة جزائرية وصديقًا عراقيًا اسمه نادر» .

«دجـال . . . له صـديقـة جـزائرية . . عـرفت أنه دجـال» ثـم ضـحك ضحكة متقطعة وصفق بيديه قائلاً :

«مع ذلك أريد طريقة استثنائية للتعرف إليه ، أريد أن أقهره ، أريد أن اجتـاحه ، عليّ أن أسحقه من الوهلة الأولى . أنت تريدني أن أذهب إليه وأقول له أريد أن أتعرف إليك . . . هذا أمر مستحيل» .

أخذ يفكر بهدوء وقد وضع سبابته على صدغه . . .

في الواقع لـم يكن الفـيلسـوف يفكر حـينمـا يحـتـدم الأمـر ، على الإطلاق ، إنما كان في هذه الأوضاع يحلم . يحلم ، ولكن بطريقة فلسفية .

«لم لا تفكر معي بطريقة فلسفية . . . ها» .

«لأنك أنت الفـيلسـوف . . . لا أنا» قـال أحـمـد وقـد هزّ كـتـفـيـه باستغراب .

أطرق الفيلسـوف قليلاً وهو يفكر بالعثور على طريقة فلسـفية ، أطرق

قليلاً كي يحصل على طريقة رفيعة راقية ، طريقة تليق بمقامه ، وتتناسب مع مركزه ، وتضمن له لقاء يليق بمقامه الفلسفي ، ويحميه من التعرف بالعامة ، ومريدي الفلسفة وتابعيها دون السقوط بشراك التفسيرات الناقصة للتواضع والتنازل وفقدان الهيبة .

اهتدى بعد قليل من الوقت إلى طريقة كان أحمد قد طرحها عليه قبل قليل ، إلاّ أنه لم يوافق عليها أول الأمر ، ولم يأخذ بها ، ومن أجل ألاّ يسقط بالتناقض وسوء النية ، قام بإعدادها وتنظيمها بطريقة مغايرة وأسلوب مخالف :

(نذهب إلى الحي اللاتيني ، وأنت تطلب من سي معمر النقاش مع الفيلسوف العراقي في بعض أفكار سارتر) فقال أحمد :

«فكرة سديدة . . . الله الله على أفكارك يا فيلسوف» .

لقد تعود أحمد أن يجعل أفكاره تتطابق مع أفكار الفيلسوف كلمة كلمة ، لأن الفيلسوف لا يطيق الاختلاف حتى في الأمور البسيطة ، وهي سمة جيل بأكمله . فالاختلاف يعني إنكار الاعتراف ، والأخير يعني الشطب ، والشطب يعني الإهانة ، وبالتالي فالرد على الإهانة لن يكون إلاّ بإهانات لا تنتهي ، وشتائم لا حدود لها ، وربما يصل الأمر إلى الضرب واللكم والتصفية ، وأحمد لا مصلحة له بالدخول في مماحكات مع من يتولى أمره ويطعمه ، فهو لا فيلسوف ولا سياسي وربما لا إنسان حتى . كانت بغيته لا تتعدى البقاء على قيد الحياة . كان يريد أن يعيش حال الكلاب والقطط التي تتمسح بأقدام من يرمي لها عظمة . عظمة بلا لحم ولا شحم ، عظمة ، لا تملك إلاّ بخار الشحم واللحم ، وكان ما يلعقه يكفيه ، لذا كانت أخطاء عبدالرحمن مصادقًا عليها سلفًا ، كان أحمد يوقعها ويتقبلها دون أدنى نقاش ، وحين يسقط عبدالرحمن بالفخ لم يكن أمامه إلاّ أن يلوم أحمد ، وما كان الأخير ليتضايق منه على الإطلاق ، إنما

كان يعترف بخطئه وذنبه ، ويطلب من الفيلسوف أن يغفر له ، أن يغفر خطأ إنسان عامي غبي . . . عادي لم يهبه الله نعمة الفلسفة .

في الظهيرة خرج الاثنان من شقة (غي لوسك) قاصدين الحي اللاتيني بحثًا عن سي معمر . لم يكن سي معمر في نظر الفيلسوف سوى شخص مضطرب ، حشاش ، متهاون ، متهور ، شهواني ، داعر ، عاصف ومفكر .

كان يخترق الزحام ، ومع ذلك كان يشعر بنفسه مستوحدًا ، كان الإحساس بالوحدة والانعزال يقويه ، فيسير بثبات وقوة بوجهه الشاحب ، وأنفه المحمر من البرد ، ليقطع الطريق المبلط والمزدحم بالمظلات عند بداية الحي اللاتيني ، يتطلع إلى الناس من هضبة عالية حيث الطاولات منتشرة على الرصيف ، وقد نصبت فوقها المظلات التي تحجب الشمس . الشمس أخذت تسطع بقوة بعد أن اختفت الغيوم تمامًا في الظهيرة المشمسة الهادئة ، وكان الهواء يعبث بشعر الفتيات وهن يسرن بهدوء يحملن الكتب . كانت تتناهى إلى أذنيه أحاديث الغرام المختلفة ، كان يستمع إلى كركرات من الضحك المتقطع ، يستمع إلى أحاديث الفلسفة المفكرة ، وأحاديث السياسة العاتية ، وهو يتنقل بين المقاهي والمطاعم التي نشرت على الشارع الطاولات والمقاعد ذات الجلد المريح . وهنالك جوقة موسيقية كانت تعزف للطاعمين أنغامًا ناعمة . هناك مكتبات كبيرة تضع على واجهاتها الكتب الحديثة ، ومحلات الزهور بنباتاتها اليافعة ومياهها الساجية في الأحواض ، كان يستمع إلى أنغام ناعمة تنبعث من مصدر مجهول ، وربما من غرامفون صغير على هيئة حقيبة يد تديره عاشقة لحبيبها تحت مظلة محنية ، محلات بيع السجائر ، بيع القداحات والأقلام ، كابينات التلفون ، والبوستكارتات الملونة ملصقة على أعمدة الشوارع .

كان عبدالرحمن يتبع أحمد الذي يتنقل من مقهى إلى مقهى ، من طاولة إلى طاولة ، باحثًا عن معمر الجزائري صديق نادلة فلور .

فجأة ، عند مقهى صيفي كائن على الرصيف أمام طاولة برتقالية اللون ، ومظلة كبيرة ، عثر أحمد على سي معمر جالسًا مع بعض الجزائريين ، بينهم فتاة وإلى يمينه صديقه العراقي نادر . فالتمعت عيناه . نظر إلى عبدالرحمن . وأشار بإصبعه باتجاه سي معمر ، نظر عبدالرحمن مباشرة إلى بروفيل يشي بأنه جزائري ، الوجه المعروق ، الشعر الأجعد الذي يشبه خليط الفلفل والملح يحيط بصلعة خفيفة ، الأنف الأفطس ، الشارب الموضوع بدقة على الفم الرقيق الشفاه .

جلس الاثنان على طاولة قريبة . وحين نظر الفيلسوف إزاءه بعمق ، ارتاع ، وأخذ قلبه يضرب بضربات متسارعة بقوة ، أخذت يداه ترتجفان ، وعيناه احمرتا قليلاً ، واكتستا بطبقة رقيقة من الدموع ، بينما أخذت أنفاسه تتصاعد .

«ماذا نفعل؟» قال بصوت خفيض لأحمد الذي لا يدري ماذا يفعل ، إنما بقيت عيناه مصوبتين تجاه الفيلسوف ، وقد فغر فمه متعجبًا :

«نغادر المان» قال الفيلسوف .

«بعد أن قطعنا كل هذه المسافة؟» .

«والله ما أدري ولكن لنسترح قليلاً» قال الفيلسوف وهو خائف .

في الواقع كان عبدالرحمن ضعيف الشخصية على نحو ما ، فلم يكن الفيلسوف بحاجة إلى شخصية قوية كما هي حاجته إلى ذهنية قوية ، إلى خلفية فلسفية قوية ، وبعد نظر . لم تكن الشخصية عنصرًا من عناصر تكوين النظر الفلسفي ، أو الرؤية الفلسفية على الإطلاق ، لأن الشخصية تصنعها ظروف خارجية ، ظروف اجتماعية ، ظروف اقتصادية ، وتجارب خارجية ، لا داخلية . غير أن الفلسفة بحاجة إلى هذا الهاجس الداخلي ،

بحاجة إلى الشعور بخراب الخارج ، ولذا نجد الفيلسوف على الدوام محرومًا من الخارج ، محتقرًا له ، ولا يهتم به ، لا يعبأ بما يكون عليه . لذا كانت شخصية عبدالرحمن في واقع الأمر مصنوعة من الداخل لا من الخارج ، وهذا ما يدعم نظره وفكره الفلسفي أكثر مما يضعفه ، هذا ما يجعله أكثر التصاقًا بنفسه ، أكثر خوفًا من الآخر ، أكثر خشية منه ، ربما هذا الضعف ذاته الذي يجعله أقل مبادرة مع النساء ، كما هو الحال مع الرجال ، وإن كان يؤلمه هذا الأمر ، إلاّ أنه في الوقت ذاته يريحه ، كان يرى هؤلاء الأوباش النائمين في المحطات ، والسكارى في المواخير ، والشحاذين على الأرصفة أكثر قوة منه باختراق الآخر ،لكنه يدرك جيدًا أن الفلسفة هي التي تحرمه من هذا الاندفاع ، من هذا الاختراق الذي هو بأمسّ الحاجة إليه . وفي الوقت ذاته كان شعوره بأنه فيلسوف يريحه ، لأن الفيلسوف لاحاجة له إلى قوة الشخصية ، لا حاجة له للاندفاع والاختراق ، كانت عدم الثقة هي التي تسيطر عليه بيد أنه ما إن يستعيد التفكير بنفسه حتى تأتيه قوة مفاجئة لا يعرف مصدرها تضعه في الغالب في مواقف متناقضة ومضحكة ، وهذا ما يجعلهُ يندم :

«من هذا الكلوشار حتى أضعف أمامه» قال لأحمد .

«طبعًا . . . طبعًا . . .» قال أحمد وقد تسرب إليه الخوف بسبب خوف الفيلسوف . «هل أذهب إليه» .

«لا . . . لا . . . انتظر قليلاً» قال الفيلسوف .

ثم صمت بعض الوقت وهو يقلب صحيفة على الطاولة . كان بحاجة إلى قوة هائلة ليتخذ قرارًا . وما كانت هذه القوة تأتيه عبثًا ، كان أحمد ينتظر جوابًا منه . جوابًا سريعًا يحسم الأمر . وحين انفجر معمر بضحكة أمام أصدقائه ، رجع عبدالرحمن من على كرسيه إلى الخلف ، ثم رفع رأسه وأشار إلى أحمد .

«اذهب إليـه . . . وقل له إن فـيلسـوف الوجـودية العـراقي يريد أن يتناقش معك في بعض الأمور الوجودية في الجزائر» . قام أحمـد بسرعة هائلة عن الطاولة ، وخطا خطوات سريعة نحو طاولة سي معمر ، ثم أحنى رأسه أمامه وتكلم بصوت مهموس ، فانفجر سي معمر ونادر العراقي بالضحك .

كان عبدالرحمن يراقب الأمر وقلبهُ يضرب بقوة .

عاد أحمد مضطربًا مهزوزًا متعثرًا ، وجلس مباشرة أمام الفيلسوف الذي لا يعرف ما حدث ، جلس حائرًا وهو ينظر بحيرة في عينيه لا يعرف ما يقول .

«لنهرب» قال أحمد .

«ماذا؟» قال عبدالرحمن وقد اتسعت حدقتاه .

«أقول لك . . . نهرب» .

«لماذا» قال الفيلسوف متعجبًا «ماذا قال لك؟» .

«سخر مني . . .» قال أحمد .

«قال لي ليذهب إلى سارتر ويناقشه» قالها بصوت مرتجف وهو يتعجل الهرب . فاندهش عبدالرحمن واهتز ، أخذت يداه ترتعشان وشعر بخجل هزّه من الأعماق . لقد شعر لحظتها بأسى لم يكن يشعر به يومًا ما ، لا لأن هذا الكلوشار الجزائري أهانه وسخر منه ومن فلسفته فحسب ، إنما لأن فرصة متاحة ، فرصة لا تعوض قد فاتته ، وبذلك لن يستطيع الوصول إلى نادلة مقهى فلور ، فنظر إلى أحمد نظرة غضب وعنف ، لأنه لم يجد الكلمات الفرنسية اللازمة لأداء هذه المهمة ، أو ربما أخطأ بالعبارة ولم يستطع أن يضعها بموقعها اللازم ، ومع أن أحمد لم يرتكب كل هذه الحماقات ، إنما قلب العبارة العربية التي نطق بها عبدالرحمن بالفرنسية مباشرة . قال للفيلسوف بصوت يائس :

«نعم . كان ذنبي ، اغفر لي . . .» وبين لحظات التعنيف والندم واللوم ، اقترب سي معمر ونادر العراقي من طاولة الفيلسوف ، وتكلم نادر باللكنة العراقية :

«أنتم عراقيين» .

«نعم» قال أحمد بينما هبط على عبدالرحمن هدوء بارد أثلجهُ . «هذا سي معمر وأنا نادر ، طالب عراقي» وجلسا قبالة أحمد والفيلسوف الذي أخذ ينظر نحو سي معمر بقلق . . . فأراد سي معمر أن يكسر القلق والإحباط لدى الفيلسوف فبادره بالسؤال :

«منذ متى أنت في باريس؟» .

«منذ ثلاثة أعوام» قال عبدالرحمن .

لم يكن لدى عبدالرحمن الرغبة بالحديث فلسفيًا مع سي معمر أمام نادر ، بل كان يدخر هذا الأمر الفلسفي إلى يوم آخر ، إلى يوم تجلس فيه صديقته ، ثم يريه ما معنى أن يكون المرء فيلسوفًا ، لهذا تحدث بحديث بعيد وبسيط لكي لا ينبهه إلى ما في نفسه ، وقد كان نادر إلى جانب معمر بسيطًا في غاية البساطة وطيبًا ، إلاّ أنه لم يمهل عبدالرحمن فرصة إخفاء فلسفته ، فبادره :

«هل أنت وجودي» .

«نعم أنا وجودي . وأنتم؟» .

«لا . . . لا . . . أبدًا» قال نادر ، بينما ابتسم سي معمر وقال :

«هذا يتعلق بفهم كل واحد منا للوجودية» . ثم تناول علبة سجائره ووضع سيجارة في فمه وأخذ يشعلها ، ولم يقدم لعبد الرحمن كعادة الجزائريين ، فأخرج عبدالرحمن علبة سجائره من جيب معطفه ، وناول أحمد سيجارة ثم التفت إلى نادر ليقدم له سيجارة ، إلاّ أن الآخر أعلمه أنه لا يدخن .

نظر سي معمر إلى عبدالرحمن وسأله :

«ماذا تعني الوجودية نسبة لك؟» .

وهنا كان جواب عبدالرحمن جوابًا حاضرًا وباللغة الفرنسية ، كان يدخر تعريفًا حفظه عن ظهر قلب ، أخذه من أعظم الموسوعات الفلسفية في زمنه ، وأثمنها ، لقد انطلق أمامهم دون تردد ، دون أي حاجز يصده ، دون أن يشعر بالاضطراب والتناقض والتلكؤ ، كان تعريفًا جامعًا مانعًا للوجودية .

رجع إلى الوراء وأغمض عينيه نصف إغماضة ، بلل شفتيه بلسانه الأحمر الطويل ، وبعد أن أخذ نفسًا عميقًا انطلق جوابه :

«الوجودية هي النزعة التي تعادي النظر المجرد الذي يطمس في الحياة العملية حالات التباين وعدم الاطراد ، ويتخذ هذا العداء (سحب نفسًا عميقًا) صورة التحليل الذاتي العميق وتنادي بأولوية الوجود على الماهية ، لذا تقف موقف تحيز للجزئي والعيني (سحب نفسًا خفيفًا) ضد أية محاولة يراد بها التماس مبدأ كلي تندرج تحته الأفعال جميعًا حيث يرى الفيلسوف الوجودي عطفًا على مذهب يؤكد أولوية العقل العملي على العقل النظري . . .» .

وقبل أن يلتقط أنفاسه من هذا التعريف المذهل للفلسفة الوجودية ، انفجر سي معمر ونادر بضحكات متواصلة مجلجلة ، وقد اغرورقت عيونهم بالدموع ، كان نادر يمسك بطنه بيده ويضحك بأعلى صوته ، بينما كان عبدالرحمن وأحمد صامتين ، منذهلين أمام حماقة هؤلاء الناس . فلماذا يضحك هذان الأحمقان على تعريف موضوع في أعظم وأثمن الموسوعات الفلسفية في فرنسا هي «موسوعة لاروس» الفلسفية؟ .

«عفوًا . . . عفوًا يا صديقي أنا لا أفهم بهذه الفلسفة على الإطلاق . أنا رجل على الأرض . أنا رجل عابث متراخٍ ، منغمس بالملذات . حشاش

تقدر تقول ، أحب الكسل . هذه فلسفتي» .

فطس عبدالرحمن وأحمد من الضحك ، وأخذ عبدالرحمن يفتعل ضحكة عالية وهو يضع يده على بطنه ، بينما أخذ أحمد يقلده وهما يهزان بأيديهما (وي . . . وي) .

«عفوًا . . . عفوًا سي معمر ، ولكن أتسمي هذه الأشياء التافهة فلسفة؟ هذه أشياء كل واحد يقدر يسويها . . هذا أحمد الذي لا يفهم شيئًا يقدر يسويها» .

«لمَ لا . . . فلسفة تقوم على فن العيش على الكسل» قال سي معمر .

«الكسل . . . فلسفة؟» قال عبدالرحمن وهو يضحك .

«نعم . . . أنا لا أعمل . . . أنا أعيش على مال صديقتي . أنا طفيلي أعيش على دم الآخرين . هذه فلسفتي في الحياة» .

«وهل تفخر بذلك؟» قال أحمد .

وهنا التفت عبدالرحمن إلى سي معمر قائلاً :

«هذا أحمد يعيش على مالي ولكنه لا يفخر» ففزَّ أحمد خجلاً .

ضحك سي معمر والتفت إلى نادر :

«لمَ لا؟ أنا أفخر بذلك . الاستعمار يعيش على دم الشعوب التي يستعبدها . أنا أرفضه . أنا لا أضع نفسي تحت تصرفه . أنا لا أساهم في الحياة على الإطلاق إنما جئت هنا لأعيش على نساء المستعمر . لذلك أنا مرتاح . هم يركبون رجالنا هناك ، وحنا نركب نساءهم هنا» فضحك نادر ضحكة خافتة .

«أنت درست الفلسفة في الجامعة هنا في باريس؟» قال عبدالرحمن .

«لا ، كنت درست الأدب . ولم أكمل دراستي ، اكتشفته كذبة فظيعة فبطلت . هذه وقائع مزيفة ، صدقني» .

«ما هي؟» .

«الأدب . . . الفلسفة هذي وقائع مزيفة ، أنشأها الذين يملكون القوة ، والذين يمتلكون الثروة . أنا لا يهمني الأدب ولا الفلسفة» قال سي معمر وهو ينفث الدخان إلى الأعلى .

«ومن يهمك؟» قال عبدالرحمن بصوت واثق .

«المشعوذون . . . المبعدون» فقاطعه نادر قائلاً :

«ببساطة ذولة الحكماء النايمين في المواخير على ضباب الحشيشة» وأخذ يضحك بصوت عال ، متجاوبًا مع ضحكته أحمد مباشرة .

«وهل تعتبرون هذه الأمور فلسفة» قال عبدالرحمن وهو يصر على هذا الأمر .

«هذه مقاومة سلبية» قاد نادر ، فأخذ عبدالرحمن يهز يده .

«أين تسكن؟» قال عبدالرحمن .

«أنا أسكن قرب سوق ديبوسي ، عندي حجرة تطل على السوق ، أنام وسط الزعيق ، زعيق بائعي الخضرة والدجاج المشوي والفواكه . . . هذا المكان أحبه لأنه يذكرني بالأسواق الشعبية في البلاد العربية» .

وبعد صمت قليل جاءتهم صديقتهم الجزائرية وسلمت عليهم :

«بونجور . . . لا باس» قالت بصوت أجش يشبه صوت رجل خارج من الحمام .

«وي» قال عبدالرحمن .

«أقدم لكم صديقتي عيشة» قال سي معمر «أصدقاؤنا فلاسفة من العراق» فامتعض عبدالرحمن من جملة سي معمر إذ عدها استهزاء .

ثم ذهب الثلاثة ، معمر ونادر وعيشة . لقد تركوا عبدالرحمن وأحمد ينظر أحدهما بوجه الآخر .

في الواقع لم يكن الفيلسوف مهتمًا على الإطلاق بهذه التفاهات

التي تحدّث بها هذا الكلوشار وأطلق عليها فلسفة ، قال أحمد :

«هاي فلسفة هاي؟» .

لم يترك سي معمر من الانطباعات لدى الفيلسوف سوى انطباع واحد هو «السطحية» . فالفلسفة هي على الدوام فلسفة نظرية ، وإن كان يدرك جيدًا أن الوجودية تقوم على الجانب العملي ، إلاّ أنه يعرف جيدًا أن المجال النظري هو عنصرخالق ومؤسس . صحيح أن الوجودية قامت ضد التجريد ، لكن التجريد في الواقع يؤسس الفلسفة ، ولا تستطيع الوجودية أن ترفض التجريد إلا بواسطة التجريد ، فهي لا تقوم إلاّ على التجريد ، فهل يمكننا أن نعتبر عبدالرحمن مجردًا من كل فلسفة ، ومن ثم ماذا تعني هذه الآراء التافهة التي يقوم بها كل النشالين والشحاذين واللصوص والمحششين دون أن تحتاج إلى قالب نظري أو تعبيري؟

«فخور هذا الحشاش بأفكاره؟» .

«سطحي» قال أحمد .

«تافه» قال عبدالرحمن .

لم يكن عبدالرحمن مهتمًا بشكل حقيقي بما كان يدلي به سي معمر ، إلاّ بما كان يفيده ويساعده في عملية الوصول إلى فتاة مقهى فلور .

هذا المحتال غير محتاج إلى نادلة طالما هو برفقة صديقة جزائرية ، لم تكن عجيزتها سيئة إلى هذا الحد ، وإن وجهها أصفر ويابس مثل النعال ، إلاّ أنه كان يفخر بمعرفتها ، فعلاقته مع نادلة فلور كما هو واضح كانت علاقة مصلحة ، علاقة طفيلية ، علاقة بعوضة بدم ، وبالرغم من جميع التلطيفات السياسية التي أسبغها سي معمر عليها ، إلاّ أنها علاقة ضعيفة ، علاقة ذكورة مقهورة بأنوثة يقف وراءها قاهر ، وليس للمقهور سوى أن يركب هذه الأنوثة ليشعر بأنه لطخ وجه القاهر بالطين .

إذن سيتخلى عنها سي معمر في النهاية وسيفوز بها هو دون تأنيب

ضمير .

وحين عاد إلى حجرته في «غي لوساك» تيقن عبدالرحمن بأن النتائج لم تكن كلها إيجابية . إلاّ أن الطريق المؤدي إلى فتاة فلور قد تمّ اختزاله ، وقد كانت الأحلام تساهم بشكل مباشر في تكثيف الأحداث ، ودمجها على نحو بطولي . وحين وضع الفيلسوف رأسه على الوسادة ، رأى غابة وشوارع وممرات يبلغ طولها ستين ميلاً ، رأى بحيرتين بينهما متنزهات وملاهي ، ثم تخيّل عربة حنطور تسير في ممرات الغابة ، فتمضي العربة ذات الجوادين في مسالك الغابة . بينما كان حوذيها البدين يثرثر بما يعرفه عن معالمها .

كان هنالك مبانٍ أنيقة متناثرة في أحضان الغابة ، وهنالك حمامات سباحة ، ومقاصير مختلفة ، هنالك أشجار باسقة وأغصان متعانقة ، وبحيرات ساجية . . وبعد ذلك أخذ يسير مع نادلة فلور في الغابة حيث استلقيا على بساط من الحشيش ، واسترخيا في الظل الغامق ، وهو يتحسس حز سروالها تحت تنورتها ، وكان أمامهما عازف كمان يتنقل بين الجالسين وهو يعزف ألحانًا مرحة .

التفت الفيلسوف إليها . كانت عيناها ذائبتين ، وشفتاها ترتجفان ، فمدت يدها إلى صدرها وجذبته نحوها بعد أن لصقت جسدها بجسده ، وأخذت تقبله قبلة عنيفة ، وهي تأخذها ثورات من الارتعاش والنشوة ، فذرق طائر كان على الشجرة ذرقًا ساخنًا ، هبط على عينه فمسحه ، إلاّ أن الطير ذرق مرة أخرى ، ومسحه ، وهولا يريد أن يكف عن تقبيلها ، إلاّ أن هذه المرة أخذ الذرق يتواصل بقوة ، فاستيقظ من نومه على قطرات ساخنة من حمام الشقة الكائنة فوق شقته ، حين فاضت ، فأخذ الماء يتسرب من السقف على سريره .

خرج من شقته وأغلق الباب بالمفتاح .

كان يسير بهدوء في شارع السان ميشيل ، وهو يعرف أن نشاطه لا يخونه ، طالما لم يكن المنبّه هو سبب مغادرته الفراش . فتمنى في تلك اللحظة أن ينسى ، ولكن كيف ينسى هذا الحدث الكبير؟ لم يكن قادرًا على إقناع نفسه ببذل محاولة جادة للتراجع عن حبه لنادلة فلور ، حتى وإن كانت معاملتها له جافة ، أو على الأقل كان يدرك أنها لم تكن تعامله معاملتها لسي معمر ، ولا لسارتر ، ولا للفلاسفة الآخرين الذين كان يترصدهم وهم يدخلون ويخرجون من المقهى . ومع أنه كان يدرك بشكل تام أن هذا الأمر كان من قبيل التحفظ ، وربما يرجع الأمر برمته إلى حسن التدبير ، أو أنه في أقل الأحوال كان من المهارات الغريزية التي تتمتع بها المرأة ، وبالتالي فإن لها العذر حتى وإن لم تكن النتائج على الدوام لصالحه .

صعد المترو متجهًا إلى شارع السان جرمان دوبريه ، وحين رأى تزاحم النساء والرجال على المقاعد ، شعر بنوع من الضيق ، وتورط في قليل من البذاءات التي خطأته ، لكنه أحسّ في داخله وهو يجلس على المقعد أن النزاعات التي قد تنشب بعد أن يصبح عشيقًا لنادلة فلور بإمكانها أن تغذي روحه الفلسفية ، وسيكون جلوسهما كل يوم في المقهى ، أو خارج المقهى ، لا يثير غيرة سي معمر حسب ، إنما سارتر أيضًا . وهذا ما أراحه وهو يراقب الناس الذين يصعدون ويهبطون من المترو في كل محطة .

هبط المترو واتجه إلى المقهى .

دفع الباب مترددًا أول الأمر ، كان سارتر يجلس على الطاولة ، وإلى جانبه سيمون دو بوفوار ، وثلاث صديقات . كان سارتر يتحدث بصوته القبيح الذي يشبه صوت ديك بيت الخضيري ، بينما وقفت نادلة مقهى

فلور خلف حاجز خشبي صغير قريب من الطاولة التي كان يجلس عليها سارتر ، فتقدم نحوها وهو يبتسم ، كان في داخله يقين ثابت أن سي معمر تحدث لها عنه ، وأنها بلا شك أعجبت به إعجابًا شديدًا ، فابتسمت له هذه الابتسامة التي لم تفكر بها نادلة فلور قط ، هذه الابتسامة قد حررته ، لقد شعر بأن الأمر مثلما توقع ، وأن نادلة مقهى فلور أغرمت به بشكل قاطع وسريع وفوري ، وعلى ضوء ما تحدث به سي معمر لها ، فزادت رغبته بها وهو يقف أمامها مضطربًا ، كانت شفتاها الحمراوان ، وخداها المتوردان بسبب دفء المكان ، وعيناها الزرقاوان اللتان تلصفان وصدرها النافر . . قد دوّخته .

سكت .

«تطلب شيئًا» : قالت بصوت فاتر ولم تكن الابتسامة فارقتها بعد .

«لا» قال بصوت خفيض بينما شعر بشيء ينتفض في لباسه انتفاضة حادة صغيرة مثل شحنة كهربائية تنبض وتختفي .

«لا . . . لا» قال وهو يبلع ريقه .

«حسن . . . بإمكانك أن تغادر» .

«ماذا؟» قال دون أن يقدر أو يبدي - بدافع بعيد الأمد - حركة امتعاض واحدة .

«إذا كنت تطلب شيئًا بإمكانك أن تجلس» .

«لا جئت أسأل عن سي معمر» قال وشعر بأن هذه الجملة كافية لتشجيع البرعم الصغير ليتحول إلى شجرة هائلة شبيهة بشجرة عيد الميلاد .

«أوه . . . لم يأتِ اليوم» ثم استدارت بصورة غنجة وسارت بصورة هادئة ، وهو ينظر إلى قوامها ، لقد هبطت كنزتها الصوفية الزرقاء الموبرة على عجيزتها المضغوطة بتنورة صوفية شكرية ، حتى استبان حزّ اللباس

واضحًا ، فشعر بانتفاضة أخرى في لباسه حادة وسريعة مثل شحنة كهربائية ، ومن جانب آخر شعر بمرارة في فمه ووخزة في قلبه طويلة الأمد .

إن شعور الارتياح كان قد زال تمامًا وهو يخرج من باب المقهى ، الذي دخل منه وما زال صوت سارتر القبيح يوخز الآذان .

سار في الشارع أمام صف من الأزهار المبللة ، وهو ينظر إلى النساء دون الرجال وهن يسرن بمعاطفهن المطرية البيض ، النظرات الثابتة ، الملامح الصارمة ، الخطوات التي تشبه خطوات جنود الحرس الملكي . أخذ نفسًا عميقًا وكزّ على أسنانه ، ثم أخذ يسير مثل الفرنسيين سيرًا عجلاً ، بينما كانت خطواته تزداد اتساعًا ، كان يشعر في نفسه حذرًا شديدًا . وفي نهاية الشارع الفرعي الذي يؤدي إلى شارع لو بارك دخل مقهى (لو جور) وأخذ لنفسه طاولة شاغرة ، جلس وطلب قهوة تركية ، ثم وضع في فمه سيجارة «غلواز» زرقاء ، وأخذ يفكر وهو يضع فنجان القهوة في فمه ، كانت القهوة فظيعة وخفيفة ولا تشبه أبدًا قهوة مقهى فلور ، وبعد أن أنهى قهوته أطفأ السيجارة في المنفضة التي أمامه ونهض ، أخرج محفظته من جيبه ، دفع الحساب وخرج .

-٣١-

أخذ يسير بسرعة هائلة ، كان يفكر بأشياء مختلفة ، كان يرى تعارفه مع سي معمر نوعًا آخر من خيباته ، نوعًا من الحقيقة البدهية القديمة المملولة ، هي القسمة بين ما أحبه ولا يحبني ، ولكن هذه البدهية هي الحقيقة ببساطة ، فإذا استطاع الفيلسوف أن يأخذ القاسم المشترك بين جميع من أحبوا سيدرك دون تفكير كبير! أنه نوع من التصور للحقيقة المشتركة المعبّر عنها في كل الاتجاهات ، وهي مثلث : الضمير ، الإثم ،

الجنس . إنه تعبير ضيق ومضلل ، إذا شاء ، ولذلك فإنه جعل من علاقته بها علاقة بنفسه ، وهو التصويب الهام للاعتقاد الشائع والخاطىء . إن الإثم يمكن محوه والضمير يمكن تناسيه ولكن الجنس هو المسؤولية التي يتأسس عليها كل شيء ، هو حاجة ، حاجته للأكل والإيمان الفلسفي والديني ، حاجته للتبول والتغوط . شيء نستهدفه ولكن لا يتحقق أبدًا ، إذن كيف يمكنه أن يستعيد الخط الأخير لهذا الجدال؟ (أن يرى سي معمر) ومن ثم يصطحبه هذا الأخير إلى مقهى فلور ، يجلسان ويتحادثان كصديقين قديمين ، ومن اللازم على سي معمر ألاّ يعامله بوصفه شيئًا مطموسًا ، أو منسيًا بل صديقًا هامًا ، وسيعرفه إلى النادلة ، وحينها سيقرر هو التفاصيل ، فالأمر سيفلت من الاثنين لا محالة ، وإن الرعشة الكهربائية التي يحسها في لباسه ، ستتحسسها هي في لباسها ، ومن ذلك الحين يأخذ الجنس دلالة فلسفية محورية لتغيير الحياة ، الخوف من الآخر ، الخوف من جسد الآخر ، وغرابته ستنتهي . سيكون الجسد معروفًا على السرير ، وليس هنالك من مكان لطرد هذا العنف المؤجل ، هذا العنف المؤخر ، سوى السرير ، ولن تكون له حاجة بعد إلى تدمير العالم ، ذلك لأنه يستطيع أن يفرغ هذا العنف بوساطة هذا المفهوم ، هذا المفهوم الذي يدرك جيدًا كيف يحسب حسابه ضمن علاقة يطلق الفيلسوف عليها الموقف ، وهي أكثر المواقف دramية ، بل أكثر من هذا ، إنه الموقف الجدي الجوهري والمحدد ، ومن المرعب أن يبقى مهملاً في نفسه هكذا . من المضحك بصفة خاصة ألاّ يكون سوى لحظة بسيطة ، وليس بإمكانه حتى اليوم أن يتغلب عليه ، ومن المؤسف ألاّ يحسم هذا الجدال المعذب ، وأن يرى نفسه ذلك المقصّر والمقذوف به وحيدًا في عالمه ، هل كان قلق نادلة فلور أقوى من قلق الموت ، الوجود ، المصير؟ لقد كان تواصله وإن كان هشًا وضعيفًا ، ولكنه لم يكن على الإطلاق مجهولاً أو سريًا أو غائبًا .

-٣٢-

سار عبدالرحمن حتى وصل ساحة إدوارد روستان . لم يكن يرغب بالعودة إلى منزله ، كانت مشاعره متناقضة ، لم يكن سعيدًا ، كما أنه لم يكن تعيسًا . كان يريد أن يذهب إلى الأوديون ، ويدخل السينما ليرى الأفلام الملونة التي أغرم بها منذ كان في بغداد ، سار متجاوزًا مواقف الترام ، إشارات المرور ، الإعلانات الضوئية ، والمناظر الجميلة التي تبهر عينيه حتى دخل السينما . وبعد انطفاء الأضواء سبح بوهج الشاشة والأصوات الجميلة المرغية ، والأحداث العاطفية حتى استرخى جسده تمامًا .

-٣٣-

خرج من السينما سار في الشارع ببطء ، وقد محا الضباب العالم من حوله . كان البرد قد خفّ من جرّاء اكتساح الضباب ، فالتف بمعطفه الثقيل ، وأخذ يسير في هذا الفراغ الليلي ، بينما كانت الأضواء تتساقط على وجهه وهو يسير وينظر نظرات متمعنة في المشاهد التي تدور حوله . كان يتحرك مبتعدًا وهو يقطع الشارع في الطريق إلى الأوديون . كان يفتح عينيه ويغلقهما ، ثم توقف أمام محل لبيع الهوت دوغ ، إذ كان الخبز مخوزقًا أمام البائعة . ضحك في نفسه وطلب سندويشًا بالخردل ، قال (في نفسه) : «مشهد وجودي» ، ثم ابتسم للبائعة التي أخذت تعد له السندويش :

«صمون مخوزق . . . أتعرفين هذا المشهد؟ يذكرني بالثورة الفرنسية ، حيث خوزق الثوار أنصار الملك» . ابتسمت البائعة وهي تلف السندويش بورق النشاف .

كان يسير وهو يأكل ، فرأى أحمد على الجانب الآخر من الشارع .

-«أحمد . . .» صرخ بأعلى صوته . فالتفت أحمد مندهشًا .

«وين إنت . . . بحثت عنك في كل مكان» وسارا معًا ، بينما أخرج عبدالرحمن علبة سجائره وهما يعبران ساحة روسطان .

«هل رأيت سي معمر» قالها وهو ينفث الدخان في الهواء .

«لا . . . - قال أحمد - ولكنني رأيت نادر» .

«أين . . .؟» .

«في الحي اللاتيني» .

«ألم يقل لك شيئًا عن سي معمر . . . أما رآه؟» .

«لا . . قال إنه لم يره وهو يبحث عنه» .

«لقد ذهبت إلى مقهى فلور . . ولم أجده» ثم صمت قليلاً .

داعبت الأحلام خياله واستغرق بصمت وهو يمعن في المناظر الليلية التي تحيط به ، وبعد أن عبرا الشارع الذي تتوسطه الأعشاب التفت إلى أحمد وقال :

«نذهب إليه . . . في ساحة فوج» .

«لا . . . غدًا أفضل» .

صمت . لم يكن الوقت متأخرًا ، فالمقاهي ما زالت مفتوحة الأبواب ، وحينما رأيا سهمًا يحمل كلمة (Bar) توجها بشكل لا شعوري دافعين الباب ودخلا .

كان المكان غارقًا بالظلام ما خلا بعض الضوء الشاحب ، وقد تصاعد ضجيج الحانة وضحك السكارى ، وكان الدخان يتصاعد من الأفواه . جلسا إلى طاولة الشراب ، أخذا زجاجة ويسكي وكأسين ، وأخذا يشربان وهما صامتان .

بعد ساعتين فقد كلاهما توازنه ، وحين خرجا من البار وجدا الضباب أكثر كثافة . كانا يترنحان بخطوات غير ثابتة حتى وصلا عطفة الشارع .

سارا مئة ياردة وتوقفا عند الرصيف . كانت الشوارع خالية . غير مأهولة تمامًا . وكانت الإنارة قد انطفأت تقريبًا في عموم شارع السان ميشيل . كان من الصعب عليهما قراءة اللافتات والإعلانات الضوئية . وحين وصلا إلى الرصيف استقل كل منهما تاكسي إلى منزله .

-٣٤-

في الضحى اندفع أحمد إلى حجرة عبدالرحمن :

«عبدالرحمن . . . عبدالرحمن . .» .

استيقظ عبدالرحمن مثل المخبول .

«شكو . . شكو» .

«رأيت نادر في الحي اللاتيني . . وقال لي شيئًا محزنًا» .

«بخصوص نادلة فلور . .؟» وهو يلهث .

«لا بخصوص . . سي معمر» .

«ما به؟» .

«قال إن له أخًا استشهد في الجزائر على يد الفرنسيين» .

«وهل سيغادر فرنسا؟» قال بهدوء .

«نعم» .

«عليه أن يناضل . لا يمكنه أن يكون وجوديًا دون نضال ، الوجودية التزام» ، وقد ابتهج في داخله من الخبر ، مع أنه كان يخفي هذا الابتهاج وراء مظهر من مظاهر الاهتمام المبالغ به . أو لنقل إنه نوع من الرصانة والحزن على مصيرين ، مصير الجزائر ومصير الوجودية من جهة أخرى . كانت الثورة تشتد ذلك العام ، والوجودية تميل شيئًا فشيئًا إلى صالح الثورة . وكان عبدالرحمن يزحف شيئًا فشيئًا نحو نادلة فلور . إذا غادر سي معمر باريس وذهب إلى الجزائر فستبقى نادلة فلور دون عشيق ، وسيذهب

إليها ليحل محل الثوري الجزائري . فالغرام إشغال الفراغ مهما كان هذا الشاغل ، فهي فرنسية ولن تبقى طويلاً دون عشيق .

«إنه يريدنا» قال أحمد .

«ماذا يريد منا؟» .

«لا أدري» قال أحمد ، وقد بدت ملامحه قلقة ومضطربة .

«من قال لك ذلك؟» قال عبدالرحمن وقد قطب حاجبيه .

«نادر العراقي» .

«ماذا قال؟» .

«قال إن سي معمر دعا أصدقاءه كلهم ، فرنسيين وعربًا إلى مقهى فلور . . . هذا اليوم . . ليتقبل منهم التعازي» .

لقد ابتهج عبدالرحمن ولم يستطع مقاومة هذا الخبر ، لقد شعر تلك اللحظة أن الحظ ابتسم له ، فابتسم للحظة وهو ينظر نحو الحائط الأبيض الذي يقابله . . . لماذا؟

في الواقع إنها فرصة كبيرة ، فرصة عظيمة لا تعوض بالنسبة إلى الفيلسوف . إن ذهابه إلى مقهى فلور لتعزية سي معمر الراحل بعد أيام إلى بلده تاركًا نادلة مقهى فلور دون عشيق فرصة عظيمة .

أولاً سيتعرف هو إليها من خلال صديقها ، ولم يحتاج بعد ذلك إلى لقاء للتعارف الأول ، هذا اللقاء الذي كلّفه كثيرًا ، حيث كان هنالك ألف حاجز يصعب اجتيازه بينهما . فاللحظة الأولى هي أصعب اللحظات ، إن استطاع أن يتقدم بعدها بخطوة أو قل بخطوتين سيكون الطريق سالكًا . ومن ثم سيتركها سي معمر وحيدة . ومن هنا ستخلق هذه الحالة فرصة أن يذهب ليتحدث معها . على الأقل ستكتشفه فإن اكتشفته هي ، ستتمسك به تمسك المؤمن برباط المسيحية .

«عظيم . . .» قال عبدالرحمن ونهض من مكانه .

«عظيم . . . عظيم . . . أتعرف أنها فرصتي التي لن أفوتها . .» .

شعر أحمد بتقزز في داخله إلاّ أنه سكت بعد أن زمّ شفتيه وابتعد قليلاً ليعدّ الطعام .

-٣٥-

في الساعة الثامنة ، مساء يوم الأربعاء ، دخل أحمد وعبدالرحمن مقهى فلور في شارع السان جرمان دوبريه . كان المطر على أشده وهو يتساقط على الزجاج العريض الصافي الذي يغطي جلّ جدار المقهى الخارجي . وما إن دخل كلاهما حتى خلعا معطفيهما المبللين تمامًا بالماء ، وعلقاهما على الحمالة الموجودة بجوار الباب .

كان المقهى شبه معتم ما خلا ضياء خفيفًا ينبعث بشكل كامد خلف سي معمر الواقف بجوار حافة البار ، وقد طفح وجهه بحمرة غامقة من أثر السكر . اغرورقت عيناه بالدموع ، كان يترنح بصورة متواصلة وتكاد قدماه لا تحملانه ، وضع يديه في جيوب معطفه الأسود الكالح ، بينما وقفت نادلة فلور إلى جانبه تحاول إسناده ، وهو يرفض . فهبط نادر العراقي من دكة خلفهما بسرعة وأمسك به من كتفه في محاولة يائسة منه لتهدئته .

كان المقهى الكبير شبه خالٍ . . الطاولات فارغة ، والكراسي ذات المساند والجلد الأحمر المنقوش موضوعة بإهمال ، وعند الزاوية البعيدة كان هنالك ثلاثة فرنسيين ، بينهم امرأة ، يشربون ويدخنون دون اكتراث . وعند الزاوية الأخرى لم يكن هنالك سوى صاحب المقهى الذي جلس خلف البار قبالة سي معمر الذي كان يترنح في الفسحة الفاصلة بين حاجز البار وكراسي المقهى .

كانت هنالك فتاتان فرنسيتان تقفان شاحبتين إلى جانب نادر وكان هنالك شاب فرنسي أشقر يرتدي معطفًا أسود طويلاً يقف على الدكة

ويرقب المشهد ، وقد احمر وجهه من الانفعال . في هذا المشهد ، هذا المشهد بالذات وقف الفيلسوف العراقي شاهدًا على أكبر صراع شهده القرن ، وفي المرحلة الأخيرة من تصفية أكبر مظهر من مظاهر الغرب هو الاستعمار .

وقف وهو لا يعرف على الإطلاق ما يجري في البار . فالتفت إلى أحمد بعد أن لكزه بقدمه قائلاً :

«شنو القضية؟» .

«لا أدري» قال أحمد وقد احمر وجهه من الخجل .

فزّ كلاهما على صوت ثمل متلو أطلقه سي معمر .

«اتركوني» .

«إتركوه - قال الفرنسي الأشقر بصوت حاد وواثق - إن لم يستطع حرق الغرب فعلى الأقل حرق ثقافته» .

«اتركوني» قال سي معمر وهو يكاد ينكفىء على وجهه ، ثم صار قبالة طاولة تحمل أكداسًا من الكتب ، أزاحها بذراعه فسقطت على الأرض . . . ثم خطا خطوات متعثرة نحو حاجز البار وتناول زجاجة من الكونياك موضوعة هناك قرب كأس فارغة ، كانت الزجاجة مملوءة إلى النصف ، فتح سدادتها بيده بقوة ورماها إلى الأعلى ، ثم صبَّ الزجاجة فوق الكتب حتى آخر قطرة فيها ، ومدّ يده في جيبه بتمهل وأخرج قداحة لمعت في الضوء المنبعث خلفه ، وأخذ يضحك بصوت عال .

«أيها الأخوان . . . أيها الأخوان . . . صفقوا . . . لقد انتهت المهزلة» قال بصوت ذائب وهو على حافة البكاء .

«هؤلاء . . . خدعة . . . جان جاك روسو . . . كذاب . . . سان سيمون . . . كذاب بكل يوتوبياته . . . كذاب داعر . . فولتير كذبة . . . موليير كذبة . . . برغسون . . . لقد خدعونا خدعونا . . . هذا الدجال الأكبر

سارتر هو الأخير كذبة . . . - أخذ يترنح بين الحاضرين وهو يضحك - سارتر كذاب إنه كذبة صغيرة من كذبات الاستعمار» .

ثم أشعل القداحة وقربها من الكتب التي سرعان ما سرى فيها اللهب ، والتهمتها النيران بسرعة محدثة صوت أزيز متسارع ومتقطع كانت نادلة فلور تقف خلفه حزينة واجمة وهو يعدد الأسماء «ألفرد دو موسيه» وحمله من الأرض ورماه في اللهب ، «مونتاني» حمله من الأرض ورماه في اللهب . . بينما أخذت ألسنة النار ترتفع وهي تتنقل من كتاب إلى كتاب ، وأخذت ظلالهم ترتسم على السقف وعلى الجدار . وقد بدا عبدالرحمن مثل شبح أحمر بعد أن انعكست ألسنة النار على وجهه .

كانت رواية «الغثيان» بعيدًا نوعًا ما على الأرض ، فضربها نادر بقدمه وقرّبها من اللهب .

وفي هذه اللحظة بالذات عدَّ الفيلسوف العراقي هذا الأمر اعتداء شخصيًا عليه ، فاندفع بقوة نحو الكتاب محاولاً تخليصه من النار ، فاحترقت يده فأخرج منديلاً أبيض من جيبه ، وأخذ يطفىء بها الكتاب وهو ينفخ ويشتم بسي معمر ونادر وبالحاضرين .

«لا . . . إلاّ هذا . . أحرقوا ما تشاؤون إلاّ سارتر . .» فاندفع نحو سي معمر محاولاً أن يلكمه بيده إلاّ أنه سقط على الأرض من أثر السكر ، فاندفع أحمد نحو نادر ولكمه على وجهه وهو يقول :

«أخ القحبة . . . أنت شعليك بكتاب سارتر» ثم تناول عبدالرحمن الكرسي القريب منه وقذف به الفرنسي الذي اختفى وراء البار .

خرج الاثنان وهما يركضان بعد أن انقذا رواية «الغثيان» شبه المحترقة ناسين معطفيهما في المقهى ، راكضين تحت وابل المطر الشديد في ليلة من أقسى ليالي باريس وأظلمها .

-٣٦-

عاد سي معمر إلى الجزائر . . وإن فرح الفيلسوف بهذا الخبر الذي نقله له يوم السبت أحمد في شقته في غي لوساك ، ظنًا منه أنه خلّف له فتاة مقهى فلور لينفرد بها وحده ، إلا أنه اكتشف صباح يوم الأحد أن فتاة مقهى فلور غادرت باريس لتلتحق بعشيقها إلى ا لجزائر .

ومنذ ذلك الحين شهدت حياة الفيلسوف نوعًا من القطيعة مع الماضي ، مسدلاً الستار على فصل هام من فصول حياته .

-٣٧-

من الواضح أن حبه لنادلة مقهى فلور قد أكسبه صلابة وقوة ، ولا سيما بعد رحيلها نهائيًا إلى الجزائر . لقد تحمل الفيلسوف هذه الصدمة بيسر ، لأن وجوديته كانت وجودية أصلية ، وجودية متجذرة في روحه وعقله معًا ، ولم تكن وجودية مكتسبة كحال معاصريه ، كحال الشعراء والفلاسفة والأدباء العرب الذين تأثروا بوجودية سهيل إدريس أو الوجودية التي نقلها عبدالرحمن بدوي عبر مجلة الكاتب .

وإن كان ثمة الكثير من الشائعات والأقاويل التي تحاول التقليل من شأن أصالته ، وعمق تجربته ، وحقيقة عبقريته ، إلا أن حياته المتقلبة والمتنوعة كانت تثبت عكس هذا الأمر تمامًا . ومن الأشياء المهمة التي يمكننا أن نجدها أثناء تدقيق حياته هي : طفولته ، فلا يمكننا الاستغناء عن طفولة الفيلسوف في البحث عن سيرة حياته ، وتدقيق مكامن القوة والعظمة في فلسفته ، هذه الفلسفة العملاقة التي أثرت في جيل كامل من معاصريه . إن المصدر الأساسي لفلسفته يكمن في طفولته . لقد كان وجوديًا منذ كان طفلاً وإن مظاهر الغثيان كانت متجذرة في روحه مذ حادثة تلصصه على حجرة والديه ، وهذا الأمر ينفي بشكل قاطع الشائعة

التي كانت تقول إن الفيلسوف تأثر برواية سهيل إدريس (الحي اللاتيني) . في الواقع ، لم يتأثر فيلسوف الوجودية العراقي برواية سهيل إدريس (الحي اللاتيني) ، وهي أول رواية وجودية صدرت في بيروت حينما كانت متروبول الثقافة العربية في العام ١٩٥٣ ، ولا بمجلة «الكاتب العربي» في القاهرة على الإطلاق ، كما أنه ليس هنالك من دليل واحد على أن الفيلسوف قد تأثر بكتابات عبدالله عبدالدايم وشاكر مصطفى وترجمات إميل شويري بشكل لا يقبل الجدل ، كما أخطأ الذين تصوروا أن مجلة «الآداب» هي التي صاغت رؤيته الوجودية ، كما أخطأ الذين تصوروا أن عبدالرحمن فيلسوف الصدرية كان قد تأثر بأستاذ عراقي قادم من باريس ، وألقى محاضرة عن الوجودية في العام ١٩٥١ في قاعة كلية الآداب .

في الواقع أن رواية سهيل إدريس بكل وجوديتها لا ترقى إلى الحياة العابثة المنحطة التي قادها فيلسوف الصدرية في الستينيات ، كما أن كتابات عبدالله عبدالدايم ورينيه حبشي في مجلة «الآداب» أوائل الخمسينيات عاجزة عن صياغة رؤية وجودية عميقة تناظر رؤية فيلسوف الصدرية ، أو تتوازى معها ، كما أن محاضرة الأستاذ ألبير نصري نادر في كلية الآداب لا يمكنها أن تكون مصدرًا لمن يقرأ سارتر بالفرنسية ، لا هي ، ولا ترجمات إميل شويري التي كان للفيلسوف تحفظات شديدة عليها وشكوك بفهم إميل للجملة الفرنسية ونقلها .

كان عبدالرحمن في واقع الأمر ، قد عثر مصادفة في مكتبة (جوزيف جوبير) في باريس على كتاب يتناول سيرة حياة سارتر ، حرره ثلاثة كتّاب فرنسيين مرموقين هم (فرانسوا برومبير ، جون أتاليه ، وجان شيفريون) . صدر هذا الكتاب في العام ١٩٥٥ ، أي في العام ذاته الذي غادر فيه الفيلسوف العراقي إلى باريس ليحضر شهادة الدكتوراة . ومن الجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان مزوّدًا بصور متنوعة للسيد سارتر ، وللسيد والده ،

وللسيدة والدته ، والسادة أخواله ، وجده ، وجدته ، كما هنالك أيضًا صور له في طفولته ، وللفلاسفة أصدقائه والذين هم من جيله .

لقد اكتشف الفيلسوف العراقي في هذا الكتاب المصور مايلي :

إن الفيلسوف الفرنسي يطابق ملامحه تمامًا ، فتصفيفة الشعر الفلسفية التي كان سارتر حريصًا عليها طوال حياته ، هي تصفيفة شعره ذاتها ، ووجهه يحمل الملامح ذاتها التي يحملها وجه الفيلسوف الفرنسي ، ما خلا النظارة والعين العوراء ، فإذا كانت النظارة البلاستيكية السوداء والعدسات المضببة مقدورًا عليها ، فإن العين العوراء ستظل سبب مشاعر النقص التي ألمّت بالفيلسوف طوال حياته .

كما أن السيد والد سارتر ، يشبه السيد أمين شوكت والد الفيلسوف تمامًا ، ما خلا السدارة والعصا والقبوط ، كما أن السيدة والدة الفيلسوف العراقي السيدة (منيرة الحافظ) كانت تشبه والدة سارتر كليًا ، وحتى خال سارتر فإنه يشبه خاله عبدالواحد شبه الغراب للغراب .

لقد صعق عبدالرحمن لهذ الحدث ، وأصابه الدوار ، وسقط من على الكرسي الذي كان يجلس عليه في شقته الباريسية ، لأنه أدرك بما لا يقبل الشك المهمة الموكلة إليه ، لقد أدرك أنه من عائلة الفلاسفة لا من عامة الناس ، وأنه مجبول على الأفكار لا على العمل ، وأنه هو لا غيره الذي سيحمل هذا الفكر إلى وطنه .

لقد هزته هذه الحادثة هزًا عميقًا فسقط مغشيًا عليه ، وتدحرج على بلاطات حجرته .

لقد قادته هذه التصاوير إلى ولائه المطلق لدين الفلسفة وعبادة الفيلسوف ، وقد توافقت هذه المشاعر مع الصور الاستيهامية التي كان يستحضرها في طفولته ومراهقته ، حينما كان لا ينظر إلى والديه إلاّ بوصفهما الإلهين العظيمين ، الإلهين الجبارين اللذين يتمتعان بالوسامة

والنقاوة والبطولة والثراء ، وهما اللذان يرعيان طفولته وضعفه ونرجسيته ، كانا يرعيانه ليشب ويتمكن من مقاومة ما يهدده في الخارج . ولكن ما إن بدأت رعاية والديه بالتراخي والتماهل والضعف ، حتى اكتشف بصورة لا يدانيها الشك أن هذين الأبوين لم يكونا كما تصورهما ، إنما هنالك آلهة أكثر جمالاً وأكثر بطولة وأكثر ثراء . فقد شعر وكأنه سقط من مكانه العالي ، لقد اكتشف أن هذا الحب ، الحب العائلي ، لم يكن سوى مشروع خداع رهيب ، وكان نزاعه الأول لا يحسم إلاّ بالأفكار ، أو بما هو أسوأ ، بالخواء . ولذلك اختلق عبدالرحمن لنفسه أسطورة فحواها أنه لم يكن ابنًا لهذين الشخصين إنما هو طفل مجلوب ، من عائلة مجهولة ، من عائلة أكثر نقاء من مربيه وأعظم نبلاً من راعيه ، وأن هذه المرأة التي تتظاهر بالحب وتحاول أن تغطيه وهو نائم في الليالي الشتائية الباردة لم تكن أمه ، إنما متبنية له . وأن هذا الرجل لا يمتّ لوالده بصلة ، أو أنه لا يعدو أن يكون طفلاً لقيطًا . فانفتح بذلك لعبد الرحمن عالم الأحلام ، انفتح له عالم القصص الغرائبية والمقابرية والتي جعلته يشدد على حياته الخاصة وعلى فكرة وجوده بالزعيق والصراخ في أدوار المنزل ، والكذبات الغامضة والأوامر النهائية ، والتي نقلت إليه إلى الأبد عدم الرضا وعدم الإشباع ، ومحاولات امتصاص كل الملذات بحواسه وروحه من خلال مصة واحدة .

لم يكتشف الفيلسوف حينما كان صغيرًا هذه الحقيقة إلاّ بعد أن أدرك حقيقة العلاقة بين والده ووالدته ، حينما تلصص عليهما مرة في حجرة نومهما . وحين بدأ يدرك دور والديه ، أصبح دور والدته مؤكدًا لكن دور والده أصبح إشكاليًا ، وقد أورثه هذا الأمر مذ كان طفلاً غثيانًا أصليًا .

إذًا ، لم تكن الوجودية لديه وجودية تعلم ، إنما كانت الوجودية كامنة في عبدالرحمن منذ الأبد ، كنت وجودية خالصة ، وجودية متحققة في التفاصيل الأكثر حميمية في حياته .

لقد كره عبدالرحمن أمه كرهًا لا صفح عنه ، كرهًا يكشف عن نفسه بصورة من صور العشق بالمحرمات . ويتفاقم هذا الكره في ظروف القسوة والعنف ، لقد كانت أمه أشد الكائنات رقة وأقربها إلى ذاته ، كانت أشد المخلوقات عجائبية ، إلاّ أنه كان قد انتزعها من طبيعتها الهادئة الحميمية عنف ابنها وحبه الشنيع لإيلام نفسه وتعذيبها . كان يريد أن يقف أمامها متألمًا متعذبًا ، وكان يرى كل يوم في حلمه أن أمه تعذبه لتنتزع الاعتراف منه ، لأنه يتلصص عليها في حجرة نومها ، ثم تقطع رأسه وتسحله وتمزق جسده ، أو تقوم برميه من فوق صخرة .

كانت جريمته جريمة مجهولة ، لأنه لا يعرف بها أحد سواه وبعض الخدم الذين انتزعوه من الوحول ، بعد أن هرب من المنزل منتصف ليلة ماطرة . ومنذ ذلك اليوم بدأت كراهيته لأمه وأبيه تتزايد ، لم يكن يريد أن يشعر أنه ثمرة اتحاد قائم على الإثم ، ومتأصل بالدم ، وأنه فاسد ومثير للاشمئزاز إلى الأبد . ومن المؤكد أن رؤية أمه وأبيه مطروحين على الفراش في حجرة النوم كانت تتطابق لديه مع الزنى الحقيقي بالمحرمات ، وحين كان يمر بالربل برفقة والده من حارة التوراة التي يقطنها اليهود في بغداد كانت تهيمن عليه فكرة فحواها أن أباه جاء به هنا ليرميه إلى مصاصي الدماء في الحارة القذرة الوسخة والمغلقة ، حيث يتعايش فيها آلاف اليهود في شوارع ضيّقة ملتفة على نفسها . وكان يشم رائحة العفن الداخلي والتفسخ ، رائحة الحفر المملوءة بالدم الرائب والكروش والمصارين ، كان يشم رائحة شبيهة برائحة الجنس التي انبعثت من شق الباب يوم تلصص على أمه في حجرة نومها .

حملته أمه في ليلة تشرينية ماطرة عنوة إلى سريره ، وغطته بالملاحف والبطانيات ، ثم حكت له قصة السعالي التي تظهر في صالة المنزل ليلاً . كانت تحاول إقناعه بكل الوسائل أن ينام ، كانت تمنيه بوعود في الصباح ، إلاّ أنه أدرك أن ما يدور في خلد أمه هو شيء آخر ، أدرك أنها على عجلة لأمر آخر غير نومه ، وكان ينظر إلى بريق عينيها الذي يلصف وقسمات وجهها وهي تكذب . . . فتظاهر أمامها بالنوم . خمد جسده دون حراك ، فذهبت مسرعة إلى حجرتها بعد أن أطفأت الأنوار ، إلاّ أنه تململ في فراشه ، ثم وضع طاقية النوم القطنية على رأسه وخرج من حجرته ليقف أمام حجرتها ، ويداه في جيبي بيجامته وقدماه حافيتان تتحسسان برودة البلاط .

كان جسد أمه العادي يتحرك على السرير ، وصدرها الناتىء معصورًا في يد والده ، كان جسداهما يتلامسان بعنف ، فانتابه اشمئزاز مريع ، كان يقف غير مصدق ما يرى ، كان يسمع صوت أمه كريهًا وهي تتأوه ، فيخنقه ويصمّ أذنيه حتى تولد لديه نوع من الهستيريا . هستيريا كان يحسها بقوة في رأسه وقدميه ويديه .

هبط السلم راكضًا نحو الباب الخارجي وفتحه بعنوة وهو يصرخ . أخذ يركض في هروب ليلي عبر البساتين المحيطة بالمنزل المنيف . كانت صورة أمه تتلاحق في ذهنه ، وقد سقطت هذه المظاهر البريئة الخداعة عن وجهها . كانت تنفجر أمامه مثل الدمامل . كان هاربًا من مشهد الشيطان ورأس البغي على كتفه ، حتى سقط في الوحول ، بينا كان حراس المنزل وخدمه يتبعون أثره في الشوارع الموحلة ، فحملوه على أكتافهم وهو يقطر طينًا وماء . . وأعادوه إلى المنزل .

وفي الصباح كان الثلاثة على مائدة الإفطار ، تحاشت الأم أن تلتقي

نظراتها بنظراته ، تحاشت الكلام أمامه ، وتجاهلت ما حدث في الليل .

حين غادر الوالد مبكرًا إلى البرلمان بقيت طوال النهار في الصالة المشمسة ، إلاّ أن عبدالرحمن لم يقترب منها على الإطلاق ، ولم يكلمها ، استمرت هذه المجافاة والإنكار أسبوعًا كاملاً .

أخذ الهزال يدب في جسده سريعًا ، وحالة الغثيان كان مستمرة كلما تذكر المشهد المروع الذي رآه ذلك اليوم منتصف الليل ، كانت السيدة (منيرة الحافظ) تهبط السلم إلى الصالة فتراه جالسًا على الأريكة عند النافذة يرقب الأشجار الكثة في الحديقة ، تقترب منه ، شعرها الأشقر المرفوع إلى الأعلى ، وجهها الأبيض الصافي ، عنقها الجميل ، وملابسها الشتوية الملونة ، فيغادر الصبي الصالة سريعًا إلى حجرته .

في مساء الجمعة لم تطق صبرًا على مقاطعة ابنها لها .

صعدت السلم نحو حجرته ، ترددت - أول الأمر - ثم دخلت . كانت الحجرة مظلمة ، والستائر مسدلة . أنارت الحجرة إلاّ أنه لم يتزحزح في فراشه ، كان قد دفن وجهه في الوسادة ، وحين التفت إليها لمحت السيدة عينيه السوداوين الجذابتين مغرورقتين بالدموع .

«ماذا تريدين؟» قال بصوت مبحوح ، ثم استدار إلى الوسادة ليجهش في البكاء .

«أردت أن أعرف ما بك» قالت ، وهي تقف عند نهاية السرير حائرة .

«تعرفين» .

«أريد أن أسمعها منك» . ثم جلست على حافة السرير هي تلعب بخاتمها الألماس الذي يزيّن بنصرها ، بينما كان رأسها مطأطأ إلى الأسفل .

فاستدار نحوها وهو يشهق :

«تعرفين . . . لا تكذبي» .

«لا أكذب . . . ولكن أريد أسمعها منك» .

«تسمعين ماذا؟ . . . تريدين أن أقول لك . . ماذا كنت تفعلين معه» .

قال هذا وهو يشرق بدموعه ، بينما أصبحت أنفاسه أكثر صعوبة ، ولئن أحست الأم بأنها غير قادرة على الإطلاق على إقناعه ، أو على الأقل كانت قد شعرت بالخجل وهو يجتاحها ، وخداها أصبحا أكثر احمرارًا . . إلاّ أنها أصرت على الحديث معه .

«حين تكبرستعرف بأن هذا . .» إلاّ أنه قاطعها :

«أنا كبير . . . أنا كبير» وهو لا ينظر إليها ، إنما أدار رأسه نصف استدارة وكأنه ينظر نحو النافذة .

«ولدي . . .» قالت ، وقبل أن تكمل جملتها ، اجتاحتها نوبة من البكاء ، فأنزلت وجهها نحو قدميه المختبئتين في الملاحف والبطانيات .

«لست ولدك . . لا لست ولدك» .

«كيف . . . أنت ولدي . . وعليك أن تعرف أنك أصبحت كبيرًا ، إنه أبوك . . ليس رجلاً غريبًا ، عليك أن تفصل ، تفرق في هذا الفعل بين الزوج والغريب . . . عليك أن تفصل» .

«ليس أبي . . ولا أعرفه» .

«لا يحق لك أن تقول ذلك . . فهو أبوك» .

«لا ليس أبي ، أبي شخص آخر . . لستم أهلي . . أنا أعرف وأنت تعرفين . كل من في هذا المنزل يعرف . . .» ثم عاودته نوبة شديدة من البكاء ، فعاد ليدفن وجهه بين الوسائد الريش المرسوم عليها تطريز عصافير ، مرة أخرى .

«لا يحق لك أن تنكرنا . . . هكذا ببساطة تنكرنا» كانت تقول هذا ، وكأنها تلاطفه ، مما زاد في اشمئزازه .

«لا لستم أهلي . . . قلت لك لستم أهلي ، أنتم مجرمون . . . لقد انتزعتموني من أهلي . . . وعليكم أن تعيدوني إليهم» .

«لا يمكنك أن تقول هذا الشي» قالت وأطرقت حائرة .

«بل أقول – قال بإصرار وعناد – أبي أشرف من هذا الرجل . . . وأمي طاهرة» .

«أنا طاهرة» .

«لا تكذبي . . طاهرة ورأيتك بهذه الحالة؟» .

«هذا طبيعي . . في الدين والحياة . . وإن أردت اسأل من تريد . . اسأل الخدم . . اسأل السادة . اسأل كائنًا من يكون هذا أمر طبيعي» .

«لا تكذبي . سيتكلم عنك الخدم كما يتكلمون عن رجينا» .

«أتضعني مع رجينا في مكان واحد؟» قالت ذلك وقد بدت مغلوبة على أمرها .

«بل أنتما في مكان واحد . . . وأنا لا أريد أن أبقى في هذا المكان . . . أريد أن أغادره . . . ماذا تريدون مني؟» .

«كيف تقول هذا . . . أنت تتكلم وكأنك واثق من أمر لا يعرفه أحد سواك . . . هل سألت نفسك كيف يجيء الإنسان إلى الحياة . . . كيف أنت نفسك جئت إلى الحياة؟ هل سألت نفسك؟» .

«جئت من أهلي . . لا منكم» .

«حتى لو لم نكن أهلك . . . ماذا فعل أبوك وأمك لكي تأتي؟» .

«وسائط كثيرة . . غير هذه الواسطة الوسخة» والتفت ينظر إليها بحدة وهو يدق على حافة السرير بعنف .

«أية واسطة؟» وصمتت .

«أما استحيتِ على نفسك؟ . . وأنت بهذا الوضع . . . في الحجرة معه . . عار عليك! تفعلين مثل هذه الأشياء والخدم يتفرجون عليكما» .

لقد أدركت أن لا فائدة من إقناعه على الإطلاق ، فبدت يائسة حائرة متألمة ، غادرت الحجرة بعد أن أطفأت الأنوار .

هبطت السلم إلى الصالة ، جلست على الأريكة خائرة القوى ، ثم أخذتها نوبة من الانفعال الشديد . لقد هزتها رعشة حتى أجهشت في البكاء ، فوضعت المنديل الذي كانت تطرزه ، المنديل الملقى على الأريكة ، على عينيها .

وحين عاد زوجها في المساء رآها على هذه الحالة فتأثر تأثرًا عميقًا ، وبعد دقائق صعد إلى حجرة الصبي ، أراد أن يكلمه ، فلم يفلح ، لأن الصبي قد صام عن الكلام ، وأصرَّ على الصمت بحضور الوالد حتى خرج من الحجرة حزينًا .

-٤٠-

في الواقع ، إن حياة الفيلسوف التي كانت نوعًا من ردة الفعل بإزاء طهارة أمه الزائفة ، هي التي دفعته إلى التعلق بكل القذرات ومحبتها وألفتها . ولم تعد حارة التوراة التي حشر اليهود في جيفها مثل اليرقانات على جبن فاسد من الأمور المخيفة ، إنما من الأمور التي ألهبت شهوته ، وشحذت مخيلته وحساسيته ، ولذلك ما كان لعبد الرحمن إلاّ أن يرافق الخدم ، وساسة الخيل ، والعربنجية والسائقين ، ومنظفي الحدائق ، والخادمات ، وغسالات الملابس . كان هذا التعلق نوعًا من التطهير ، نوعًا من التعلق بالجمال البري ، الجمال القذر القاسي ، كان نوعًا من التعلق بالجمال شبه المهجور ، وهو يوحّد بينه وبين جمال القطط في المزابل ، والكلاب السائبة في الوحول تحت المطر . كان يلهبه هذا المشهد الذي يبحث عنه من وراء الشرفة ، أو في الحديقة عبر السياج . كان يحب تأمل الجرذان التي تخرج من المجاري ، والحمير التي يسوقها المكارية . كان يراها حيوانات جميلة ، متناسقة ، كان يبحث عن هذه المشاهد حتى في نزهاته المسائية في الحدائق السلطانية لقصر جده التي تمتد حتى تصل إلى الريف

الأصيل . كان يبحث عن التوازن ويقارن ، ومن هذا تعلم القدرة على الحكم وعلى إطلاق الأحكام .

في الواقع ، إن عبدالرحمن أحلّ المرأة الضائعة في حياته محل المرأة الطاهرة ، المرأة المجربة محل المرأة البريئة . وقد استسلم بعنف خياله إلى الصفات الأنثوية الداعرة ، وهكذا لعبت الخدّامات دورًا هائلاً في حياته ، وإن شارك أمه اشمئزازها من إدمان والده على الشراب ، وبقي منفردًا من اشمئزازه من والديه لعلاقتهما في حجرة النوم ، إلاّ أنه وجد ثمالة الحراس وعربدة العربنجية ، والعلاقة الداعرة بين سعدون السايس ورجينا الخدّامة ، أكثر طهارة وعمقًا وصرامة مما هي في عائلته . والواقع أن رجينا هي مثاله الأنثوي العظيم بكل دعارتها وتخنثها . لقد تعلق بها بكل أحاسيسه وعواطفه ، كانت تشكل بالنسبة إليه الإثم مقطرًا ، الإثم بعينه ، وظلال الآثام هم العربنجية ، والمكارية واللصوص ، وساسة الخيل ، والسواق ، والخدم ، والحراس ، ومنظفو المجاري الذين وجدهم أعظم مخلوقات خارجة من باطن الأرض إلى سطح الأرض . كان يخلق تناظرًا بين نظافة ملابس والديه وأناقتهما وبين وساخة العمال وقذارتهم ، وكان يدرك أن نظافة الأولين ناشئة عن كونهما لا يعملان شيئًا ، بينما تشوه منظر هذه المخلوقات لقيامها بأعمال عظيمة ، ولذا أضفى عليهم غموضهم واختلافهم جاذبية جنسية شاذة ، كان يراهم مخلوقات بدائية حيوانية غريبة ، أعظم من المخلوقات العائلية النظيفة .

-٤١-

لم تفقد أمه يومًا جمالها الهادىء ولا بياضها القطني ولا شحوبها الخافت إلاّ هذه الأيام . لقد بدت حزينة على الدوام بسبب ولدها الذي خلف سلوكه الغريب فيها ما يشبه تعابير اليأس . كانت تحب زوجها ، أو

على الأقل لم تكن تفكر بأحد غيره ، وعاشت في هذا المنزل الكبير سيدة لا تنازعها سلطتها سوى والدة زوجها التركية المتغطرسة ، وقد وافقت أن تقدم تنازلات كبيرة كي تحتفظ بالزوج الطيب الذي يحترم والده احترامًا مطلقًا ، ويطيع أوامره وأوامر والدته بصورة كلية . وقد أحب هو من جانبه زوجته ، أحب شعرها الذهبي الذي يساقط على عنقها الأبيض ، وهي لا تفارق الصالون . تمسك بيدها عدة التطريز بعد الغداء ، حيث ينبعث نور الشمس من النافذة التي تقابلها ، فيتساقط على ملابسها الشفيفة ، فيخيل جسدها الأبيض الناعم تحت الموسلين الشفاف .

لقد أحب أن يجلس أمامها لينظر الحاجبين المقوسين ، والشفاه التي تحمل المعنى الدائم للخيال والحساسية والتي لم يستطع العمر تذويبها . وحين كانت تتحدث مع الخدم كانت كلماتها واضحة ورقيقة ، وجبهتها واسعة صافية ، وقد تعود عبدالرحمن منذ طفولته أن يسير خلفها ، أو يجلس أمامها في حضن والده ، لينظر إلى عينيها الصافيتين اللتين تحويان الحيوية كلها ، وقد أعجب منذ طفولته بأناقتها : الملابس الحريرية الباذخة حتى وهي في المنزل ، حمرة خديها وشفتيها ، وتلك الخطوط الساحرة التي تسم تقاطيع الوجه ، والتي لم تفارقها إلاّ بعد أن مرضت ، وتحولت العينان النفاذتان إلى عينين كابيتين مأساويتين يصعب نسيانهما .

-٤٢-

أصبح عبدالرحمن أكثر قسوة معها ، كان يردّ بعنف على مطالبها وادعاءاتها العاطفية ، لقد كانت هذه الواقعة هي التي قررت سلوك الفيلسوف فيما بعد ، هي التي قررت حالة ضعفه الفردي ونزعته العدوانية والسلبية والتجزيئية ، هي التي قررت هروباته اللاحقة ، وألهمته نوعًا من الفوضى الجنسية ، والألم ، والتمرد . كان يراوده كابوس مقلق استمر معه

حتى مراهقته ، وهو أنه سيتفكك يومًا ويُرمى به إلى الشوارع المكسوة بالإسفلت . ولذلك لم تكن طفولته سوى واد من الدموع وعدم الرضا والبكاء لأقل شيء يصدر عن أمه ، بينما يهاجم والده بنوع من الهستيريا لأدنى اقتراب عاطفي ، حتى أصبحت لامبالاة الوالد ولا اكتراثه من الأمور الطبيعية . ولكن علينا أن نقول إن هذه الهبّة هي التي جعلت وجوديته وجودية وطبيعية لا مكتسبة ، وهي التي جعلت منه فيلسوفًا ثملاً ، والنساء مضاجع سريعة التبدل ، والتي حملتهُ على الاستمتاع بحياته ، ومنحها جاذبية أكبر مما كانت عليه لو كان عاش حياة سوية طبيعية كما عاش أقرانه في بيوت الأرستقراطيين .

-٤٣-

كانت رجينا هي المرأة الأولى التي أيقظت غرائزه الصبيانية ، يوم هبط السلم صباحًا .

كانت تنظف الدرجات المرمرية بالإسفنجة والصابون . وقف على الدرجة الأخيرة ، رفع يديه لتحمله ، لكنها عصرت رأسه بقوة على صدرها الدافىء ، أصبح وجهه بين كرتي صدرها الضيّق ليشم روائح غرائزها وشبقها . وحين أنزلته ، حصرته بين أفخاذها بنعومة ، فأصابه دوار حاد هزّه هزاً عنيفًا وأسكره . سار بطيئًا نحو الأريكة الوثيرة المغطاة بالشراشف التي تقابل السلم من الجهة اليمنى . أغمض عينيه ، وحين فتحهما وجد رجينا تمسح الأرضية وهي تكشف عمدًا عن بلاغة فخذيها السمراوين الربلين ، فألهبه هذا المشهد رغبة حادة جعلته يصعد السلم مرة أخرى عائدًا إلى حجرته ، وحين أصبح أمام الباب التفت إليها ، أطلق نظرة أخيرة إلى الأسفل : كانت عيناها السوداوان الشبقتان مصوبتين نحوه ، وكرتا صدرها بارزتين من فتحة الصدر ، بينما انحسر ثوبها عن ركبتيها . . وضعت

الإسفنجة على الأرض بمشهد صامت وغمزته بالعينين السوداوين ، دخل الحجرة وأقفل الباب . . .

-٤٤-

حين طردت والدته خادمتها القديمة جاء لهم سعدون السايس برجينا .

كانت في أيامها الأولى خجلة حيية ، إلاّ أن علاقتها مع سعدون السايس وجريمتها بدأتا تتضحان شيئًا فشيئًا .

حين أبلغت سيدة المنزل زوجها بذلك ، قال وهو يشرب قهوته المعطرة بالهيل :

«لا يهم طالما أن هذا لا يؤثر على عملهما» .

فإن كانت خادمة من قرية مسيحية شمال الموصل ، قرية حجرية بعيدة ، فإنها لم تكن تفتقر للذوق الرفيع ، ولا إلى اللياقة ، لقد جعلت المنزل يقطر نظافة وسحرًا . وحين أدرك عبدالرحمن إثمها ، وقصة حبها مع سعدون السايس ، أصبح مولعًا بها ، مولعًا بهذا الإثم المملوء بالعواطف . لقد وجد إثمها أقرب إلى السحر والخيال ، وما كان بوسعه أن يفعل غير ذلك ، كان يريد بكل عواطفه أن يتلصص عليها في الحمام ، أو في حجرة نومها ، كان يريد أن يتمتع بهذا الجسد الذي حرض شيئًا ما ، في مكان ما في جسده ، حرضه يوم كانت تنظف السلم .

لقد أرعبته هذه النظرة المحيرة المربكة التي جعلته عاجزًا عن الوقوف أمامها . كان يريد أن يقهر بلاغة الفخذين السمراوين اللذين ظهرا له من شق في الدشداشة ، وقد منحها في نفسه قيمة أكبر من قيمة أمه في نفسه . كان يريد أن يقهر الصورة المعذبة لأمه حين تلصص عليها من فتحة في الباب ، وليعود هو بلا إثم ولا خطيئة ، لأن أمه محصّنة

بطهارتها ، بينا كانت الطهارة عند رجينا هي نوعًا من التراجع الدفاعي . وهكذا وضع أفخادها بالتناظر مع أفخاذ أمه البيض وهي تحت أفخاذ أبيه المشعرة ، إن هذين الإثمين لا يفسران إلاّ بالتناظر مع بعضهما ، فأصبح مفتونًا بالروح الشيطانية ، بالشر الحقيقي ، وبالإثم ، لأن رجينا تمتلك سر إثمها ، وسر جريمتها .

لقد أصبح مفتونًا بالزنى الذي ارتكبته رجينا في «تلكيف» ، القرية المظللة بالأحجار والأشجار .

-٤٥-

كانت رجينا ابنة يوسف صاحب الخمارة التي تقع على الطرف الأيسر من المدينة .

ومنذ مراهقتها انسحقت بحب (ياقو) الذي كان يأخذها إلى شجرة الجوز البعيدة ليداعبها تحت زقزقات العصافير هناك . لقد انسحرت به ، انسحرت بابن اللص الذي قدم إلى المدينة قبل ثلاثين عامًا من (قرية انشكي) ، فاشترى الأراضي الشاسعة الواقعة بين تلكيف وبطناية ، وحين قُتل ، خلّفَ هذه الأملاك لابنه الوحيد ياقو ، لابنه الوسيم ، الذي حولته أملاك اللص إلى رجل شرس وعنيف وقاس ، فأراد أن يجعل كل تلكيف في خدمته ، أراد أن يخضع المدينة كلها إلى سطوته وهيمنته ، وكلما شعر بقوة رجل فيها اشترى منزله وأرضه وسرحه من المدينة .

-٤٦-

دخل يومًا خمارة يوسف ، وأخذ يشرب وهو ينظر بعينيه الحادتين إلى صاحب الخمارة :

«سأشتري منك الخمارة» قال ياقو وأخرج محفظته ووضعها على

الطاولة . وحين اقترب منه قال له :

«لا أبيع . . . اخرج من الخمارة» .

«هل تعرف مع من تتحدث؟» .

بصق يوسف على ياقو أمام الجميع ، هجم ياقو عليه بزجاجة العرق ، إلاّ أن الندل استطاعوا أن يوقفوه ، فقال له ياقو :

«سأركب ابنتك وأبصق في وجهك» .

وبعد يومين ، يومين فقط من المشادة بينهما ، هربت رجينا من منزل والدها إلى أرض ياقو بمساعدة سعدون السايس الذي كان يعمل في اصطبلات ياقو .

هربت إلى الأراضي الشاسعة التي كان يملكها ابن اللص ، وانطرحت تحته وظلال شجرة الجوز وزقزقات العصافير تظللهما . وأعلن سعدون الخبر في المدينة : أن ياقو سيتزوج من رجينا يوم الأحد . فأغلق يوسف خمارته وذهب إلى المنزل ليسقط على العتبة مغميًا عليه ، وفي ليلة العرس مات من تأثره .

-٤٧-

لم يعد ياقو يطرح رجينا تحت ظلال الجوز ، إنما أخذ يتردد إلى عشيقته . وبعد شهرين من زواجهما هجر رجينا تمامًا ، وتركها لسعدون السايس الذي ملك عدة عربات وخيول ، بينما أصبح ياقو مقامرًا سكيرًا ومعربدًا .

لقد أصبحت رجينا عشيقة سعدون ، وأخذت تستقبله في حجرة نومها على مرأى وسمع الجميع ، وكان سعدون يستمتع بالثلاثة : الحقل والمال ورجينا .

شاعت الفضيحة : إن رجينا أصبحت عشيقة للعربنجي المسلم . فثار

ميخائيل ابن خالتها ، وجاء إلى الحقل ، وما إن دخل حتى أطلق الرصاص على سعدون ، فجرحه بكتفه . هرب سعدون واختفى تمامًا ، ورابط ميخائيل في أرض ياقو ليحمي رجينا .

وفي يوم سكر ميخائيل وهو عائد إلى منزل رجينا ، دفع الباب داخلاً إلى حجرتها ، فوجدها نصف عارية أمام شباك مفتوح يسمح للهواء الصيفي أن يدخل الحجرة ، كان ثوبها منسحبًا إلى فخذيها السمراوين ، وكرات صدرها بازغة من فتحة الصدر ، فهجم عليها ، أراد أن يفتح ساقيها عنوة وهو يلهث . . فصرخت من الذعر ، تناولت قضيبًا كانت وضعته على الكومدينو قرب سريرها ، وحطمت رأسه ، وقبل أن يموت ميخائيل في اليوم التالي في المستشفى اعترف للمحقق بأنه هو الذي أراد اغتصابها ، فأطلق سراح رجينا بعد أيام من السجن ، ولكنها لم تعد إلى تلكيف إنما غادرتها إلى بغداد في القطار القادم من الموصل . . ولم تجد سوى سعدون في استقبالها .

أخذها سعدون إلى منزل سيده ، وفي الضحى قدم رجينا زوجة ياقو مالك الأراضي الشاسعة بين بطناية وتلكيف على أنها خادمة ، ومنذ ذلك الحين أصبحت رجينا خادمة في بيت النبيل أمين شوكت . لقد استطاعت رجينا أن تنفذ إلى قلب الولد الذي كان يكبر يومًا بعد يوم ، كانت تدرك حدود نموه الجنسي ، وكانت كل يوم تزيد عليه الجرعة ، كانت كل يوم تعطيه جرعة أكبر من سابقتها ، كانت تربيه ، وهو من جانبه أصبح أكثر طاعة لأوامرها . لقد عبرت هذه المرأة في ذهنه عن فكرة مفادها أن المرأة المتورطة أعظم من المرأة البريئة الطاهرة ، والقذرة أعظم من النظيفة . كانت الدجاجة الداعرة التي تسمح للديكة بركوبها ، أعظم من الحمامة البيضاء التي تحمل مغلفًا مختومًا على قدمها . لقد أصبح عبدالرحمن أكثر ألفة مع الاستيلاد الداخلي للعفن ، عنف الكائنات الوسخة المحشورة ، وقد ألهمته

هذه الكائنات أفكارًا واضحة .

-٤٨-

في يوم هبط السلم ، فسمع وشيش الدوش في حمام الخدم القريب من المطبخ ، فأدرك بحدسه أن رجينا في الداخل .

اقترب من الفسحة القريبة من الحمام . كان قلبه يدق بقوة ، اقترب من الباب وهو يتلفت ، كانت عواطفه مزيجًا من الرغبة والذعر ، جعلته يتردد لحظات حتى كاد يهرب ، إلاّ أنه تجرأ وأخذ ينظر من ثقب الباب . كانت رجينا تحت الماء الساخن عارية ، ترفع رأسها قليلاً نحو الماء الهابط من الأعلى وهي تفتح فمها نصف فتحة ، وراحتاها تمسحان على صدرها الناتىء وعلى بطنها المدور الأسمر ، بينما كانت حلمتاها أكثر قتامة ، وقد تركزت فيهما لذة من نوع لا يضارع ، الأفخاذ الناعمة ، شعر الفرج الأسود الخفيف المغسول بالماء الساخن ، السيقان المنسابة بنعومة ، الورك المنحني برقة . . كل هذه الأشياء هزته بعنف حتى كاد يغمى عليه . كان يريد أن يدفع رأسه في ثقب المفتاح بقوة ، وحين سمع صوتًا وراءه استدار بعنف ، كانت عيناه حمراوين ، وشفتاه ترتجفان ، فوجد سعدون يبتسم أمامه .

«أردت أن أعرف من في الحمام» قال بصوت متهدج ، وقدماه تهتزان مثل سفعة .

«أنا أريد أن أعرف أيضًا» قال سعدون وهو يبتسم ، ثم أزاح الصغير بيده اليسرى ، وأخذ ينظر من الثقب . فاندهش عبدالرحمن من طلاقة سعدون وصلافته .

طرق بعد ذلك باب الحمام طرقات خفيفة ثلاثًا ، ففتحت رجينا الباب بهدوء . انسل سعدون إلى الداخل وأغلق الباب . أراد عبد الرحمن أن يهرب ، أن يصعد السلّم بسرعة ويختفي في حجرته . إلاّ أنه تردد قليلاً

أمام باب الحمام ، وهو يسمع وشيش الدوش مع تأوهات مهيّجة ، فعاد بخطوات مضطربة ، ووضع عينه على الثقب وأغمض عينه الأخرى . شاهد على مقدار الثقب جسدين عاريين يتلامسان برفق ، ويتحركان برقة تحت الماء الساخن ، حيث يتصاعد البخار بقوة من الدوش فيحيط مشهد العاريين بحجاب أبيض مضبب .

-٤٩-

لقد كانت هذه الصورة الناجمة عن تلصصه ، هي الصورة المهيّجة التي استنسخها آلاف المرات ، هي الصورة الساحرة المطبوعة في ذهنه ، وقد حاك خياله حولها الأساطير ، كانت هي التي تنفجر أمامه كلما دخل الحمام أو تحرك الماء الساخن على جسده .

-٥٠-

كان سعدون السايس أنيقًا أناقة غريبة ، ملابسه العتيقة نظيفة وإن بليت أطرافها من الكي ، أما شعره الكث فقد وخطه الشيب قليلاً ، وقد بقيت شواربه سوداء حالكة . لقد مارس تأثيره الحقيقي على الآخرين عبر عينيه الصغيرتين الحادتين وقسماته الصارمة ، وفي يوم من الأيام دخلت سيدة من أقرباء العائلة إلى الصالة ، فصدمها مشهد سعدون الذي يحمل الصينية خارجًا من باب الحديقة نحو الإصطبل ، فسألت سيدة المنزل :

«من هذا؟» .

«إنه سعدون . . . سايس يعمل في اصطبلنا» .

فضحكت ضحكة عالية وقالت لها :

«له وجه سيد ويعمل عمل العبيد» .

-٥١-

لقد ارتبط الصغير منذ حادثة الحمام بسعدون بصداقة قوية ، ونزهات لا تنتهي . لقد أحبه ، أحب صلافته وطلاقته وقدرته على اقتناص الأشياء بيديه دون تردد ، وهذا ما كان يفتقر إليه .

في يوم كان عبدالرحمن يسير في الحديقة وقد ارتدى معطفًا قصيرًا من الصوف ، رأي سعدون يحمل جردلاً من الماء فابتسم له بفتور وأدار ظهره ، سار قليلاً باتجاهه ، فأخذ سعدون يغسل يديه من ماء الحوض القريب من السياج تحت السدرة العالية التي تظلل البوابة الخارجية ، ودون أن يلتفت إلى عبدالرحمن اتجه ليفتح الباب بعد أن أخرج منديله وأخذ يمسح يديه وخرج إلى الشارع ، ركض وراءه عبدالرحمن وسأله :

«إلى أين أنت ذاهب؟» فقال سعدون :

«تريد الذهاب معي» .

«نعم» قال عبدالرحمن .

توقف سعدون برهة ونظر إلى البلكونة العالية ، كان والد عبد الرحمن يرتدي الطاقية البيضاء والجلباب ، ويمسك عصا الجوز بيده ، يرقب المشهد .

«اذهب وقل لوالدك إنك ذاهب معي إلى المقهى» .

ركض عبدالرحمن نحو البلكونة ويداه في جيبي معطفه ، وما إن وصل إلى البلاطات السود التي تحجز الحديقة عن الجدار تحت البلكونة مباشرة ، حتى رفع رأسه إلى الأعلى ، فهزّ له والده رأسه موافقًا دون أن ينطق الولد بكلمة .

-٥٢-

سارا معًا جنبًا إلى جنب في الطريق الموحل الذي يفصل حدائق المنزل العظيمة عن البساتين التي تحيط به .

كان سعدون يتقدم بخطوات ، يسير ويصفّر ويداه في جيوبه ، بينما

كان عبدالرحمن يركض خلفه ، يتوقف أحيانًا ليحمل عن الأرض قشرة لحاء ، أو حصاة ، أو ثمرة ساقطة . وحين وصلا إلى الشارع العمومي المبلط بالإسفلت إلى يسار محطة البنزين من جهة المراحيض العمومية ، اتجها نحو صرايف العاصمة وهي مجموعة من الأكواخ القذرة التي يعيش فيها الفلاحون الهاربون من قسوة الإقطاع ، جاءوا المدينة ليعملوا عمالاً صغارًا ، كسبة متعبين ، لصوصًا ، أشقياء ، صباغي أحذية ، بائعي سجائر بالمفرد ، بستانية ، صبيان مقاه أطلق عليهم أهل بغداد (الشروقية) .

وبعد أن اجتاز سعدون السايس السدة الترابية تبعه عبدالرحمن ، أخذا ينظران إلى الأولاد العراة وهم يسبحون في المياه الآسنة ، مع الجواميس التي يلسع جلدها القراد الشره . كان الهواء باردًا ، والشمس ساطعة ، وكانت الرائحة الآسنة تزكم الأنوف . لقد دخلوا في مجال القذارة والوساخة والعفن ، فانحرفا معًا إلى صف المباني الطينية التي تدير ظهرها للأكواخ والصرايف وبيوت التنك ، والتي تستقبل الشمس بمواجهة السدة الترابية الموحلة ، حتى وصلا إلى مقهى صغير بباب خشبية مخلعة ، صفت أمامها الكراسي المصنوعة من جريد النخل ، وجلسا على كرسيين متقابلين .

خف رمضان صبي المقهى نحوهما ، وجلب لهما الشاي الساخن الذي يتصاعد منه البخار بطيئًا تحت شعاع الشمس الساطعة ، وبعد دقائق هرع الجالسون في المقهى ، الذين كانوا يلعبون الدومينو والطاولة في الداخل ، بعد أن سمعوا صوت سعدون وهو ينادي رمضان :

«جيب مي» .

«ها سعدون أشجابك . . إشلونك» .

أخذوا يقبلونه واحدًا بعد آخر ، وأحجار الدومينو بأيديهم ، بينما رمى أحد الجالسين في المحل المجاور برتقالتين على سعدون ، سقطت واحدة تحت

الطاولة وتدحرجت فالتقطها عبدالرحمن ووضعها في جيبه . . ثم خرج الأسطى سعيد من محل الحلاقة الذي يجاور المقهى ، كان شعره أبيض منكوشًا ، ووجهه أسمر وهو يصرخ :

«ها ابن القحبة» .

فضحك سعدون وهو يقول :

«كلنا أولاد قحبة» .

فضحك سعيد ورمى المنشفة على كتفه ، وقد ظهرت ملامحه الدقيقة شبيهة بملامح سعدون ، ضربه بكرشه وهو يعانقه قائلاً للواقفين :

«هذا ليس أخي ، هذا الشيطان الرجيم» .

تحلق حوله أسطى سلمان ، ومحمود القنطرجي الذي كان يقرأ الجريدة ، وجبار . وأخذوا يتحدثون معه بصوت عال مصحوبًا بالضحك ، بينما كان عبدالرحمن ينظر إلى الشارع الموحل الذي يحجز السدة الترابية عن الصرايف .

كانت عربات السحب ، والموتوسكلات ، وباصات الخشب المحملة بالناس ، وفوقها أقفاص الدجاج والطيور وأواني الحليب . . تغور في الوحل متجهة إلى ساحة الطيران ، أو إلى باب الشيخ ، أو إلى الباب الشرقي .

لقد ابتهج عبدالرحمن بهذا المشهد . كان يحرمه الخجل من السؤال أو من الضحك . وحين دعاهم أسطى محمود للغداء اعتذر سعدون ، ونهض ، فنهض عبدالرحمن معه ، وودعوهما بالضحك ، وهما ينحدران نحو مسلخ في الجوار . كان القصابون يقفون خارج المسلخ ، بوجوههم المتصلبة القاسية ، وقد وضعوا السكاكين في الأحزمة التي تحيط بالوزرات المطلخة بالدم والمشدودة جيدًا إلى خصورهم بينما كانت النعاج المربوطة قربهم تثغو وهي تأكل الجت ، وكانت هنالك البرك المملوءة بالكروش المفتوحة ، والمصارين ، والدم الرائب ، وقد نظر عبدالرحمن إلى هذه

القذارات وأحبها لأنها كانت قذارة صريحة .

كان صاحب المسلخ يجلس في الخارج بكرشه الكبير ، وصلعته اللامعة ، وهو يقرقر بالنارجيلة . وكانت النساء يحملن على رؤوسهن طاسات اللبن ، بينما أرجلهن مشدودة بالقماش الأبيض لتحمي أقدامهن من الشوك والعاقول ، وقد وقف كلاهما في ركن المسلخ ، فاقتربت منهما شابة بيضاء مثل الحليب ، كانت قد هبطت من السدة الترابية نحوهما متظاهرة بتخلفها عن الباص الخشبي الذي يقف إلى يمين المقاهي ، في ساحة مملوءة بباعة البضائع العتيقة . قالت بصوتها المبحوح :

«مشتاقين . . .» احمرت من الخجل وعيناها السوداوان تبرقان بطبقة خفيفة من الدمع ، فضحك سعدون ولكزها بقدمه .

«باكر» .

هرعت نحو الباص الآخر الذي توقف قرب السدة ، أخذ السائق يصرخ بكل صوته (باب الشيخ . . . باب الشيخ) فصعدت الباص بعد أن ودعتهما بنظرة من بعيد والتفاتة حنونة .

«من هذه؟» قال عبدالرحمن .

«صديقتي . . . هي أحلى لو رجينا؟» قال سعدون وهو يشعر بالزهو .

صمت عبدالرحمن ، وسارا كلاهما في الشارع ليصعدا السدة ، وبعد ذلك هبط كلاهما قافلين إلى المنزل .

-٥٣-

سار عبدالرحمن وفي ذهنه هذه الصور المتلاحقة ، التي تذكره بالمبالغات الكبيرة التي كانت تحتفظ بها عائلته والعوائل الراقية المتمدنة التي تخفي قذارتها تحت الياقات اللماعة ، والقمصان البيضاء المنشاة . كان يكتشف يومًا بعد يوم مع سعدون السايس ، والبستانية والغسالات ،

والخادمات ، والسواق ، والعربنجية حياة أخرى .

كان كره الفيلسوف الصغير ينصبّ يومًا بعد يوم على عائلته وأقربائه ، على العائلات غير القادرة على الطلاقة والحياة والمرح ، غير القادرة على الحركة السريعة ، والعلاقات الجسدية ، غير القادرة على البطولة الشعبية ، على هذه الأجساد التي لا تكون إلا وهو ترتدي ملابسها . كان ناقمًا على ملابسهم ووجودهم ، وعلى أمراضهم المجهولة ، وعلى أصواتهم التي لا تحدث ضجيجًا شبيهًا بضجيج الخدم ، وعلى النساء اللواتي لا يشبهن وجه رجينا الأسمر الصافي ، ولا شعرها الملفوف بروعة ، ولا شحوبها الآثم برقة ، ولا عيونها الغامضة ، وجريمتها التي تثير رغباته . حين كانت تنظف الصالة وتنورتها الخضراء تنحسر حتى فخذيها ، وهي تعلم جيدًا أنه يراقبها ، لم تكن تأبه به ، كانت تنظر نحوه وهو جالس على الأريكة ، جالس ببذلته السوداء مثل الكبار ، وشاربه المراهق الذي يشبه علاسة تمر الهندي ، يحيط بشفتيه ، تغمزه بعينيها ، ثم تنهض أمامه وهي تمسك بقماشة مسح البلاط ، تتجه نحوه ، دون أن تنظر إليه ، تقلب سدارته من على رأسه ، وتصعد السلم .

-٥٤-

إن كان الفيلسوف غير قادر على الاتصال بالناس أول الأمر ، أو غير قادر على قبولهم ، غير قادر على قبول فكرة أن الجنس هو أمر طبيعي ، فإنه في واقع الحال كان يريد تخليد طفولته ، كان يريد أن يكون إنسانًا لا قطة تسقط من الجدار . وهكذا حين وضع أقدامه على الخط الأول من الرجولة ، وهي المراهقة ، الشيء الوحيد الذي كان يلفت انتباهه ، هو كونه طفلاً مقدسًا . كان يريد التحرر من المُثل : مثل البالغين وأخلاقياتهم ، ولذا لم تكن العائلة نسبة له سرًا مقدسًا ، إنما كان يريد أن يطلق عليها احتجاجه .

فسعدون يجعل الناس ماضيه ، ورجينا وإن كان لها ماض إلاّ أنها بلا عائلة ، أو على الأقل حطمت عائلتها ، وسليمان البستاني لاً يعرف عنه سوى أنه يعيش مع أمه ، والبستاني يعمل لكي يسكن في الخان ، وناصر لا يهمه من الحياة سوى العرق . أما العائلات الكبيرة المعقدة من الرجال والنساء الذين صرعتهم الحياة المكتسبة بالعادة ، العائلات التي كانت تحيط بعائلته ، فكرهها ، وسخر منها دون هوادة ، وحاول أن يجرح نرجسيتها ، وأن يكون سلبيًا على الدوام معها ، كانت لديه رغبة التشهير بها ، فأراع والديه ، وأرعبهما . . وفي يوم كان يسير مع سعدون قال له :

«هل أنت متزوج؟» ضحك سعدون وقال :

«الزواج . . . لا . . . لا ما الداعي» .

«هاه . . . ما الداعي أن تكون لك امرأة؟» قال عبدالرحمن ولعابه يملأ فمه .

«المتزوج له امرأة واحدة . . أما الأعزب . . فله العديد من النساء» .

-٥٥-

إن كان عبدالرحمن قد انحدر من عائلة أرستقراطية ، وكان جده رجلاً رفيع المستوى ، فإنه لم ير هذه العائلة وهي تحيا أقوى مراحل نفوذها في بغداد ، أي في الطور العثماني .

لقد انتبه عبدالرحمن إلى عائلته وهي في طورها الملكي ، وقد خسرت مناصبها وجاهها ونفوذها ، وهذا ما كان يبعث في نفسه نوعًا من الارتياح . كان يريحه أن يرى عائلته وقد هبطت إلى الدرك الأسفل ، ولم تعد لها هذه الهيبة والأبهة التي كانت لها يومًا من الأيام . فجده لم يعد يتكلم كثيرًا ، وقد نحل عوده آخر أيامه ، وتهدل شاربه الذي كان يرفعه مثل شوارب الأتراك ، ولم يره إلاّ وهو دمية يحمله الخدم إلى الحديقة ، أو

يجلسونه في الصالون ، أو يرفعونه السلم كله نحو حجرته . ولم تبق منه إلاّ عيناه الذابلتان ، وشعره الأشيب تحت الطاقية التركية البيضاء النظيفة ، وجسده الناحل تحت الروب الصوفي الطويل الذي يغطي بيجامته الكستور ، وفي أقدامه الخف الصوفي .

كان يتحدث أحيانًا بصوته الخفيض مع ابنه ، وهو يرفع وجهه على عصاه المحززة بالفضة ، لم يكن يفارق الشرفة الواسعة المغلقة في الشتاء ، حيث تحجب زجاجتها العالية الريح ، وتسمح للشمس أن تسقط عليه . كان يشرب فنجان قهوته المهيلة ، ينادي الخدم ليحملوه إلى حجرته لينام ساعة أو ساعتين .

لقد كان هذا الجد هو أبرز الوجوه البغدادية أيام الوالي سري الكريدي الذي تولى بغداد في العام ١٨٩٠ ، وهو الذي أنشأ متنزهًا في ساحة الميدان ، وهو الذي تقرب بوساطة المنجمين إلى السلطان عبدالحميد ، وقضى أيامًا في القصر المملوء بالجواري الناعمات والغلمان الذين يغدون ويروحون بملابسهم المذهبة ، وجلهم من الكرج . وظل طوال حياته يتحدث عن موائد القصر الحافلة بأواني الذهب والفضة والأطباق ، والملاعق ، والأباريق ، والكؤوس ، والمباخر المزخرفة ، وهو الذي تزوج سيدة تركية (نظلة هانم) وما إن جاء بها إلى بغداد حتى هالها المشهد المروع : كانت بغداد قبيحة أيام الطاعون ، وهواؤها سموم ، وجوّها مقيت ، وسكانها بشعون ، وطعامها رديء ، فهربت عائدة إلى إسطنبول ، وحين لحق بها زوجها تعرف إلى الوالي حسن وفيق الذي رافقه في نزهته في شوارع إسطنبول : كانا مسبوقين بفصيل من الفرسان ، ومن عبيد الوالي وخصيانه ، وبفصيل آخر من المشاة وهم بملابسهم العسكرية وبنادقهم الإنكليزية ، وموسيقاهم التي تتألف من الطبول والمزامير .

هذه الهيبة فقدتها العائلة في الطور الملكي ، وهذا ما جعل نظلة هانم

طوال حياتها تقول (هذا الملك لا يصلح لشيء) .

-٥٦-

لقد قضى عبدالرحمن مراهقته مع سعدون : التنزه في البساتين ، الجلوس في المقاهي بعد الرجوع من المدرسة ، العمل في الحديقة في الإسطبل ، لعب القمار أحيانًا في خان مامو في باب الشيخ . ولم تشأ العائلة طرد سعدون من المنزل على الإطلاق ، بالرغم من كل فضائحه وهستريته الجنسية ، بالرغم من ضبطه مرتين مع رجينا من قبل سيدة المنزل ، مرة في الحمام ، ومرة في الحجرة السفلية . ولم تخلق السيدة من هذا الأمر فضيحة ، إنما اكتفت بتوبيخ رجينا وسعدون وهددتهما بالطرد ، كانت تقول :

«لولا تعلق هذا الولد بكما لطردتكما» .

كما أن سيد المنزل ضبط رجينا وسعدون مرة في المطبخ .

-٥٧-

كان قد هبط السلم بعد منتصف الليل دون أن يشعر به أحد ، وقد شعر أن سعدون ورجينا في المطبخ ، سار بحذر حتى أصبح أمام الباب ، فتحه بسرعة وأنار المصباح ، رأى الزانيين وقد فرشا على الأرض بطانية نظيفة ، وكان كلاهما عاريًا تمامًا .

ارتاعت رجينا ووقفت أمامه منتصبة دون أن تضع على جسدها شيئًا بينما أخذ سعدون يرتدي ملابسه على عجل .

لم يتزحزح والد عبدالرحمن ولم ينطق بكلمة ، إنما بقي بكل صلافة وهو ينقل عينيه بينهما ، ويتفرج على جسديهما العاريين المتعرقين ، فحملت رجينا ملابسها بيدها وسارت أمامه صامتة وهي تدور بعجزها

بغنج ومرت من جانبه ، لتدخل إلى حجرتها ، فأخذ يوبخ سعدون بعنف ، وهو يقول له :

«لولا الولد لكنّا طردناك» .

إلاّ أن عبدالرحمن أفاق في اليوم التالي على الفضيحة التي عمّت أرجاء المنزل ، ولم يقابل والديه إلاّ بابتسامة ماكرة ، وفي الليل لم يستطع النوم أن يغلبه ، ثم شعر بوالده يهبط السلم بشكل بطيء . فتح عبدالرحمن باب حجرته بهدوء ليتطلع من الأعلى إلى الصالة الداخلية ، فرأى والده وهو يدخل حجرة رجينا بصمت .

وفي الصباح حدّث سعدون عن والده وأخذا يضحكان وهما في الحديقة . فعرض عليه سعدون أن يأخذه معه إلى بيت العاهرات فلم يعارض عبدالرحمن أول الأمر ، واتفقا في اليوم التالي على الذهاب بالربل إلى هناك .

-٥٨-

كان الربل يسير بهدوء في الشارع المبلل بمطر خفيف .

كان عبدالرحمن يجلس في الخلف تحت السجفة السوداء يرقب اللافتات الكبيرة المعلقة على واجهات المحلات في شارع الرشيد : إعلانات ماكنتوش ، بذلات إنكليزية من كل نوع ، أحذية فانتهاوزن ، المقهى البرازيلية ، أورزدي باك ، أسطوانات جقمقجي . . كانت الواجهات الزجاجية التي تحوي العلب المذهبة والبضائع الفاخرة تضيء ، وإعلانات السينمات ترتفع على جانبي الشارع ، كان عبدالرحمن يعدل سدارته على رأسه ، وكان يريد أن يلتهم النساء اللواتي يخرجن من البوتيكات ، والمغازات النظيفة ، ومن السينمات .

كان سعدون يقف على قدميه حاملاً السوط الأسود الطويل ويضرب

عجيزة الحصان ، يصيح على العابرين ، يمسح المصباح الذهبي من الجهة اليمنى من الربل .

وقبل الذهاب إلى أي مكان كان يحلو لعبد الرحمن أن يتوقف في شارع الرشيد ، عند دكة باب الآغا ، ليجلس في المقهى ليدخن النارجيلة أو ليذهب إلى سينما روكسي ، أو يجلس على الكراسي الحديدية لأكل الأطعمة نصف البائتة عند حسن الحانوتي القريب من مكتبة مكنزي . يجلس ببذلته السوداء ، وربطة عنقه ، وسدارته ، وهو يشعر بالارتياح حين يرى الكائنات الضاجة المرحة ، الكائنات الصاخبة التي تملأ السوق . كانت تبهجه اللكنة الشعبية ، تدهشه الصلافة والروائح العفنة ، بعيدًا عن خداع والده وصفاء أمه الأنثوي وتوازن عواطفها النظيفة الباردة . وحين سأله سعدون عما إذا كان يرغب بالتوقف اليوم في مكان ، رفض لأنه يريد اليوم أن يخوض حربًا جنسية معه في بيوت الداعرات ، فقال له :

«لا نتوقف اليوم إلاّ أمام عاهرة» وهو يضحك .

ولكن ما إن وصل إلى نهاية شارع الرشيد قرب الميدان ، قبالة رأس الكنيسة حتى شعر بالخوف والهلع ، أحس بركبه وهي تصطك وترتعش .

-٥٩-

أوقف سعدون الربل عند فتحة الزقاق المطلة على شارع الرشيد من الجهة المقابلة لسوق الهرج ، كانت العاهرات نصف عاريات يقفن أمام المنازل ، أو يجلسن على العتبات باستعراض فاضح . الإتكات الحمر ، الصفر ، الصدور الممتلئة ، الأفخاذ الملساء ، الماكياجات الصاخبة . . كن يتبادلن بصوت عالٍ الكلمات الخليعة ، والضحكات الداعرة ، وحين هبط عبدالرحمن وسعدونٌ كلاهما من الربل اجتازا الشارع نحو الزقاق ، وقبل أن يدخلا توقف عبدالرحمن ، كانت ركبتاه لا تقويان على حمله ، لقد

شعر بالقلق والخوف ، شعر بتهديد فظيع ، لأن هذه القوة التي تمتلكها العاهرة ، هي قوة منيعة لا يمكنه أن يقتحمها ، وهو الهش الخجل غير المجرب . اقتربت واحدة منه وسحبته من ساعده ، كانت رائحة السكر تفوح من فمها ، كان وجهها ربلاً ، وقد غطته بالمساحيق ، بينما كان شعرها مصبوغًا باللون الأحمر الناري ، لم تكن ترتدي سوى إتك داخلي يكشف عن نهديها الضخمين من الأعلى ، وساقيها السمينتين من الأسفل ، وكان شعر إبطها تفوح منه روائح داعرة ، اقتربت منه وقالت له بصوت أجش :

«رافجني» .

ما إن سمع عبدالرحمن كلماتها ، حتى هرب بسرعة من حيث أتى ، تسلل بخفة إلى الربل ، واختفى بلمح البصر ، جلس على أرضية الربل الضيقة وقد خنقته أنفاسه المتصاعدة ، بينما أخذت العاهرة تضحك بأعلى صوتها وتنادي وراءه :

«لا تخاف . . تعال . . . ما آكلك لا تخاف» .

لقد أخذ عبدالرحمن يطلع برأسه من سجفة الربل قليلاً لينظر إلى سعدون وهو يتعامل معها ، ثم دخل كلاهما إلى المنزل .

أخذ يرقب هذه الفوضى الجنسية المحتدمة : الرجال المحترمون يدخلون إلى الزقاق القذر بسياراتهم الفارهة التي تصطف أمام الربلات ، تخرج أحيانًا عاهرة ترتدي أجمل الملابس وأثمنها ، قبعة ثمينة على الرأس ، وعلى جيدها الفراء ، وتحلي أيديها بالأسوار ، تخرج مع سيد محترم لتصعد سيارته التي تنطلق في الشارع ولا تخلف وراءها سوى الدخان الأبيض الذي يخرج من صالنصتها ، هنالك عجائز تساقطت أسنانهن يقمن بالسمسرة والتدليل وتوزيع النساء على القادمين ، وقبض المال ، شابات صغيرات يقفن على الأبواب حيث يستعرضهن أحد الزبائن ، تدلف واحدة إلى الداخل مسرعة وهي تمسك بيده .

وبعد عشرين دقيقة خرج سعدون من المنزل وهو يعقد سحاب بنطلونه ، كان شعره منكوشًا ، قميصه نصف مفتوح ، يزر وهو يعبر الشارع ، كان يضحك على عبدالرحمن ويصيح عليه :

«لا تخاف . . . ما آكلك» .

كان يضحك . . وحين صار أمام الحصان ، ربت وجهه وقال :

«لتزعل . . لو أكو كلجيه للحصن . . كان أخذتك» .

قفز إلى الربل ، كان عبدالرحمن يفرط من الضحك الذي أحدثه الخجل أكثر مما أحدثهُ شيء مضحك ، ثم انطلقا معًا عائدين من الجهة المقابلة للشارع ، بعد أن استدارا من الميدان ليذهبا إلى مطعم للسمك على شكل منزل قرب رأس الكنيسة .

-٦٠-

هبطا من العربة وسارا باتجاه المنزل ، مرت سيدة تلم أطراف العباءة السوداء على وجهها ، بينما أخرجت يدها من الكم لتروح وتجيء وهي تتمايل بأساور الذهب ، مع الحركة الكسولة المغناجة ، فتابعها سعدون بعينيه وهو يلقي بعقب السيجارة على الأرض وسحقها بقدمه وقال (تفك الحديد) .

فضحك عبدالرحمن متعجبًا من قدرة سعدون الجنسية وقدرته على على النظر غير المنقطع للنساء! كانت المنازل متقابلة والأزقة ضيقة رطبة ، والصغار يتقافزون حول خط الماء الذي يهدر وسط الزقاق . كانت المصابيح تتوهج في الظلام ، ودخان السمك المشوي يتصاعد على الضوء أمام الحوش الداخلي ، بينما كانت المنازل القديمة وشناشيلها وأبوابها الكالحة ترتد إلى الوراء . جلس كلاهما على الكنبة المغطاة بالبسط الصوفية الملونة ، فأخرج سعدون سيجارتين من جيبه وقدم لعبد الرحمن واحدة وأخذا يدخنان .

كان الرجل يغمس السمك بالدهن المغلي ، فتدخن الطاوة التي أمامه فتصدر فرقعة عالية ، ورائحة زفر نفاذة تعم المكان .

أخذت امرأة أربعينية - تركت فوطتها على كتفها - تعد المائدة لهم بالطرشي ، والخبز الحار ، وسمكة مقلية بالبهارات ونومي البصرة . تناولا أطباقهما بهدوء ، وشربا الشاي وهما يدخنان . استعاد سعدون صورة عبدالرحمن وهو يهرب ، ليقفز في العربة ويختفي مثل الجرذ وراء السجفة ، كان عبدالرحمن يضحك حتى دمعت عيناه ، فقال له سعدون :

«ما رأيك برجينا» .

«لا أدري» .

«هل تريد؟ . . إذا تريد . .» .

صمت عبدالرحمن ، أحس بعروقه تبرد ، وحرارة من نوع خاص تطفر إلى وجهه . لقد هزّه الفرح حين سمع الكلمة الأخيرة . وبعد أن صعدا إلى الربل قافلين إلى المنزل ، اتفقا على أنهما سيقولان لوالده إنهما ذاهبان إلى الصلاة في جامع الحيدرخانة ، ثم جلسا في المقهى وتنزها على جسر مود بالربل ساعة ، حتى وصلا إلى المنزل ثملين من الغبطة .

-٦١-

في اليوم الثاني وبعد منتصف الليل ، فتح باب حجرته وقبل أن يهبط السلم ، رأى رجينا في الفسحة المظلمة اليمنى من الصحن .

كان هنالك نور خافت يسقط على جسدها الذي يشف خلف الموسلين الأبيض ، تحرك عبدالرحمن في الفسحة الرطبة على البلاط الخارجي ، والرغبة في عينيه الواسعتين . كانت أنفاسه تتصاعد بسرعة ، وقبل أن يسقط عند ركبتيها ليقبلها من الساق المزينة بالخلخال الذهبي ، مدّ يده الراجفة ليتحسس جسدها ، مرر أصابعه بخوف على الفخذين

الربلين ، ثم هبطا إلى حجرتها ، أحس بوجههها وقد امتلأ بالدم - قال لها :

«نصعد للسطح» .

«أخاف . . .» وضحكت ضحكة مكتومة .

انطرحت على سريرها ، مررت أصبعها المحلى بالخاتم على شفتيه برفق ، تقدم نحوها مترددًا ، وقف ، فأخذت تناديه بصوت مبحوح وقد جفّ ريقها ، أغمضت عينيها وقد خلعت ثوبها الحرير ، فبدت عارية تمامًا ، وإن تحاشى أن ينظر إلى وسطها لينسى جسدًا رآه في طفولته ، جسدًا كان يئن تحت ساقي والده المشعرتين ، جلس على السرير برفق ، فأخذته بذراعيها وضمت رأسه بين ثدييها الساخنين ، فأحسهما لدنين ومتماسكين وصغيرين ، تحسس بشفتيه أضلاع صدرها واحدًا بعد آخر ، وفجأة انفتح باب الحجرة بقوة ، وأنير المصباح فقفز كلاهما مرتعبين ، صرخ والده بقوة :

«يا زانية أنا وولدي . . في السرير ذاته» .

-٦١-

لقد هرب الفيلسوف الصغير عاريًا من الحجرة وأخذ يقفز درجات السلم بسرعة .

كانت أمه واقفة في باب حجرتها ، فارتاع ووضع يديه على عورته ، ثم فتح باب غرفته ، اندفع إلى الداخل بقوة بعد أن صفق الباب وراءه .

إن كان رآها عارية يومًا في حجرتها ، فهي أيضًا رأته عاريًا ، وإن مسح هذا المشهد صورتها القديمة فهو لن ينسى على الإطلاق ذاك المشهد حيث كانت تقف صامتة وهو يركض عاريًا على السلم المرمري أمامها .

-٦٢-

في الواقع كانت طفولة الفيلسوف ومراهقته كافية لتنشئته وجوديًا خطيرًا ، إلاّ أن وثيقة واحدة من بين جميع الوثائق التي عثرت عليها - سواء تلك التي كانت بحوزة المحامي بطرس سمحيري حين زرد، في مكتبه ، أو تلك التي كانت بحوزة حنا يوسف والتي زوّدني بها أول لقائنا ، أو تلك الوثائق المهمة التي كانت بحوزة صادق زادة - وثيقة واحدة تنص على أن فيلسوف الصدرية قد تأثر أعمق الأثر ، إن بفلسفته ، أو بسلوكه ، بإدمون القوشلي : المسيحي المثابر الذي عمل مترجمًا في الشركة الهندية أول الأمر ، ثم معلمًا في مدرسة فرنك عيني ، والذي كان يقطن مع جدته عديلة في الجهة المقابلة من محلة جديد حسن باشا في بغداد ، والذي كان يطلق عليه بالوجودي في الخمسينيات والتروتسكي في الستينيات ، وكان يطلق عليه حين كان صغيرًا بإدمون ابن عديلة .

ولكن لماذا تحول عبدالرحمن إلى فيلسوف الوجودية في بغداد بلا منازع ، وتحول إدمون القوشلي تمامًا عنها ، بل عاداها وحاربها . وربما كان عبدالرحمن ذاته ضحية مؤامرة تروتسكية دبرها إدمون القوشلي بالتعاون مع برجوازي عصره فرج خدوري ، وهنا سنصل إلى أشكال أخرى : - كيف تضامنت التروتسكية البروليتارية مع البرجوازية الكومبرادورية ، ضد وجودي ستيني ، متحدر من عائلة أرستقراطية تعيش زمن انحطاطها المتدرج من العثمنة إلى الملكية إلى الجمهورية .

-٦٣-

من الثابت أن أدمون القوشلي قد تعرف إلى الوجودية نهاية الأربعينيات بواسطة المجلة المصرية «الكاتب العربي» التي كان يصدرها طه حسين . وهذا ما يثبت بطلان الكذبة التي أطلقها الستينيون من أن الفكر

الوجودي دخل العراق معهم ، وكان إدمون قد قرأ مقالات عبدالرحمن بدوي وترجماته لأرنالدز ، وطرفًا من مقالات سارتر ، وفي الخمسينيات أي في العام ١٩٥٣ تعلق بسهيل إدريس المفكر الوجودي العربي ، صديق سارتر والذي جلب الفكر الوجودي معه من باريس في حقيبته كما يقول الوجوديون العراقيون .

لقد تعلق بعايدة مطرجي التي مثلت سيمون دوبوفوار الثقافة العربية في الخمسينيات والستينيات ، وعلق في حجرته - في بيت جدته عديلة - صورتين ، واحدة لسارتر وسيمون دوبوفوار وأخرى لسهيل وعايدة إدريس معًا ، من الجهة المقابلة . كان يرى أن سهيل أجمل من سارتر ، وأن عايدة أجمل من سيمون ، فسهيل طويل وسارتر قصير ، وسهيل يرى الأمور بعينين اثنتين ، بينما سارتر يرى الأمور بعين واحدة . وهنالك أمر أكبرأهمية أسرّه إلى صديقه الوجودي (سركون صالح) الذي تعرف إلى الوجودية في مقهى واق واق في ساحة عنتر أواخر الحرب العالمية الثانية - إنه يحب عايدة لأنها شريفة ، بينما سيمون ولأنها فرنسية فقد تنقلت في أحضان آلاف الرجال قبل أن تنام في حضن سارتر - هكذا فإن الوجودية العربية أعظم من الوجودية الفرنسية وأشرف منها .

ربما أغرى هذا الأمر أحد أشقياء بغداد في محلة تحت التكية بأن يطلق على نفسه «عباس وجودية» ، فكان عباس يدخل المقاهي وبيده خنجر ، ويصرخ :

«الوجودي على صفحة ، والعدمي على صفحة ، ومن يكره الوجودية على الأرض انبطحه» . كان عباس وجودية يتفاخر في ملاهي ومقاهي بغداد أمام أصدقائه الأشقياء ، أن بإمكان سارتر أن يغلق ثلاثة مقاهي في مونمارتر في ساعة واحدة دون سكين .

وربما تأثر إدمون القوشلي بمجلة «الفكر» البغدادية التي أصدرها رسام

عراقي أوانذاك ، بمعونة من والدته الحاجة (زكية عابد) وحين توفيت الحجية أغلقت المجلة ، وهي المجلة ذاتها التي نقل فيها نعيم قطان ، خبرًا من الصحف الفرنسية عن محاضرة ألقاها سارتر في باريس ، وقد اكتظ الجمهور في القاعة مما اضطر شرطة الإنقاذ للتدخل بسبب الإغماءات التي حدثت جراء الزحام ، وكان نعيم قطان قد تعرف إلى الوجودية بوساطة قراءته باللغة الفرنسية ، بيد أن إحدى الوثائق المهمة التي تخص تلك المرحلة - وهي من الوثائق التي زودّني بها حنا يوسف - تنص على أن : (إدمون القوشلي كان صغيرًا إبان الأربعينيات ، إنما الثابت أنه تأثر بأحد أصدقائه الذين كانوا يتوافدون على مقهى واق واق (ربما سركون صالح عينه) والذي تعرف إلى الوجودية من خلال مجلة «الكاتب العربي» ، إذ قرأ المقالات المترجمة لأرنالدز ، ومقالات عبدالرحمن بدوي ، ومن ثم تعرف بمجموعة من الشباب في ذلك المقهى) .

-٦٤-

كل يوم كان يزور مقهى (واق واق) يجلس على التخوت الخشبية المغطاة بالحصران ، يشرب الشاي ويدخن . كان المقهى مزدحمًا ودافئًا من الداخل ، فيجلس قرب الواجهة الزجاجية المطلة على الشارع ليرقب المارة ، بينما كانت أسطوانة الغرامفون تدور بأنغام موسيقى كلاسيكية (روبنشتين ، بارتوك ، أو ديبوسي) .

انفتح باب المقهى :

دخل حسين مردان وجلس على طاولة بعيدة في الزاوية ، ثم التحق به بلند الحيدري وفؤاد التكرلي ، وأخذوا يقرأون بكتاب صغير كان مع حسين مردان .

الملابس الرخيصة ، الذقون غير الحليقة ، مسحة الحزن على الوجوه . .

الوجودية تسحرهم .

كان ديزموند ستيوارت يتردد على المقهى البرازيلية فيتحلق حوله الشباب ، وحين يترجم لهم مقطعًا أو مقطعين من كتاب سارتر ، تقوم الدنيا ولا تقعد .

-٦٥-

في الواقع تعرف إدمون القوشلي إلى الوجودية قبل تعرف فيلسوف الصدرية إليها ، ولكن ليس هنالك دليل واحد على أن فيلسوف الصدرية قد تأثر بإدمون القوشلي ، ولا سيما أنه تحول عنها تمامًا أواخر الخمسينيات وبداية الستينيات ، وإن كانا قد تعارفا ببعضهما أثناء زيارات الفيلسوف إلى بغداد - بعد رحيله إلى باريس لدراسة الفلسفة - إلاّ أنه - حين عرف بعلاقة الحب التي تربط ناديه خدوري (ابنة خالته) بفيلسوف الصدرية ، ثار على الوجودية ، ثار على البرجوازية والاستعمار والاستثمار ، وابتدع لنفسه مفهومًا جديدًا للتمرد ، فلم يعد التمرد الوجودي يلهبه أو يرضيه لأنه تمرد مخنث ، تمرد جبان ، ساكن ، مستسلم ، فنادية ابتعدت عنه لأن عائلتها أصبحت من طبقة أخرى هي طبقة التجار ، واستأثر بها عبدالرحمن لأنه ثري وأرستقراطي ، ووالدها يهمه المال أكثر مما يهمه الدين ، فما الذي تنفعه الوجودية؟ كان إدمون يريد الثورة ، ولم تكن هذه الثورة هي ثورة وجودية لأن الوجودي بلا ثورة ، إنما ثورة تروتسكية كاسحة والتي تعني : الفوضى ، التخريب ، الهدم ، القلع ، الاجتثاث ، ستكون الثورة لا محالة ، وسيقودها هو ، وسيهدم - أول ما يهدم - بيت البرجوازي عبدالرحمن ، ومن ثم بيت خدوري ، سيقلع بيوتهم طابوقة طابوقة ، سيربطهم بالحبال ، سيضعهم على ظهور الحمير ويقودهم أمام الناس ، ويستأثر بواسطة الثورة بنادية ، سيعريها ، سيجعلها ترتجف تحت فخذيه بعد

أن يطرحها على الفراش ، سيغتصبها اغتصابًا تروتسكيًا ، سيفوز بها على نحو جديد ، سوف لن يقول لها (يا معبودتي) إنما سيقول لها (أنت ثورتي ، أنت نتاج المكافحين ضد الاستعمار ، والاستثمار والرجعية ، ستكونين لي لأنك ملكي ، لا ملك الإقطاع والسركالية والإرستقراطية) .

وهكذا ستكون الثورة العظيمة التي أرادها إدمون وخطط لها ، وفكر بها بعيدًا عن الغثيان والاغتراب والعدم . ولكن سرعان ما انفصلت نادية عن عبدالرحمن الذي زهد بها ورحل إلى باريس ، ليأتي بفرنسية (قريبة سارتر) زوجة بدلاً منها ، وسرعان ما أطاحت الثورة آل خدوري ، وانجذبت نادية إلى تروتسكي عصره ، وإن تزوجها بعد الثورة ، فإنه لم يغتصبها على الإطلاق ، بل شعر أنه هو الذي كان مغتصبًا منها . وهكذا تحالف إدمون تروتسكي مع البرجوازي خدوري ضد فيلسوف الصدرية ، ولكن بعد أن فقد بعض امتيازاته لا كلها ، وهو بحالة أفضل مما كانت عليها حينما كان يعمل في خان ياسين الخضيري .

-٦٦-

لم يعمل آل خدوري طويلاً في خان ياسين الخضيري ، إنما كانت فترة انتقالية .

عمل إلياس خدوري في محل «كرابيت» الأرمني في صناعة الحلوى ، بينما كان فرج يعمل في صناعة سلال الخوص في محلات حسقيل طويق في منطقة المربعة ، وبغياب الأصدقاء الحميميين أصبح لهم الكثير من الخصوم والأعداء والحساد الذين يهزأون منهم عندما يتكلمون ، أو يدفعونهم - حينما يلتقون بهم - من على سلالم العمارة .

انتقل كلاهما إلى خان ياسين الخضيري في شارع ناظم باشا . ما إن لاطفهم صاحب الخان حتى شغفوا به . كانت لهم حساسية مرهفة ،

حساسية مفرطة وحاجة كبيرة إلى التعاطف . كان حبهم له يشوبه نوع من الولع بالخدمة ، ويتضاعف هذا الولع بقسوة كلما كان يتسامح معهم بإزاء الأخطاء والمساوىء الناتجة من اللامبالاة لا عن رقة الضمير . كان يعاملهم بلباقة ظاهرة ويشرب معهم عند الشرفة التي تطل على النهر وهم ينظرون إلى الشمس التي تغيب من جهة الجسر ، بينما (الغلام) يغني وهو يجذف بزورق يعبر النهر إلى الضفة الأخرى .

وبعد أن سافر صاحب الخان إلى لندن ، تمكن منهم عبود ابن نظيرة - الذي نتف لحية الصحافي الهزلي إبراهيم صالح شكر في شارع الرشيد ، بعد أن كتب الأخير مقالة هزلية تعرض فيها للحكومة في صحيفة البلاد - فلم تكن أعصابهم الضعيفة تمكنهم من مقاومة مؤامرة خيالية لا يعرفون مصدرها ، فامتثلوا لواقع الأمر ، ذلك لأن جبنهم يحملهم بقسوة على الاستسلام ، فهربا إلى محلة قنبر علي ليستقلا بمتجر وورشة صغيرة لصناعة كراسي الخيزران .

كان إفلاسهم النسبي واضحًا ، ولم تكن أحوالهم تتغير على الرغم من الجهد الباذخ الذي كانا يبذلانه ، حتى واصلا الليل مع النهار في ورشتهما التي أخذا يوسعانها شيئًا فشيئًا ،لكنهما تمكنا - بعد سنتين - من تأمين وضع مالي متوسط بوساطة أخلاق تجارية خاصة ، ونوع من الاستقلال الذي وفرته لهم تجارة البضائع الجميلة ، فبدت عليهم ملامح الرفاهية ، وأحاطت بهم الكثير من المتاجر الباذخة لصناعة الحلويات ، وتجارة الملابس ، ومتاجر المجوهرات ، والأحذية ، وبيع الأثاث ، ولكن كان حالهم قد تغير فجأة ، بعد الصفقة التي عقدها معهم التاجر الإنكليزي ريك دويل ، الذي كان جنديًا في أول سرية خيالة دخلت بغداد عقب الحرب العالمية الأولى بقياة السير مود .

اجتاز ريك دويل جسر الدوب الذي سمي فيما بعد جسر مود ، مع الهنود السيخ والكركة في احتلال بغداد ، في العام ١٩١٧ ثم سار أمام مبنى السراي ، في محلة جديد حسن باشا . وشارك في استعراض الجيش الإنكليزي في شارع الرشيد - والصورة الوحيدة لاستعراض الجيش الإنكليزي في شارع الرشيد تؤكد هذه المعلومة - وقد أمضى ريك دويل خمسة أعوام في بغداد ، ولم يعد إلى لندن إلاّ بعد الجلاء في العشرينيات .

ثم جاء هذا اليوم - بعد الحرب العالمية الثانية - ليضع باقة ورد على قبور أصدقائه الذين قتلوا في حرب الاحتلال ، وهم يطاردون الجنود العصمليين بقيادة خليل باشا ، والذين دفنوا في مقبرة الإنكليز قرب باب المعظم ، فأهدى له إلياس وفرج كرسيًا عظيمًا مصنوعًا من الخيزران الثمين للفاتح القديم ، وأجبره هذا الكرم الباذخ والاحتفاء العظيم الذي أخجله حتى كاد يبكيه ، أن يعقد صفقة لتصدير مجموعة فخمة من هذا الطراز الشرقي المغطى بالسجاد لبيعه في لندن - في محلات ماركس أند سبنسر الشهيرة - فتحولت الورشة الصغيرة إلى شركة كبيرة ، تزيّن واجهاتها الإعلانات الضوئية الملونة (شركة خدوري إخوان لتصدير كراسي الخيزران) .

أخذ فرج وإلياس يترددان على حفلات القبول وصالونات الباشوات والجلبية ، وعقدا صداقة مع بيت لاوي ، أصحاب شركات السيارات في شارع الرشيد ، وأخذا يترددان عصر كل يوم جمعة على حفلات القبول التي كان يقيمها ساسون لاوي في منزله .

وهنالك أحب فرج واحدة من أجمل اليهوديات في ذلك العصر هي إيلين افرايم .

كانت إيلين ذات بشرة نضرة تشبه إلى حد بعيد الإيطاليات ، وذلك لامتزاج مجموعة من الألوان التي يطغى عليها اللون الأبيض الصافي .

كانت تتنقل بين المدعوين بوجهها المرح ، بقميصها الأبيض ، وتنورتها المقورة ، وذراعيها المكشوفين ، كانت تتنقل هادئة مرحة ، وكان فرج ينظر إليها وهو يضع الزبدة على الخبز في سكون وترقرق ، ولم يتوقف ذهنه لحظة عن الإحساس بها ، أو التفكير بها . كان يتنفس بعمق رائحتها حين تقترب منه ، أو يقترب منها ، وهي تذوب لأدنى كلمة جميلة ، لأدنى إطراء أو عبارة مجاملة ، كانت تقف أمامه وقد صعد صدرها الساطع النافر تحت فستان الحفلة الضيق ، وقد ارتفع عنقها إلى الأعلى بصورة مستقيمة .

كانت أجواء الصالة المضاءة ، صالة الحفلة الدافئة في الشتاء ، تجعله يشعر بالجمال الأنثوي على نحو حقيقي ، على نحو متميز ، بعيدًا عن ضوضاء النهار وجلبته ، وكانت تجعله يتحرك أمامها حيث تترك إيلين فيه إحساسًا لذيذًا مثيرًا ومفسدًا أيضًا .

إلاّ أن إيلين ابنة الصيرفي الشهير افرايم ، كانت تميل إلى روبين عساف العامل في مذخر أدوية (جوري) ، الذي كان يملكه واحد من (أشهر خصوم) بيت لاوي . ولذا فإن بيت لاوي اعتبروا روبين عدوهم طالما كان يعمل في مذخر عدوهم . ولأن روبين لا يملك درهمًا ، فقد كان من الصعب عليهم تدميره ، فلا مبادلات تجارية ولا مالية ولا اقتصادية تكون وسيلة أو واسطة للقضاء عليه ، فقرروا تدميره عاطفيًا ، وهو أمر لم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق .

أما افرايم فقد علمته الصيرفة (عندك كم تساوي كم) ، فأسقط روبين عساف من حسابه ، وشطبه من قائمة الدافعين والمتنافسين على إيلين . لكن ثمة عائق واحد يمنعه من مبادلة إيلين بمال فرج خدوري ، وهو أمر

الدين ، ومن هنا برز إلى السطح واحد من أحقر الشخصيات في المجتمع اليهودي آنذاك هو مئير بن نسيم ماسك حسابات شركة بيت لاوي ، وقد زاره فرج خدوري في مكتبه وأمضى عنده ساعة أو ساعتين لتدبير أمره مع افرايم الصيرفي .

-٦٩-

كان المكتب قذرًا ، رميت على بلاطه الملون قشور الفستق وأعقاب السجائر بصورة مقززة ، وكان مئير يرتدي ثيابًا سوداء رثة لاحتكاكها بالمكتب ، فكانت جاكته مقطعة الأزرار ، أما قميصه الذي يرتديه تحت الجاكته فهو قميص صوفي خشن مبقع بالقهوة ، وربطة عنقه شبه ممزقة .

«أنت تقول إنها حيلة بسيطة» ، قال فرج .

«نعم . . . جلبي . . سهلة» . وهو يضحك بوجهه الأبيض النحيف وأنفه الطويل الذي يقطر ، وعينيه السوداوين اللتين تكادان تكونان مدوّرتين .

ثم أخذ يمسح شعره السرح – الذي يقطر دهنًا – بيده .

«بس أعطيني صورة . . وأنا أزوّر لك شهادة ميلاد يهودية . . . سهلة جلبي سهلة» .

مئير بن نسيم «يهودي خبيث ، مرابٍ ، داعر ، جبان» هكذا وصفته إحدى الوثائق التي كانت بحوزة بطرس سمحيري . تمكن آل لاوي ومئير بن نسيم من إقناع افرايم الصيرفي بأن فرج خدوري يهودي متنكر . وقد عوضه بكثير من المال لقاء إيلين ، كان فرج مستعدًا لكل شيء من أجل إيلين . . كل شيء .

وهكذا تمكن آل لاوي من تدمير خصمهم عاطفيًا ، بعد أن أذلوه . . وأهانوه حتى هرب إلى أميركا قبل زواج فرج من إيلين بأيام .

-٧٠-

تحولت إيلين إلى المسيحية ، وبعد القداس سار موكب العرس بسيارة (شوفرليت) أهداها بيت لاوي إلى فرج في عرسه ، عربونًا لصداقته ، وثمنًا لضميره .

جلست إيلين من اليمين ، وفرج من الشمال ، وتقدمتهما الربلات المذهبة في شارع الرشيد من مطعم «بلازيا رسترونت» إلى فندق «أوروبا بالاس» الكائن على نهر دجلة ليقضيا ليلة واحدة في الفندق ، ثم سافرا لقضاء شهر كامل في البندقية ، وروما ، وميلانو في إيطاليا .

هناك استمتع فرج تحت شمس الأدرياتيكي بجسد إيلين الناعم حتى عاد ثملاً من النشوة .

-٧١-

إن الانتقالة الكبرى في حياة آل خدوري هي انتقال سكناهم إلى شارع المعارف قرب كنيسة الأرمن - فرج وإيلين وإلياس وزوجته بولينا وابنتهما نادية .

لقد اختار آل خدوري منزلهما في طرف المدينة على مسافة ليست بعيدة من القصر الأبيض الذي يرتاده الملك بين آونة وأخرى . فقد شيّدا قصرًا فخمًا ذا أدوار عالية وسياج مهيب يحجز الأرض البرية الخضراء التي تسرح عليها قطعان الماشية ، عن الحديقة الهائلة التي تنبجس وسطها نافورة أمام واجهة المنزل المغطاة بالموزاييك المحزّز ، وفي المساء كانت العائلة تجتمع رجالاً ونساء : الرجال يدخنون النراجيل ، والنساء يستمتعن برشفات القهوة المهيّلة الموضوعة في أقداح من البورسلين .

كانت نادية تنتقل من الطفولة إلى المراهقة ، كان وجهها يتجرد من ملامح الأنانية ويتخذ ملامح جديدة ، ملامح الطيبة الخجلة ، الحيية . في

الصيف تنام حتى الظهر ثم تهبط إلى الأرض الخضراء المحيطة بالمنزل مع صديقتها المفضلة ، أو تتنزه بسيارة والدها حتى تجتاز الطرق الواسعة ، الطرق المزروعة بالجت والبرسيم والخس التي تمتد على مرمى البصر ، وفي الشتاء تجلس قرب الموقد لتضرم النار ، فتهتاج عواطفها البركانية العارمة .

أحيانًا كانت تذهب مع مثير بن نسيم إلى مكتبه (أصبحت له سلطة على عمها ووالدها بعد أن اشترك في تدبير مؤامرة زواج إيلين ، وأصبح له مكتب ثابت في شركة آل خدوري) . . ليعيدها في المساء إلى منزلها ، أو يطلب منه والدها أن يصحبها لتناول العشاء في مطعم «بلازيا رسترونت» في شارع الرشيد .

كانت نادية تحاول أن تنقذ طيبة والدها من الانحطاط ، كانت تحاول بطبيعتها العميقة أن تكون متماثلة مع أمها في الرقة والدقة والحساسية الفائقة ، لم تكن موهوبة لكنها حساسة ، وربما بقيت حساسيتها التي ورثتها عن والدها هي الميزة الوحيدة التي لم تنفد يومًا من الأيام .

كانت تذهب ظهيرة كل يوم إلى شركة والدها برفقة السائق أو برفقة مثير بن نسيم . بعد أن يعود والدها في الظهيرة إلى المنزل كانت ترافق السائق لتذهب إلى الشركة لتقضي بعض الوقت في مكتب اليهودي . وفي المساء تجبر والدها على تناول طعام العشاء في مطعم «بلازيا رسترونت» .

-٧٢-

تدخل نادية مع والدها ، يرافقهما مثير بن نسيم ، تختار الجلوس عند الطاولة الأخيرة قرب النافذة المطلة على الشارع ، تأكل وهي ترقب المارة ، ثم تشرب عصير الليمون . كانت تحاول أن تكون جذابة بدلالها ومرحها ، وحين تتعب من التحديق والضحك والدلال تنهض مباشرة وتخطو

بقامتها المراهقة الجميلة إلى السيارة بينما يسير خلفها الاثنان والدها ومثير .

وذات يوم «اثنين» لم تستيقظ نادية من نومها ، لا في الصباح ولا في الظهيرة .

حين أيقظها والدها من نومها ، رفضت . نامت في حجرتها يومين شبه محمومة . ولم تذهب إلى الشركة بعد هذا اليوم ، ولم تعد تطيق النظر بوجه مثير بن نسيم ، بل كانت تتحاشاه بتقزز ظاهر ، كانت تتجنبه .

بعد عام من هذا الحادث الغريب ، بعد عام واحد فقط ، هاجر مثير بن نسيم بغداد وإلى الأبد ، وترك في نفس نادية شيئًا لم تنسه على الإطلاق .

-٧٣-

إلاّ أن نادية – بعد هجرة مثير بن نسيم – أخذت تتعرف إلى حياة ثانية ، أخذت تكبر شيئًا فشيئًا ولا سيما بعد حادثة الفيضان ، لقد أصبحت شابة تساعد المنكوبين في محنتهم .

خرجت في الصباح من منزلها على عجل ، كانت ترتدي البنطلون الأبيض الضيق ، وكانت قصة شعرها الإنكليزية تزيدها جمالاً ، خرجت مع خادمتها التي كانت تمسك طنجرة الحليب ، وأخذت تتنقل بين خيم المنكوبين التي لامست سياج قصرهم ، كانت ترعاهم ، تتألم معهم ، كانت تتطلع إلى هذه الكائنات التي تشعر بخطر الموت الدائم ، خطر الموت المهدد ، وهي تتألم ، كانت تعود المرضى وترى الأطفال حليقي الرؤوس بدشاديشهم القذرة وقد أحاط بهم الذباب الشره .

لقد علمها التنقل بين خيام المنكوبين ، ومواساة الضحايا أهمية العمل ، أهمية أن تعطي للناس شيئًا من طيبتها وحنانها . وبعد شهر واحد

من حادثة الفيضان قالت لوالدها ووالدتها إنها ستبحث لها عن وظيفة . تريد أن تذهب إلى مكان آخر غير المنزل وغير الشركة :

«أريد وظيــفــة . . . أنا ســأعــمل» قــالت وهي تجلس على الأريكة بملابسها الجميلة ، وقد وضعت دبوسًا بهيئة فراشة في مؤخرة شعرها

«لماذا . . . لماذا تعملين . . . من أجل المال . . المال تحت قـدميك» . . قال والدها .

«لا . . . لا . . . أريد أن أخرج إلى الناس أريد أن أعتمد على نفسي» .

«أثّرت عليك هذه الأفكار السخيفة . . ها . .» قالت أمها وهي تضع الكتاب المقدس على الطاولة المقابلة لها .

إلاّ أن نادية أصرّت على رأيها ، وبعد ثلاثة أيام ذهبت لتعمل في مكتبة مكنزي ، وهناك تعرفت إلى الفيلسوف القادم من باريس في زيارة لأهله .

-٧٤-

حين تعود نادية من عملها تتناول غداءها ، كانت تملأ المنزل سحرًا ، وهي تتناول المحار قبالة والدها وقد انبسط المنظر الأخضر من النافذة وراءه ، ثم تحتسي شايها فتترك طبعة حمراء على الكوب الناعم الملمس .

أحيانًا تأخذ كلبها وتتنزه في الحقول الخضراء تحت المطر المنهمر والسماء السوداء ، كانت تشعر بالامتلاء أمام صوت الريح اللذيذ وهي تتنشق رائحة أزهار البرتقال ، لامعة مزركشة تحت فلقة السياج المرمرية الناصعة . لم تكن سعيدة ، إنما كانت تبدو ثملة أحيانًا ، أو كئيبة في يوم جميل .

كانت تتنقل في المنزل وهي تنعطف بخفة في الزوايا ، جالسة على كرسيها الأثير ، أو تحتجب وراء المكتبة الصغيرة ، وأحيانًا كانت تجلس أمام الموقد .

-٧٥-

دامت علاقة الفيلسوف مع نادية خدوري ستة أشهر فقط ، أي من منتصف الصيف إلى منتصف الشتاء .

جاء الفيلسوف إلى بغداد في زيارة صيفية بعد أن خاب أمله في علاقته مع نادلة مقهى فلور . أراد أن يجرب هذه المرة حظه مع المرأة الشرقية ، فأخذ يتردد إلى أماكن عديدة تزدحم فيها النساء ، وهو ينقل عينه من واحدة إلى أخرى ، وما إن تستقر عيناه على واحدة حتى تبدأ أوهامه :

يتخيّلها أولاً : عارية على الفراش ، يقيس جمالها الليلي ، يحسب بشكل دقيق إن كانت مناسبة أم لا .

ثم يتخيّلها وهي تعد فطور الصباح بملابسها البيتية البيضاء النظيفة ، ثم وهي جالسة معه في الربل بملابس السهرة ، وبعد ذلك يقرر إن كانت مناسبة أم لا . . إن كانت تستحق لقب زوجة الفيلسوف أم لا . كان عبدالرحمن يحب أن يهتم الجمهور بشخصه وبالإكسسوارات التي تحيط بشخصه ، طالما لم يكن شخصًا عاديًا بل فيلسوفًا . ومع ذلك كانت هذه النزوة تعبر أفضل تعبير عن تناقضه الجوهري ، فهو من جهة يريد الهروب من نفسه ، وذاته ، نحو الجمهور ، كان يريد الخروج من إسار وحدته ، ومن جهة أخرى كان يريد - كما تفرض عليه فلسفته ذلك - أن يكون لامباليًا ، ولا مكترثًا ، إلاّ أن كل شيء في الوجود كان يخون رغباته .

كان يدرك بشكل تام أن له عالمين : عالم داخلي ، وعالم خارجي . عالم الأعماق والعالم الموضوع على السطح ، عالم الباطن الذي يتدفق منه شعاع الفلسفة ، وعالم الخارج : عالم المهمة السهلة . ولكن لم يكن من السهل عليه أن يحل هذا الإشكال ، لم يكن من السهل عليه أن يخلق مصالحة بينهما . كان يحاول جاهدًا أن يسيطر على هذه الفروقات ، ومن

هنا بدت هذه الإشكالية : إشكالية الزواج من المرأة الشرقية ، المرأة اللاوجودية اللافلسفية على الإطلاق .

كان خياله يعوضه عن هذا الفشل الذي واجهه في الشهر الأول من زيارته لبغداد ، فبعد العودة من نوري باشا مع والده جلس في الصالة يتطلع إلى الحديقة الغابية التي تحيط بالمنزل المنيف ، كان يتصور نفسه خفيًا ، ومع ذلك هنالك امرأة . . امرأة ما ، قادرة على الشعور بفلسفته ، قادرة على إدراكه دون أن تلمسه ، قادرة على اكتشافه بين حشد من الرجال العاطلين من الفلسفة :

الوجه الذائب ، العينان المفكرتان ، وحركة اليد الهادئة وهي تصعد بانتظام إلى الفم وتهبط ، هذا التأمل الذي يعلن عن فقر الوجود وعدمه .

كان للحظات يرى أن الأمر لا يعدو أن يكون أمرًا صبيانيًا ، مملوءاً بالسخافات ، لا سيما حينما بدأ يتردد على أقاربه فيرى سلوك الفتيات البليدات اللواتي يطبقن الركب بقوة أمامه ، ويحنين الرأس إلى الأرض ليبدون خجولات . كان يحتقر هذا المشهد ، يحتقر الحب والمراسلات والانتصارات والجدل . لم تكن هذه المظاهر سوى تبذير وقت الفيلسوف ، وحرفه عن التأمل الداخلي ، وقبل يوم واحد فقط من اتخاذه قرار العودة إلى باريس ، دخل مكتبة مكنزي .

-٧٦-

كانت نادية خدوري هي التي دلّت الفيلسوف على نفسها ، وقد ميّزها هو من بين جميع النساء ، الحزينات والخجلات . إنها امرأة يمكن تمييزها من دون صعوبة : اللباس المورد ، الزهرة الموضوعة على شعرها ، الصوت الهادىء الحنون ، اللكنة المسيحية المختلفة ، لم تكن على شاكلة الأخريات العاطلات عن الجمال أو اللواتي يطرزن بصمت في زاوية من زوايا المنزل .

لقد شعر بأنها يمكنها أن تقاسمه تجربته ، فهي على الأقل حين يقول «سارتر» تقول :

«أعرفه . . . أعرف كتاب «الغثيان» سعره ٢٠٠ فلس ، عندنا منه في المكتبة» .

وحين يقول «كامو» تقول له :

«أعرفه أيضًا . . له رواية بعنوان «الغريب» سعرها لو ١٥٠ فلس لو ٢٠٠ فلس . لا أذكر» .

المهم أنها تعرف . . تعرف سهيل إدريس ودار الآداب ، تعرف سيمون دو فوار وعايدة مطرجي إدريس . حتى لو كانت تعرف من الكتب أسعارها فقط ، وهي ميزة ليست سهلة على الإطلاق ، فأنت لو بحثت بين وجوديي الأرض كلها ، فلن تجد أحدًا منهم يجيد معرفة أسعار الكتب الوجودية على الإطلاق ، وبالتالي ستكون شيئًا مضافًا إلى فلسفته ، وهو سعر الفلسفة وما تزنه في الخارج ، ولو كانت امرأة غيرها لقالت ببلاهة :

«سارتر؟ سارتر منو؟» .

حينما يدخل المكتبة ، ويبحث بين رفوف الكتب وهو مرهق من الغثيان ، كان يراها متوحدة مع الأغلفة الملونة الموضوعة على الجدار ، صورتها الحية وصورة سارتر المرسومة على الغلاف . وهكذا منحته هذه الصورة عاطفة عميقة ، عاطفة كتابية : أي التوحد بين المرأة وأنواع الكتب الموضوعة على الرفوف . كان حضوره ومزاجه يؤثران فيها على نحو متواصل ، كانت تشعر به وهو يضغط عليها ، يضغط على أعصابها ، كان يبدي نوعًا من التسلط الذي يضغط على انفعالاتها .

وهي من جانبها كانت تتصرف معه بطريقة لائقة .

كان يقضي ساعة أو ساعتين في المكتبة ، يقرأ ، يقلب بين رفوف الكتب ، يبحث عن كتاب هنا وكتاب هناك ، وفي لحظات الخلوة تتعلق

نظراتهما بعضهم ببعض ، فتشعر بحرية الاندفاع نحوه ، والتفكير به ، فتبدو أكثر أنوثة ودلالاً ، فيندفع نحوها بقوة .

وحين سألته :

«أنت تقرأ كثيرًا ، أليس كذلك؟» .

«نعم ، أنا فيلسوف» .

وهكذا بدأت قصة حب الفيلسوف مع نادية خدوري ، وهي نقطة خلاف إدمون القوشلي مع الوجودية ، وانجذابه شيئًا فشيئًا نحو التروتسكية .

-٧٧-

كان إدمون يحبها بعمق وحين يزورها في منزلها ، لا يدخل أول الأمر بل يقف في المدخل لدقائق قبل أن يدخل الصالة ، كان طويلاً ، رأسه يلامس الثريا الكرستال المعلقة في السقف ، وحين يرى نادية يتجمد في ملابسه .

تتقدم نادية نحوه إلى المدخل ، تصافحه ، وتجذبه برقة ، ثم تقوم بإشعال مصابيح الصالة . كان هنالك على الدوام صورة للعذراء تزين الغرفة ، صورة معلقة على الجدار فوق الوجاق الذي تشتعل فيه النيران . ثمة مسابح فضية إلى جوارها ، أيقونة للمسيح سوداء ، وصحن من البخور على منضدة قريبة ، وعلى الرف الواطىء المصنوع من الصاج الثمين ، كتاب الإنجيل مفتوح على الدوام على صفحة كانت تقرأ بها نادية .

«تقرئين الإنجيل؟» قال إدمون قبل أن يرفع عينيه إليها .

«كل يوم . . .» كان شعرها البني ينسدل على كتفيها ، وذراعاها العاريتان بيضاوان مثل القطن .

كانت نادية ترتدي تنورة ضيقة تكشف عن جمال ساقيها ، ووجهها

الحنون كان عذبًا وطريًا ، وهي تركز عينيها في عيني ابن خالتها العميقتين .

«مسيحية . . . ها . مسيحية وتحبين مسلم؟» قال .

صمتت . لم تشعر بأي ارتباك ، كانت رؤوس المصابيح المغطاة بدانتيلا ورقية ترسل ضوءاً خافتًا ، فأخذت عيناها تبتعدان عنه ، وسرحت عبر النافذة لتفكر بشيء بعيد .

«ألا تحبين؟» .

«كنت أظنك لا تفرق بين مسيحي ومسلم» .

«وأنت لا تفرقين؟» .

«حين أحب لا أفرق . . . الحب لا يفرق» .

«أنا لا أفرق . . ولكن حين أحب أفرق . .» قال واغرورقت عيناه بالدموع . أخذ ينقل عينيه بين الأشياء التي تزدحم فيها الصالة . الساعة الضخمة فوق المدفئة ، علبة الحلي الفضية ، الأقفال الموضوعة على الوجاق ، الكنزة المرمية على الأريكة وقربها صنارتان من العاج . ثم نهض من مكانه ليرحل ، وهو يغالب البكاء ، بينما كانت نادية صامتة ، وقد عصر الحزن قلبها ، وما إن إنصفق الباب خلفه ، حتى سمعت نشيجه في الحديقة ، ارتمت نادية على الكرسي الذي كان جالسًا عليه وانخرطت ببكاء حار .

-٧٨-

حين رآها عبدالرحمن أول مرة سُحر بها .

لم تكن ترتدي نظارة كما كان يحب ، وثنّيات جواربها لم تكن موضوعة في مكانها ، كان ينظر إلى ردائها اللاصق بجسدها ، كان ينظر إلى شحوب وجهها المميز ، وهي تتحرك أمامه ، كما أنه لم يجد في وجهها

هذا الكبت أو التعالي ، لقد أحب هدوءها وطبيعة نفسها الواثقة ، ومحاولاتها المتواصلة لإبهاره وإغوائه ، فأحدث ذلك الأمر انطباعًا جيدًا في نفسه .

لم تكن تضايقه شخصيتها العصبية ولا نكاتها ولا لمستها ولا شعورها اللطيف ولا برودة وجهها الحائر المتحفظ ، إنما كان ذلك يبعث فيه نوعًا من الاهتمام أكثر مما كان يبعث لديه البهجة الناتجة من الإغواء الجنسي . كانت جامدة إلى حد ما ، مصممة ، وحازمة ، فسرّته هذه الطبيعة العصبية التي كانت تمتاز بها على العاهرات اللواتي عرفهن في باريس . كانت بالنسبة إليه مكانًا لاكتشاف عظيم ، مكانًا لمغامرة ، أو لمقامرة ، أو لامتلاك - إذ استخدمنا الكلمة المناسبة - وكان يريد أن يصل إلى الحكم الموضوعي ، إلى الحكمة الفلسفية ، الحكمة العقلانية دون ضياع شيء من نفسه . كان يريد أن يفكر بها لا بوصفها كلمة ، إنما بوصفها شيئًا آخر ، مرادفًا للجمال مثلاً . وفي تلك الأثناء كانت نادية خدوري تضحك وهي تشرب العصير المحلي ، وتغمز له بعين واحدة ، بينما كانت تحاول أن تلعق بلسانها قطرة من العصير هبطت أسفل شفتها السفلى ، فأحب استعادة حركة الشفتين اللتين عادتا إلى مكانهما دون أن تحدثا ضجة كبيرة .

أثارت ارتباكه مباشرة .

لم يكن سهلاً عليه أن يقاومها ، وكما لم يكن سهلاً عليه أن يجذبها ، كانت قد هدّته بتحفظها المصطنع . وحين كان يتركها ، تسيطر عليه بهذا السحر ، السحر الجبار الذي هزم إدمون قبله .

كان ضعيفًا أمام هذه النعومة الساذجة ، كانت تثير لديه أشياء غريبة ، وحين تكذب فإنه سرعان ما يصدقها ، وتضحك فيدرك أنها من المتآمرين على قلبه .

كان يحاول أن يشرح لها أهمية الفلسفة ، كان يدرك جيدًا أنه لم يكن ذلك الساذج الذي يظن أن الأنف خلقه الله لنضع عليه النظارات ، وأن الأقدام مخلوقة هكذا لتستوعب الجوارب ، وأن الإنسان خلق ليكون طعمًا للموت ، إنما كان يحاول أن يشرح أنها إذا رأت بحارًا قد تساقطت أسنانه فإن هذا لن يكون إلا من مرض الأسقربوط .

لقد كانت السببية تؤرقه .

لم يكن يقوى على الاحتفاظ بسر الحب .

حين بدأ الحب بدأت الغيرة . كان يحبها ، بل كان يعبدها ، ودفعته سذاجة قلبه إلى أن يستجيب لكل رغباتها . لقد شعر أن الأمور تخرج من سيطرته . ولئن كان يعرف جيدًا أن الفتيات جديرات بالشفقة وغبيات ومنفردات إلاّ أنه لم يكن يخشى المقامرة ، كان يدرك أن عليه أن يتزوج منها ، لأنها ببساطة قادرة على فهم فلسفته وحكمته ، أو كان ثمة تطابق بينه وبين حكمتها وطبيعتها وقدرتها على فهم الفلسفة وطاقتها على احتماله . وطالما كان يشعر بأن الله قد خلق كل شيء لخدمته لذا فإنه أدرك أنها المعبود الذي خلقه الله له ، ولتقبيله ، مثلما صنع الإنكليز البراندي بالليمون لإسكاره .

إن السببية حقيقة فلسفية ، ولكنه ولأنه مركز هذا الكون لذا ليس هنالك من سبب خارج وجوده .

كان يريد العودة مبكرًا إلى منزله لينام جيدًا ، كان يعرف بغريزته أن كلّ مغامرة لا تنتهي ببساطة ، لا تنتهي بالسهولة التي نتوقعها عنها ، لذا على هذه المغامرة أن تكون مغامرة محسوبة ، وعليه أن يسعى للعدول عنها في الوقت المناسب ، عليه أن يرسم الأمر جيدًا ، وإلا ما الفرق بينه وبين العامة؟ عليه أن يستعرض كل مغامرات المشاهير من سارتر إلى بطل براند بروك .

لقد كان بحاجة للحب ، ومضى الأمر سهلاً هذه المرة ، وضميره لم يتلوث إلاّ قليلاً . شعر بأنه يستمتع بمتعة كبيرة دون آلام مع نادلة مقهى فلور ، متعة ربما أكبر من المتعة المحدودة التي وفرتها عاهرات الكونت بروت في باريس . شعر بأن هذا الحب لم يكن مدعاة للقلق ، إنما مضى سـ ريعًا مثل عبور القنطرة ، مثل الالتفاتة المصحوبة بابتسامة وهو يغادر المكتبة ، حيث اصطحبها للمرة الأولى في جولة في بغداد بعدما خرجت من المكتبة ، ذهبا معًا إلى السينما ثم قهوة إكسبرس الشرق ، بعد ذلك إلى مطعم لوكس فانت .

اكتشف أنها صمتة طوال الوقت ، ووجد أن لها مزاجًا منحرفًا قليلاً ، وهي خسة لا تحتمل ، لقد كاد أن ينفجر بعدما ثرثر كثيرًا عن الفلسفة ، كان يريد أن يقول لها ثمة فلسفة كاملة قائمة على الكلام ،وأن الكلام هو نوع من التطهير وهو الذي يمنحنا سعادة كاملة ، فالفلسفة هي فن الكلام ، فن الثرثرة أمام فتاة جميلة مثلها .

-٧٩-

في عيد الفصح كانت نادية وأمها وإيلين مدعوات إلى بيت عديلة في جديد حسن باشا .

حين هبطن من السيارة أمام الباب ضجت الفتيات لتقبيلهن عند النزول ، ولم يكن إدمون ساعتها في المنزل .

دخلت نادية الصالة الواسعة في بيت نينا عديلة ، كانت صورة العذراء على الجدار ، الصليب على الباب ، وأم بطرس (عايدة بنت سمعان) كانت تنظف الزجاج ، وابنتها كانت تحمل الطبق وتقدم للعائلة السكاكر الدائمة الصفرة ، كان هنالك البندق واللوز والحلويات ، بينما كان سمعان يصلي ويبخر ، ويرش البيت بالماء المقدس الذي يأخذه من جرن المعمودية .

كانت رائحة البخور العتيقة تغطي المنزل بسحابة متقطعة ، الشموع توقد في أوانٍ نحاسية مزخرفة ، لهبها اللاصف المدبب يتراقص ، والمنزل يضج بثرثرة الفَتيات : الضحكات الناعمة ، الأحاديث بصوت عال ، عايدة وجورجيت بنات سمعان عم إدمون ، نادية ابنة خالته ، إيلين زوجة عم نادية ، أنيسة وسلوى بنات حنا القوشلي ، سوزان زوجة مروكي ، ومن الجيران : جنة وفلاديا وأميرة وأخريات ، ومن الجيران المسلمين واليهود أيضًا : رحمة ، حمدية ، سعاد بنت مدير الشرطة السابق ، مية بنت عبدالقادر المميز ، رفلة الداودي ، وكارنا أجاص بنت الصيدلاني .

كانت العقود والخواتم تومض ، تشع بخفوت على ضوء الشموع ، والضحكات الأنثوية تملأ المنزل .

دخل إدمون فجأة ، وقعت عيناه على نادية : لقد سحرته بروعة بشرتها البيضاء ، وإغواء قامتها ، ونعومة أناملها التي يخترقها النور .

سلم على الفتيات وهو يتصنع ابتسامة ، حتى وقف أمام نادية فشعر بقلبه وهو يتهدم ، بينما أحنت نادية رأسها على كتاب رقيق ، بغلاف وردي ، وكانت رموشها تترك ظلاً خفيفًا على وجنتيها الشفافتين .

«أهلاً نادية . . . ألا تسألين عن نينا عديلة»؟

صمتت نادية . . . الوجه الدائري الأبيض ، لحمها الطري الشفاف ، أنفها المستقيم ، والبريق المنبعث من عينيها اللوزيتين ، جعلته يهتز ، لم يعرف ما يفعله أمامها ، فجاء بطبق سكاكر العيد ، وقدم لها ، فتناولت قطعة ، ووسعت فتحة شفتيها - لكي تحافظ على حمرتها - ثم قضمتها بأسنانها الناصعة ، مدت إصبعيها إلى كأس من نحاس مزخرف مملوء بماء الورد ، فناولها منديله الأبيض ، مسحت به وأعادته له .

أخذ إدمون المنديل ودخل غرفته وهو على حافة البكاء ، أضاء النور ، جلس أمام صورة تروتسكي الموضوعة على الكومدينو ، صفن صفنةطويلة

في الصورة ثم انخرط ببكاء حار .

كان يعذبه أن يرى سارتر ينتصر على تروتسكي ، يؤلمه أن يتخيل عبدالرحمن وهو يسير مع نادية سعيدًا في الشارع ، أو يجلس معها في الكافتيريا ، وهي سعيدة معه .

-٨٠-

كان عبدالرحمن يتردد على مكتبة مكنزي كل يوم تقريبًا ، ينظر إليها مبتسمًا وهو ينفث من غليونه نفثات متقطعة في الهواء ، كانت نادية تضع شرائط زهرية اللون على شعرها ، وهي بثوبها الجميل المطرز بزهور صغيرة ، أنفها المستقيم ، ذقنها باستدارته الدقيقة ، كانت تظهر بوضوح أمام الزجاجة التي تقابله . . وهو لا يكف عن النظر إليها ، كان يريد أن يفحصها بنظراته ، كان يريد أن يلتهمها ، كأنه لن يراها بعدُ مع أنه له موعد معها كل يوم بعد العمل في كافيتريا «إكسبرس الشرق» قرب جسر مود ، ليتناولا القهوة ويتحدثا حديثًا حميميًا لساعة أو ساعتين دون انقطاع .

كان إدمون يدرك جيدًا أن عبدالرحمن يتردد عليها في مكتبة مكنزي كل يوم تقريبًا . كان يدرك أنه يفاجئها كل يوم مبتسمًا بخطواته النفاجة ، وهو ينفث من غليونه نفثات متقطعة في الهواء . كان يعذبه أن يفكر بنادية وهي تضع شرائط زهرية على شعرها المسرّح وتتهادى في المكتبة بتنورتها الجميلة المورّدة بزهور صغيرة ، كان يريد جعل نفسه محل عبدالرحمن وهو ينظر منبهرًا إليها ، وهي تظهر بوضوح أمام الزجاجة التي تقابله ، وهو لا يكف عن النظر إليها .

لكن ماذا يقول إدمون لو علم أنها تذهب معه في لقاء يتكرر كل يوم في كافتيريا إكسبرس الشرق قرب جسر مود ، ليتناولا القهوة؟

ومن المرة الثالثة حاول عبدالرحمن أن يقبلها فامتنعت :

جذبها إليه فانفرجت شفتاها وهي ترتجف ، واغرورقت عيناها بطبقة شفافة من الدمع ، أخذ قلبها يدق بقوة ، فأبعدته بيدها ، وأخذت تتنهد تنهدات حادة ، قالت له بصوت مبحوح :

«لا . . . لاَ ما أقدر» .

«لماذا . .» قال عبدالرحمن وهو يلكزها بفخذه ، ومدّ يده ليتحسس فخذها الناعم تحت الطاولة . . .

«لا أدري . . - وأبعدت يده . . - ترتبط هذه الأشياء في نفسي بالقذارة . . . ترتبط بحادثة» .

«أية حادثة!» .

«لا أستطيع . . . لا أستطيع . . . ونهضت من مكانها» .

كان عبدالرحمن يفكر بها ، بجمالها ، وبحبه الأكثر قوة وعنفًا من حبها . لم يكن عبدالرحمن يدرك أن الحب يمكن أن يكون عنيفًا وصامتًا ، وقد كان يكره هدوءها وبرودتها ، لأن الحب لا يخضع إلاّ لقوانين حتمية ، قوانين مجهولة ، تجعله راغبًا بكل قوة أن يذوب فيها .

وقف مندهشًا ومنفعلاً أمامها ، أدرك بما لا يقبل الشك أنه شوّه الحب بالذاكرة مرة ، وبالشك مرة أخرى ، ومع ذلك خرج من الكافتيريا وأخذ يسير إلى جانبها في شارع الرشيد بهدوء . كانا يتحدثان فعادت الألفة مرة أخرى إليهما ، حتى كاد جسداهما أن يتلاصقا ، كانا يتحدثان دون انقطاع .

هنالك في حالة الحب صراع دائم من أجل الكلمات ، هناك ولع بالأصوات الرنانة وسعي دائب لخلق عبارات وإيقاعات محسوسة . كان يطيب للفيلسوف أن يتألق أمام نادية بالحديث عن الوجودية ، عن الغثيان ، الاغتراب ، العبث ، العدم ، وكانت هي شغوفة بهذا الغموض الذي

يبعدها عن التفكير بالجنس ، وتغرم بآخر فيلسوف من سلالة الفلاسفة . كانت تحب هذا الميل للأوهام ، هذا الحنين إلى المحظور ، والقدرة الفائقة والحساسة على خلق الأعمال العظيمة بالهواء ، وكان عبدالرحمن يحب أن يسير أمامها متأملاً متكلمًا بصورة متواصلة وهي تهتف أمامه من شدة الفرح .

«فيلسوف عظيم» .

كان يريدها أن توقف إعجابها عليه ، كان يريدها على الدوام أن تشعر بعظمته ، ففي كل مرة يسألها بعد أن يحدثها عن بطولاته الفلسفية مع أعظم مفكري الغرب :

«ها . . . ما رأيك بي؟» .

«فيلسوف عظيم» .

كان عبدالرحمن يرتعد خوفًا من الإهمال والجفاء والنكران . وكان لديه توق لا محدود ليسمع شيئًا عن عظمته ، لأن الهواجس ترده إلى واقعة ، ترده إلى الأرض بعد أن يحلّق بعيدًا في عالم الأوهام ، فالحب جنون . مرض وهو لا يقنع إلاّ بالجشع الجسدي ، إلاّ بالجنس ، وكان تقشف نادية يخنقه ، يجعله يشعر بالتقزز ، كان يريدها أن تتعطش له وحده ، صار هذا الميل الأزلي لديه واضحًا ، كانت أمنيته تشل حركته ، فيرتد إلى الكلام لأنه يريد أن يمنع نفسه من أن يحصرها على سياج كنيسة الأرمن ، ويضغطها بجسده بقوة ، حتى يجعلها تستسلم . لكن ، لم تكن نادية بريئة إنما كانت تعيش في داخلها صراعًا قاسيًا ، بين نظام جسدها وبين الذاكرة المفروضة على الجسد . كانت تريد أن تحل هذه الفوضى بالتلذذ بعذابه ، لقد وجدته هشًا ، هشًا لا بطلاً ، تعرف أن الفيلسوف لا يفضل الرجل العادي بارتفاع حذاء عن الأرض ، كانت تراه خياليًا وضعيفًا إلاّ أنها تتظاهر بأنها تصدقه ، تصدق كذباته المتواصلة المفارقة للحقيقة ، وهو يعتقد

بأنها تصدقه ، وهي ترى فيه هذه الكذبات السهلة وتدرك أنه مخلوق هكذا : من السهل عليه أن يبكي ، من السهل عليه أن يضحك . لم يكن سوى تنافر بين سعادة وسراب ، ولا وجود له إلاّ في خياله ، كانت تدرك أن له مخيّلة حرة خلقتها الأوهام والوساوس والأوجاع ، والفشل والنكران . كان يريد أن يربط حنينه وذكرياته بها ارتباطًا شديدًا . إلاّ أنه بعد أن يوصلها إلى منزلها كان يشعر وقد سيطر عليه الملل تمامًا ، كان يشعر وقد سيطرت عليه الكآبة ، لأن الكلام الذي لا يؤدي إلى الجنس يشعره بالخواء ، كان يشعر بفشل أسطورته في أن يخلق من نفسه وجوديًا مدمرًا عن طريق الكلمات المتلاحقة التي تتطاير بالهواء . وحين يعود إلى منزله كان يشعر بالتقزز ، كان يشعر بأنه قد ابتعد عن ذاته بوساطة اندماجه بالآخر ، وأنه يفقد هويته شيئًا فشيئًا . كان يقف أمام شجرة الليمون وسط حديقة والده وفي ذهنه صورة واحدة عنها ، صورة كريهة يحقد عليها ، ويريد أن يتحرر منها ، كان يريد تقبيلها ويشتهي أكثر ما يشتهي اغتصابها ، ولكن زنزانة العالم كانت ضيقة عليه ، كان يريد الالتحام بعالم آخر ، بعالم لا متناه ، ولذا وضع بينه وبينها كل صور الانفصال ، كل أنواع الحواجز الدفاعية ليتخلص منها ، كان يريد في داخله أن يتركها إلى اللامبالاة ، كان يريد أن يرميها بعيدًا عن ذاته ، ولكن كيف؟

فهو من جهة كان يرغب بها ، كان يشعر بتقززه من الزواج لأنه لا يريد أن ينقل - بواسطة المصارعة الحرة على الفراش - تفاهة الحياة إلى كائن بشري يعيش التعاسة ذاتها ، والآلام نفسها .

كان يحب الفجور ، كان يراه أقرب إلى نفسه ، لأنه نوع من التجديد لفكره ولمخيلته ، نوع من المحرّم الذي يجول بخاطره ، نوع من العبادة المتعطشة ، نوع من العزلة ، نوع من الامتلاء الذي لا يعرفه أحد ، رخيص ممتع ، محرّم ، إنه يفك قيود الأحلام الشهوانية ، ويخلصه من الدمل ،

والأمراض العصبية ، وكره الجسد بوصفه علة من علل الوجود ، ويخلصه من المقت ونقص الحياة وأتلافها بالكامل .

لم يكن يعرف ماذا يفعل وهو ينظر إلى بوابة منزله ، وحين اقترب من الباب رأى الهر الأسود عند النافذة يتحرك قليلاً ، فبحث عن المكنسة ، حملها وركض وراءه ، بينما شرع الكلب في إحدى زوايا الحديقة بنبا حه .

أخذ عبدالرحمن يسب ويشتم بكلمات لا يمكن تكرارها ، لقد أراد أن يكيل كل الإهانات إلى وجه نادية ، لا إلى الهر ، كانت هي التهديد الحقيقي لوجوده لا هذا الهر الأسود .

وحين عاد إلى حجرته شرع بالسكر ، أخذ يصب الويسكي في كأس مضلعة فيها ثلاثة مكعبات ثلج ، تناول ديوان نزار قباني «قصائد» وأخذ يقرأ قصيدة «وجودية» التي تتحدث عن جانبين الوجودية في باريس ، كانت عينها تبكي سماء باريس الرمادية ، كان يفكر بخفها الجميل ، وهسهسات الحلق الطويل ، وقصة شعرها الغلامية ، كان يفكر بلون فستانها ، وكيف ترقص مع الجاز ومع العصافير ، وكيف تسير تحت المصابيح المسائية في حارة باريسية ضيقة ، كان يفكر بصندلها ، كان يفكر كيف كانت إنسانة حية ، تريد أن تختار ما تراه وتحرق الحياة من حبها للحياة ، وهو يصغي إلى الكلب الدائم النباح . لم يكن عبدالرحمن قادرًا على التغلب على هذه الصدمة ، على مسيرة الحب التي تتعرج وتلتف وتدور كالحلزون .

كان الحب يسبب له نوعًا من التضافر بين الألم والمتعة معًا ، يشعر بنفسه أكثر تورطًا ، إلاّ أنه في الصباح وجد نفسه أكثر اندفاعًا إلى رؤيتها على الرغم من تقززه منها .

ذهب في الصباح إلى المكتبة ، توقف أمامها مباشرة ، كان شعره منكوشًا ولحيته لم يحلقها منذ يومين ، بينما كانت هي في أزهى أناقتها ،

أناقة من سقطت في الغرام فتألقت : الشعر المصفف بالكريم ، الحمرة القانية ، الوجه المورّد ، والعطر اللاذع الذي ينبعث من جسدها على بعد مترين ، وقد وضعت معطفًا أحمر على كتفها ، وإيشاربًا برتقاليًا لفّت به العنق . لقد حطمت بجمالها الجبروت الذي كان يتحلى به عبدالرحمن ، وتركت شيئًا في بطنه ، شيئًا أشبه بالغازات التي تصعد حتى كادت تخنقه .

لم يكن عبدالرحمن مترددًا أمامها إلاّ أنه لم يكن قادرًا على العثور على موضوعه بسهولة ويسر ، وفي تلك اللحظة شعر بقدرتها وسيطرتها عليه ، شعر بأنه مأسور وسجين لفتنتها ، وأنه غير قادر على الانفلات من هذا السحر ، غير قادر على الخلاص ، وأن الأمر برمته قد خرج من يديه ، فقال لها بهدوء :

«أنا أحبك . . . أريد أن أتزوجك . .» .

«أرجوك . . نحن في مكان عمل . . . هناك كتب سارتر في الرف الأخير» .

صاحت نادية بصوت عالٍ ، كانت قسماتها وملامحها ثابتة ، فأدرك تكرار هذا المشهد : هنالك على الدوام عاشق يذهب إلى عشيقة غاضبة ، يقول لها كلمة ، كلمة واحدة ، فتصرخ به أنها في مكان عمل ، وتشير بأصبعها إلى ضالته ، لتوهم الزبائن بأنه يتحرش بها ، تهدده بأنه لو تجرأ ، فسيكون مصيره أسود ممن سيخرجونه من الباب بالضرب .

«أنا لا أحبك لأنك لا تحبينني» قال لها عبدالرحمن بهدوء . . في اليوم التالي .

كان المطر يهطل بقوة في شارع الرشيد ، وهما ينظران من زجاج كافتيريا إكسبرس الشرق قرب جسر مود . بكت نادية ووضعت يدها على عينيها ، فأدرك سهولة تلك الخدعة ، خدعة العاشقة ذات الطابع

الكلاسيكي .

«قررت أن أتركك وأذهب إلى باريس» قال . رفعت رأسها إليه وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، واحمر خداها ، ثم حولت وجهها لتنظر عبر الزجاج ، فرأت المارة يتراكضون وهم يحملون المظلات ، كانت السيارات تمر بسرعة ، بينما مرّ شخص يضع يده على كتف امرأة شابة وهما يضحكان وقد تساقط المطر على وجهيهما .

كان عبدالرحمن يظن أنها ستعود إليه بهذه السهولة ، إلاّ أنها حين صمتت ، أدرك بقوة ، الأسباب التي جعلت منه كريهًا تلك اللحظة . لقد أدرك أن لا أمل في هذه الخدعة ، لقد أحسّ أنه ارتكب عملاً جنونيًا . وحين جاء النادل ووضع الصحف قرب فناجين القهوة التي يتصاعد منها البخار ، صمت عبدالرحمن ، وحين ذهب النادل حاول أن يتكلم ليغير ما في رأسها ، إلاّ أنه أدرك وبشكل لا جدال فيه ، أنه آن الأوان ليدفع ما عليه من ديون مستحقة .

نهضت نادية بخفة من كرسيها دون أن تنظر نحوه ، حملت حقيبتها ، وتركته وراءها وهرعت بثبات نحو الباب . تناول عبدالرحمن معطفه وقفازاته على عجل ، وضع الحساب تحت فنجان القهوة التي لم يشرب منها شيئًا وهرع بسرعة وراءها . كانت نادية تسير بسرعة فائقة غير آبهة به ، بينما كان رذاذ المطر يسيل على وجهها فترطب خداها الأبيضان المعطران بالبودرة الزاهرة ، حتى سالت على عنقها .

كانت تسير وشعرها يبتل ، وعبدالرحمن يسير وراءها مضطربًا . كان يتحسس الرسائل في جيبه ، الرسائل التي كان عليه أن يضعها في الصندوق . حاول أن يحدثها إلاّ أنه لم يفلح ، لم تكن نادية تعبأ بهِ ، بينما كان المارة يغنون ويزدحمون أمام بوابات السينما والمقاهي ، ودخان الشواء يتطاير في فضاء شارع الرشيد الرطب .

لقد أدرك عبدالرحمن أنها الرغبة التي لا يمكن تحقيقها ولا يمكنه أن يرفضها ، إلاّ أنه لم يكن صبورًا ، فسرعان ما يعود فيتمسك بها . لقد أدرك خدعتها فتظاهر بالتمرد وقلة الاكتراث ، إلاّ أن تجرد نادية وقلة اكتراثها دمراه . لقد شعر في داخله بنار الغيرة ، نار الغيرة التي كادت تحرقه . كان تفكيره بالغيرة محتومًا ، وقد ظهرت له لذة معرفتها بعد قمعها وكبحها أقل أهمية من لذة امتلاكها . وحين غادرته إلى منزلها عاد عبدالرحمن مضطربًا إلى منزله ، عاد ليتبين رغبته الحقيقية فيها ، كان آسفًا تقريبًا من تصرفاته إلاّ أن هذه القصة أعادته إلى يقينه ، ويقينه من أنه لا يمكنه أن ينتزع منها شيئًا لا ترغب به ، لقد ردته نادية إلى حجمه الحقيقي ، وذلك بتمسكها الشديد بكرامتها ، وحين أدار لها رأسه ، أدارت له رأسها . وفي حديقة منزله علم في قرارة نفسه أن لا فائدة من العناد ، لا جدوى منه ، وإن استمر الإحساس والذكاء معًا في الحب ، فإنهما لن يؤديا إلاّ إلى تحطيم الحب وتقطعات القلب .

دخل المنزل . كان المطر يهطل في الحديقة المنسقة بالزهور ، سار خطوات على الرصيف المبلط بالرخام ، ثم طرق الباب ، فتح الخادم ، ودون أن يكلمه اندفع إلى الصالة بقوة ، كان والداه يجلسان على الأريكة المقابلة للوجاق ، تسلق السلم بسرعة دون أن يكلمهما ، دخل حجرته ، صفق الباب ، وعلى السرير قبالة صورة سارتر انفجر عبدالرحمن ببكاء حار .

لقد تبدد اعتقاده بها . علم أن هذا الحب سيدمره ، وأن عليه أن يدين الذكاء ، لأنه يهدم التوازن في الحب . استحوذت عليه فكرة جبارة ، هذه الفكرة التي أخذت تكبر ، تكبر حتى شعر بصعوبة تمثلها ، لقد كانت الآلام كافية لتركيز حبه ، كافية لتكثيفه . وبعد لحظات شعر بسعادة كبيرة وهو يرمي الكتب من على المنضدة المجاورة للفراش ، واستغرق بالوهم الذي صنعته الآلام من الحب والفلسفة معًا ، الحب الحقيقي والفلسفة الحقيقية

التي تنتصر على كل شيء ، لم يكن عبدالرحمن مهووسًا بالوجودية فحسب ، إنما كان نهمًا لها ، معاديًا لكل من يتنكر لها . لم يكن الوعظ من طبيعته ، إنما الفضول ، وتجارة الفضائح ، وهكذا هبط إلى الصالة ليراه كل من في المنزل ليعرف حتى الخدم أنه حزين ، وأنه على خلاف مع حبيبته .

سار في الصالة ، تأمل المكتبة بصمت وهو يذكي النار في الموقد ، أخذت رائحة الحطب تضوع في المكان ، في هذا الفضاء يمكنه أن يقرأ مؤلفات جان بول سارتر .

النوافذ الزجاجية العالية كانت تكشف عن شجرة نارنج وسط الحديقة ، شجرة مبللة تكشفها النافذة لمن ينظرها في الداخل ، حيث اللون الأبيض يغطي الجدران . تشمم هناك رائحة السكاكر في الآنية الفضية ، وفي السماء كانت النجوم تشع ، ثم شعر بالأثاث وهو يختفي شيئًا فشيئًا ، لم يكن يرى سوى مكان السماورات التركية ، مائدة الطعام ، البوفيه المصنوعة من شجر السوحر ، السجاد الأصفهاني الثمين الذي يفرش الأرضية ، قشور الجوز والفستق على المنضدة . لم ينتشر الضوء بصورة كاملة ، كانت حبيبات الماء تغطي زجاج النافذة ، شيء من البرد ، أريكة عالية ، كان يتذكر صائد السمك في باريس وهو يغطي أذنيه بغطاءين أسودين ، فيستبدل صورة صائد السمك بصورة سارتر .

«ماذا لو كان سارتر صياد سمك؟» .

عاد الهدوء إلى نفسه ، حين تخيل سارتر يرمي الصنارة إلى الماء ، كانت سيمون دوبوفوار قربه ، جالسة وهي ترتدي منامتها ، كانت تلوك قطعة من البسكويت ، وهو يهز بعينه العوراء ، يهز الصنارة ويضع إصبعه على فمه ، كان الهدوء يكسو وجهه مثل ركام من القطن ، كان ينهض فورًا فيرفع الصنارة ، لم يجد سمكة ، إنما دوي انفجار هائل في نهاية الصنارة ، كان سارتر يذوب شيئًا فشيئًا ، سارتر يسيل في الماء مثل قطعة جليد ، ولا

يبقى في المكان سوى بوفوار ، بوفوار التي يؤلمها ذوبان سارتر في الماء ، يؤلمها رحيل صيادها المفاجىء .

-٨١-

كانا يسيران عصرًا في الشارع المؤدي إلى كنيسة الأرمن ، وحين وصلا إلى الحديقة المواجهة لبناية «أورزدي باك» قطف زهرة ووضعها على شعرها . كانت تخبىء كل ما يهديها عبدالرحمن في جرار مكتبها ، كانت تشعر جيدًا أن تقاليد حبها جد رومانتيكية ، كانت تتجمد عند حتميات هذا الحب السينمائي ، أو الحب الموجود في روايات الحب . كانت تساير التقليد الشائع في أفلام الحب المصرية . وكي يجدد الفيلسوف الوجه الأخلاقي المتجمد لعلاقة الحب هذه ، كان يحاول أن يختلس منها قبلة أو يترك أصابعه تتسلل إلى صدرها أو فخذها ، كانت تعارض نادية بقوة ، وحين طلب منها أن تبرز وجه رفضها قررت أن تكتب له رسالة . في الوقت الذي كان يكتب لها عبدالرحمن بصورة متواصلة خطابات مملة مليئة بخيبات الأمل الكاذبة ، وثورات الغضب المصطنعة ، كان يكتب لها كي يفزعها وكان يأمل أن تخاف ، أن ترتعب ، فتقول له كلمات لم يسبق لها أن قالتها ، وأن تفيض حنانًا نحوه فيقبلها . كان يرى أن حلم الحب كله متوقف عند هذه القبلة التي من خلالها يكون بإمكانه أن يجسدها ثم يأخذها ، بإمكانه أن يستولي عليها ، ويضعها في جارور مكتبه . كان يحاول أن يثيرها ويقرأ بفضول أسارير وجهها ويتلمس بهدوء أقوالها ، كان يريد أن يؤول بحذر ما تخفيه ، ما يخيفها من هذه القبلة التي تتظاهر أمامها بقلة الاكتراث من جهة والممانعة المتماسكة من جهة أخرى : قالت له :

«سأكتب لك السبب في رسالة» .

-٨٢-

في الواقع لم أستطع العثور على هذه الرسالة التي كتبتها نادية خدوري إلى عبدالرحمن فيلسوف الصدرية على الإطلاق ، مع أن كل الوثائق تؤكد وجود هذه الرسالة ، وتؤكد أنها الرسالة التي أدت إلى قطيعة نهائية بينهما . فبعد أيام من تسلمه الرسالة وصرخته المدوّية في حجرته ، الصرخة التي أدت إلى صعود والده ووالدته والخدم إلى حجرته وهو يقرأها ببكاء وانفعال شديد ، لم يستطع أحد أن يؤكد لي أنه التقاها ، ولكن ثمة من يؤكد أنه كان يلاحقها في أماكن متعددة خلال العشرين يومًا التي تلت هذه الحادثة ، الحادثة التي سبقت سفره إلى باريس ، سفرًا استمر حتى عودته متزوجًا من ابنة خالة سارتر . ولكن الثابت أنه كان يلاحقها حينما كان تخرج من المكتبة ، يسير وراءها بهدوء في شارع الرشيد ، تذهب هي إلى المكان الذي كان من المقرر أن يلتقيا به وهو كافتيريا إكسبرس الشرق ، يظل يحوم حول المكان معللاً بالدخول إلى أورزدي باك ، أو إلى المتاجر المجاورة ، متاجر الأحذية والساعات والنظارات والجوهرية ، وبعد ساعة يخرج بحذر ليرقب الكافتيريا ، تخرج نادية كسيرة ، منقبضة النفس ، كان يلاحقها لا يكلمها ، إنما يراقبها من بعيد ، كان يعلم أنها تشعر بالضيق والانقباض وأنها على حافة الانهيار ، كان قلبه يدق بقوة ، كان يشعر بألم يحزه ، كان يرتعش لحرمانه من لذة كان يقرر امتدادها ، وهو يعلم في داخله أنه قادر على تكليمها ، ولكنه يمتنع عن هذا الأمر . وحين يعود إلى المنزل ينسل في فراشه مثل محموم ، وقد أرّقته الأفكار التي كانت تعذبه ، يستعيد صورتها ، ويبكي بهدوء على الوسادة .

-٨٣-

تمر نادية من السينما ، الناس يتوافدون راكضين بينما كانت عربات

المأكولات تعرقل السير ، يصطدم الناس بعضهم ببعض ، بعد أن يقطعوا التذاكر ، فتضيع نادية ين الصفوف على صوت الجرس الذي يقرع دون انقطاع .

-٨٤-

لم يكن بإمكانه التمييز بوضوح بين ما كان يستقر في قلبه وروحه وبين غرابة الأفكار التي كانت تدهمه ، فحزم أمره وسافر إلى باريس .
بقيت نادية خدوري في وضع لا يعرفه أحد ، إذ إنها تركت عملها في المكتبة ولازمت منزلها ، ولم يشاهدها أحد إلاّ مرة واحدة ، حين كانت توزع الجبن والقيمر والشاي على منكوبي انفجار محطة الكيلاني بعد الثورة بأيام ، حيث نصب المنكوبون خيامهم قريبًا من قصر والدها ، فخرجت نادية ترتدي بنطالاً أبيض ، وقميصًا سماويًا ، ومعها خادمها وإيلين وزوجة عمها ، كانت تداعب الأطفال بوجهها الشاحب وعيونها المتلامعة ، كانت تسير بينهم بجمالها الذي لم يهدأ قط ، وهذا ما أغرى إدمون بالتقدم إلى خطبتها بعد خمسة أشهر من هذا المشهد .

-٨٥-

كان إدمون مضطربًا وهو يسير نحو منزلها ، كان يشعر بأن نادية لصقه في روحه ، كان يشعر بها وهي ممتزجة به ، كانت تلازمه مثل مرض .
لقد شعر بنقص وجوده ، وحين أصبح أمام منزلها شعر بقلبه وهو يدق بقوة . كانت روضة الأزهار في مقدمة المنزل عند البوابة ، بينما كانت الحديقة غاطسة بالماء ، كانت الأشجار الظلية تتسلق السياج الحجر ، وفي العمق كانت أشجار النارنج مغسولة بالمطر ، وهنالك شجرتان من السرو عاليتان في مقدمة الباب التي تؤدي إلى الصالة .
سحب إدمون خيط الناقوس ، ففتح الخادم الباب .

دخل ، كانت الصالة واسعة ، نوافذها واسعة وعالية تطل على الحديقة الكثة ، وثمة أريكة من صوف مزركش ، وثريات كرستالية ضخمة تدلت من السقف ، وقرب الوجاق كان ثمة بيانو قديم وكلب صغير أخذ ينبح حينما اقترب إدمون من الزهرية التي رسمت فيها صورة نادية .

وحين دخلت نادية ابتسمت لتغير إدمون . جاكتته الحبرية وقميصه الأبيض النظيف ، وشعره المصفف المدهون ، ولحيته التروتسكية القصيرة . . منحته جمالاً لا يضارعه شباب جيله ، لقد بهرها بجسده الضخم ، وكبريائه ، وصوته الثوري المنغم ، ولكنته المسيحية ، بينما عيناه الصافيتان أخذتا تتوهجان على ألسنة النار المتلامعة في الوجاق .

جلسا ، هو ونادية على كرسيين متقابلتين حتى كادت ركبهما تتلاصق ، لقد أخذه الانفعال حين شعر بدفء المكان ، والحميمية العالية ، والرائحة الفذة التي يطلقها الوجاق . كانت أقدامه الباردة في الحذاء المبلل من المطر ، تدفأ شيئًا فشيئًا ، أخذ شعره يجف وخداه يحمرّان ، فأخرج غليونه من جيبه ، فقامت نادية أمامه وجاءت له بعلبة من تبغ والدها ، وناولته إياها ، فتسلمها منها بابتسامة ذائبة ، وأخذ يحشوه بهدوء ، فعبقت في المكان رائحة شذية . كان الوجاق يقرقر بصوت بطيء ، بصوت متقطع بفضل احتراق الحطب ، وهنالك ندى زلق على سطح مرمر الوجاق . نظر كلاهما في عيني الآخر طويلاً ، مدّ إدمون أصابعه وأخذ يداعب الصليب المذهب المعلّق على صدرها ، كان جريئًا ولم يزعجها ذلك ، لقد أعجبتها جرأته ، التصقت به ، وحين شعر بخلاء المكان حاز منها قبلة طويلة جعلتها ترتجف بين يديه مثل عصفور .

قبلة طالما تمناها عبدالرحمن .

-٨٦-

صورة واحدة فقط ، صورة كنت عثرت عليها من بين كل الوثائق التي تصور نادية وإدمون معًا ، صورة لها أهمية كبيرة ، إلاّ أني لم أستطع التأكد من أن هذه الصورة كانت قبل الزواج أم بعده .

كانا وسيمين للغاية ، وإنك لتحبهما من النظرة الأولى ، تحب شبابهما وأناقتهما . إدمون بسترته المخملية السوداء ، وبنطاله المقلم الواسع الذي يلامس حذاء أسود أنيقًا بلمعته وجلده الثمين ، بينما تضع نادية شريطًا زهريًا ملفوفًا في طرف قصتها الإنكليزية القصيرة ، كانت ترتدي ثوبًا أبيض ، ثوبًا شفافًا مصنوعًا من موسلين ، ينسحب عن زنديها العاريين الأبيضين بنعومة .

لقد وجدت هذه الصورة في أرشيف المصور حازم باك ، ومن الثابت أن إدمون ونادية كانا قد تزوجا ، والوثائق تشير كلها إلى ذلك ، تشير إلى الكنيسة التي أجريت فيها مراسيم الزواج ، وأنهما أمضيا ليلة الزفاف في منزل آل خدوري حيث انتقل إدمون إلى هناك ، وفي اليوم التالي لزواجهما سمع الخدم ، جميع الخدم ، القسم الذي ألزم إدمون نفسه به ، وهو قتل عبدالرحمن .

-٨٧-

في صبيحة اليوم التالي لزواجهما هبطت نادية مذعورة ، كانت مضطربة ، ومن أجل أن تداري اضطرابها أخذت ترتب زهور الصالة . هبط إدمون السلم حزينًا وجلس على الأريكة التي تقابلها ، كانت لحيته مبعثرة ، وشعره منكوشًا ، حاول أن يهدىء نفسه وهو يدخن بعصبية ، ثم خطا خطوات قصيرة نحوها ، لم يتمالك أعصابه ، وضع أصابعه في شعره ، ثم مسكها من أكتافها وهو يصرخ :

«كذابة . . . كذابة» .
كادت أعصابه تنهار ، وكانت أقدامه لا تقوى على حمله .
«كذابة . . أنت لست باكر» .
صمتت نادية وأشاحت بوجهها عنه .
«عملها معك عبدالرحمن . . ها هذا عبدالرحمن . . قولي» .
«لا . . . لا» صرخت نادية .

إلاّ أنه رماها على الأرض ، أراد أن يسحق أصابعها بقدمه الضخمة ، فلمت أصابعها بسرعة ، وهي منطرحة على البلاط البارد . كانت ممدّدة تتفادى ضرباته ، تنورتها ارتفعت فكشفت عن أفخاذها ، فانقلبت على بطنها ، كان صدرها العالي ينضغط على البلاط البارد . كانت تبكي وإدمون يصرخ :

«كذابة . . قولي . . وإلاّ أموتك اليوم ، هو اللي قذف بك ، هو فتح أفخاذك هو وسخك . . . يا عاهرة» .

«لا . . . لا - وأخذت تنشج وهي تضرب يدها على الأرض - لا ، أنت تريد تعذيب نفسك إدمون ، صدقني ما عبدالرحمن . . . بالمسيح ما عبدالرحمن» .

«لا ، عبدالرحمن ، أنت تريدين تدافعين عنه» .
«لا . . . بالمسيح ، بالمسيح ، يا إدمون ما عبدالرحمن اللي عملها» .
«لكن منو؟» .
«مثير بن نسيم . . . من كنت صغيرة» .
«كذابة . . .» .

«أحلفلك بالصيب مثير بن نسيم ما عبدالرحمن ، عبدالرحمن كتبت له رسالة وقلت له إني ما باكر ، لكنو هرب إلى باريس . . أقول لك الحقيقة يا إدمون لو تقطعني ما أقول غير الحقيقة» .

«ما أصدقك . . . ماكو غير هذا الوجودي الجبان ، هذا العميل القذر ، بس اصبر لي أنا إدمون بن عديلة أنا آخذ بثاري وثار شرفي» .

-٨٨-

في المساء كانت المداولات بين فرج وإلياس خدوري وإدمون حول هذا الموضوع ، رآهم الخدم وشهد لي اثنان منهم ، بأنهما رأيا الثلاثة يتحدثون عن الانتقام من عبدالرحمن .

هذان الخادمان هما بولص وأخته ملاكن ، كنت التقيتهما في منزلهما في «كمب سارة» قرب أسواق زحلة ، وقد أكد كلاهما هذا الحادث . ولم يكن بإمكاني التحقق من أن هذه الحادثة هي التي كانت السبب في موت واحد من أعظم فلاسفة الستينيات في العراق . كما لم تؤكد لي أية وثيقة ذلك ، وكان عليَّ أن أبحث في ثلاث صور محتملة لوفاته ، الأولى انتحاره :

لم يخلد الفيلسوف للراحة منذ يومين ، لقد فقد أعصابه .

خلال ثوانٍ ركّز عينيه الكابيتين المحمرتين في صورة سارتر المعلقة بإطار مذهب جميل فوق مكتبته ، لقد أخذت ركبتاه ترتجفان ، فألقى بنفسه على كرسي قريب ، وضع رأسه بين يديه ، أخذ يفكر بجدوى الحياة ، لم يكن يفكر في نفسه ، إنما كان يفكر بصوت عالٍ يفكر بهذه الملايين التي تمور حوله دون أن تدرك كنه الوجود ، وتقبل على الحياة بحماسة فظة عنيفة ، فأراد أن يخلق مثالاً .

نهض من مكانه ، فتح باب حجرته ، خطا خطوات بطيئة ، ثم ألقى نظرة تقزز على الصالة ، كان يرى كل شيء يبعث على الدوار مثل قيء أصفر ، فعاد إلى حجرته بسرعة ، دخل وأقفل الباب بالمفتاح . كان ينظر إلى الكتب الموضوعة في المكتبة بلا مبالاة ، ثم طوح رأسه إلى الوراء ، كانت الجدران عالية ، والنوافذ واسعة وقد تدلت منها الستائر المرسومة

بالألوان المائية إلى الأرض ، كانت المكتبة منضدة برفوف على الجدار ، كانت مزدحمة بالكتب ، كانت الآنية الفخارية مرتبة بأناقة في الزوايا ، إلاّ أن كل شيء في الحجرة كان يتقدم نحوه ، كل شيء كان [illegible] عليه ، يتقدم نحوه حتى شعر بالاختناق .

أخرج من الخزانة مسدسًا ، كان يتكلم مع نفسه بشكل متواصل ، وقد تعتعه السكر . كان يتكلم بشكل تأنيبي . في الحجرة ، أ[illegible] المصباح ، الكتب ، المحبرة ، المقلمة ، من أمامه ، فسقطت كلها على [illegible]س ، رفع المسدس بهدوء إلى صدره .

خرجت جرمين لتوّها من الحمام ، وقد ارتدت برنصها [illegible] جلست في الصالة . . وبعد دقائق وهي تنشف شعرها بالمنشفة ، سمعت إطلاق رصاصة في حجرته ، قفزت من مكانها وصعدت السلم ، [illegible] تطرق الباب بقوة :

«ماذا فعلت بنفسك . . ماذا فعلت بنفسك؟» لم تكن تعرف كيف تتصرف . دخل كثيرون إلى الصالة ، صعدوا مباشرة إلى الحجرة . بعدما كسروا الباب وجدوا عبدالرحمن ممدًا على الأرض ، وقد تشنجت رقبته ، وليس هناك سوى بقعة حمراء على صدره من الجهة اليسرى

-٨٩-

في الواقع تحاول هذه الوثيقة بشكل يائس أن تقنعنا بسببها ، إن الغثيان والشعور بعدميه الحياة - لا بعدمها - (لم يفرق المثقفون العراقيون آنذاك بين العدمية والعدم) هو سبب انتحار الفيلسوف ، هذا [illegible] بحاجة إلى إثبات ، ذلك لأن غثيان فيلسوف الصدرية كان باعثًا [illegible] الحياة لا التنكر لها ، كان باعثًا على إطلاق صرخة أمام جمود [illegible] وتجاوز حتمياتها ، كان الغثيان باعثًا على التهام الحياة بحماسة حربية [illegible] مما كان

باعثًا على التقشف والتقنين الجسدي . ولذا كان عليَّ أن أتجاوز هذه الوثيقة التي أصرّ صادق زاده عليها ، ووضعها في مقدمة الوثائق المهمة .

فكان عليَّ أن أتحقق من الصورة الثانية وهي المؤامرة التروتسكية :

أجتمع آل خدوري عصرًا في حديقة قصرهم ، جلسوا بشكل دائري قرب النافورة ، إدمون ، فرج ، إلياس ، إيلين ، وأم نادية ، كانوا يشربون الشاي المهيّل ، ويأكلون الكعك الذي وضعوه في آنية نحاسية تتوسطهم .

«نقتله» قال إدمون وهو يقضم الكعكة .

«لا . . .» قالت إيلين بلكنتها اليهودية ، وهي تمسك استكان الشاي والكعكة باليد اليسرى «ينغاد طغيقة ما تنكشف» وقد قلبت الراء غينًا .

«كيف؟» قالت أم نادية .

«بالفضيحة» قالت إيلين .

«فكرة ممتازة» قال فرج الذي يخشخش بالكعكة الهشة .

-٩٠-

كانت السماء صافية ، وقد تمدد على زرقتها سحاب أبيض متقطع . هبط إسماعيل من العربة في رأس شارع أنصطاز الكرملي للقاء إدمون . أخذ يسير ، كانت عيناه جاحظتين ، وشاربه مشذبًا ، ثم توقف أمام منزل كبير مطل على ساحة داخلية خلف كنيسة الآباء الكرمليين . حين دخل وجد إدمون في الباب مباشرة ، صافحه وقاده إلى المائدة الرخامية الطويلة المفروشة بالبياضات ، كان السمك المسقوف يتوسط المائدة ، وهنالك دجاجة معمولة بالرز ، وطنجرة المرق الكبيرة قربها ، كان ثمة الكثير من الحلويات ، من الأطايب والفواكه ، وثمة طبق من الخوص يحمل خبز الرقاق المرشوش بالماء . سكرة باذخة ، كؤوس الكونياك ترن ، وحديث ممتع عن حياة الفقراء ، وفائض القيمة ، والثورة التي أطاحت البورجوازيين

والإقطاع والسركالية .

وبعدما خرج إسماعيل من منزل إدمون وقد تعتعه السكر ، أخذ يترنح في الشارع الفرعي الذي يقود إلى شارع الرشيد ، كانت عيناه تومضان على علب التوفي المدورة ، وأطايب الحلويات اللذيذة المطعمة بالكراملة .

-٩١-

أخذ إسماعيل يتردد على زوجة الفيلسوف في غياب زوجها .

قبل وفاته بأسبوع واحد ، بأسبوع واحد فقط ، كان أخبر الفيلسوف زوجته بأنه سيبيت الليل خارج المنزل ، لم تكترث لهذا الأمر ، وهي تغسل وجه ابنتها على المغسلة بالصابون .

بعد منتصف الليل دخل إسماعيل المنزل ، وبغياب الزوج الذي نام عند عشيقته في الملهى ، كان عليه أن يمضي الليل معها إلى الفجر . أكلا وسكرا معًا ، وقبل أن يغادر ، طلبت منه أن يصعد معها إلى السطح عاريين .

-٩٢-

صعدت السلم المرمري بخفة حتى وصلت إلى السطح . كان جسدها مشبعًا برائحة شبقة ، استلقت عارية على السرير ، تبعها إسماعيل واستلقى إلى جانبها . ومن خلال شقوق العلية كانت تنساب الموسيقى ورائحة المنزل من الداخل . أخذا يقبلان بعضهما بقوة وهما ينظران إلى السماء الصيفية الصافية ، لقد تبعثرت النجوم مثل ياقوت على حرير ناعم ، لا شيء في هذا الليل الندي الذي شارف حرّه على الذوبان سوى عالم مفتوح ، عالم بعيد عن إرهاق الصباح .

هناك مئذنة «سراج الدين» تنبثق من الأرض ثم تعلو برقة وشفافية

حتى تكاد تختلط بأثير السماء ، قالت لإسماعيل :

«انظر إلى المئذنة كأن هناك من يراقبنا» .

ضحك ضحكة قصيرة ، التفت إليها ، ثم نظر إلى المئذنة ، ومدّ بصره إلى الشارع ، كان خاليًا إلاّ من نباح كلاب بعيدة ، وصفارة الحارس تصدح في سكون الليل .

«لا . . لا يمكن لشيخ الجامع أن يراقبنا» .

ارتفعت جرمين قليلاً عن السرير ، وضعت الشرشف على صدرها ، لتنظر من سياج السطح إلى باحة الجامع . رأت شجرة تتوسط الباحة ، كانت فاكهتها الصغيرة متربة وسط بساط من الخضرة العميقة داخل السور العالي الذي يحرم الأعين من اختلاس نظرة واحدة إلى الجنة .

تلوت جرمين في ضوء شفيف يكسو عريها بالكامل ، ويضيئه بانعكاسات باهرة . كان عريها ورديًا وهي تلتقط أنفاسها بوجه لا يحمل سوى نشوة طلقة ، أخذت تمرر يدها النضرة على صدره وبطنه ثم عدلت قوامها لتنظر وسط الجامع ، فأومأت إلى شجرة التفاح في الباحة وقالت :

«أريد واحدة . . .» .

«ماذا تقولين؟» قال إسماعيل مندهشًا .

«تفاحة . .» وانقلبت على ظهرها ، كأنها تسبح في حمام من شعاع القمر ، بينما بقيت يدها تحتضن لدونة جسده ولطافة حركته .

كانت صفارة الحارس تنطلق عند بوابة الجامع تردد بإلحاح ، فتتبعها نباح الكلاب في كل مكان . وبعدها ابتعد صوت الصفارة ارتدى إسماعيل سروالاً أسمر طويلاً مصنوعًا من الخام ، ثم هبط إلى الباحة .

صعد إسماعيل إلى الشجرة وأخذ يقطف التفاح الأخضر ويضعه في سرواله ، سمع دربكة أقدام تهبط من سلم المئذنة فوضع التفاح في سرواله وهبط إلى الأرض ، فمسكت به يدان ، الأولى من عنقه والأخرى من سرواله .

«قبضت عليك بالسروال يا زاني» .

حينها وصل الحارس بطاقيته القديمة ، ومعطفه الصوف ، وعلى ضوء القمر رأى سروالاً مليئًا بتفاح الجامع ، بينما كان إسماعيل مضطرب الوجه يطلب الرحمة .

«أنت حرامي . . . وحرامي جامع» قال الحارس وهو يعدل من بندقيته البرنو الألمانية على كتفه ، ويفتل شواربه وقد قبض أخيرًا على لص .

«وزاني» قال شيخ الجامع .

«لا حرامي وبس» قال إسماعيل .

«كنت أراقبكم من المئذنة . . . أخرتم عليّ الأذان يا فجّار» .

«هل كنت تتفرج على فيلم خلاعي يا شيخ؟» .

زم الحارس شفتيه ، واهتزت شواربه بغضب لوقاحة إسماعيل ، مدّ يده إلى سروال إسماعيل وشلحه عنه تمامًا ، ثم مسك به من يديه وربطه إلى الشجرة ، بينما صعد الشيخ إلى المئذنة ينادى أهل الصدرية للفرجة على الزاني .

كل هذا يحدث ، وجرمين تنظر بعذاب من السطح ، كانت عارية إلاّ من شراشف تلف به جسدها .

-٩٣-

كانت الفضيحة قاسية على عبدالرحمن ، والوثائق تؤكد تاريخ وفاته بعد أسبوع واحد من هذه الحادثة . جرمين رحلت إلى باريس ، إسماعيل اختفى ، إدمون هاجر إلى أستراليا ، ونادية لا يعرف عنها شيء ، أكانت هذه الحادثة مؤامرة تروتسكية دبرها إدمون مع إسماعيل؟

هل خان إسماعيل عبدالرحمن من تلقاء نفسه؟ أكان بحاجة إلى

باعث للخيانة ، وهو خائن على الدوام؟ أم أن الزوجة أرادت خيانة زوجها المنشغل بغشيانه وعبثه مع العاهرات في الملاهي؟

عليَّ أن أجيب عن هذه الأسئلة كي أكمل رحلة البحث عن حياة فيلسوف الصدرية ، التي بدأتُ بها قبل ثلاثة أشهر من الكتابة المستمرة ، وأحصل على المال الذي وعدني به حنا يوسف ونونو بهار ، وهذا ما جعلني منغمسًا كليًا بهذا الموضوع .

رحلة الفيلسوف

في صباح يوم رائق بعد أن شارفت سيرة الفيلسوف على الانتهاء ، كنت استيقظت من نومي باكرًا ، أزحت ستائر النافذة التي تطل على الشارع الواسع ، وفتحتها على مصراعيها فهبت نسمات الهواء الباردة إلى غرفتي بخفة . كان شعاع الشمس يلقي صفرته على الطوابق العلوية من العمارات والفنادق والمنازل الفخمة ، بينما كانت رائحة الحبر تذكرني بمصير الغراميات التائهة ، منذ غرفت في ظلام الأوراق بحثًا عن الكلمات السود التي تتحول شيئًا فشيئًا إلى صورة من لحم ودم .

هذه الكلمات هي التي منحت الفيلسوف يديه المشوهتين وصدره العريض وسحنته الكابية . وهي التي نظمت فوضى المكان بإلهام لا يصدق : طاولة تحتشد عليها الأوراق والوثائق ، صحف قديمة ، مجلات مرمية في كل مكان ، أكداس مسودات وصور فوتوغرافية ، أثاث الشقة الذي تراكم عليه الغبار ، وكلبي الذي ينبح بعدما ربطته بالحزام إلى قائمة السرير لكي لا يعبث بالأوراق أو يكسر الأقلام . ثمة بقايا طعام بائت ، فتات خبز أسمر مثل لطخة على الطاولة ، كيس مفتوح ، بقايا بيض

مسلوق ، وأنا مثل لاعب الشطرنج أكثر حماسة على القماشة المرقعة من الجندي في ساحة المعركة .

لقد أعتقتني الكتابة من ذلك لأني أطلقت العواطف التي لم يجد الفيلسوف لها متنفسًا أو مخرجًا ، فنفخت فيه روحًا وبعثت فيه حياة حتى أوصلته إلى الانفجار . لا أعني بذلك أني سجلت تاريخًا ، أنما شددت على خطر وعبثية التفسير الذي يستند إلى التاريخ . لقد جعلت للوهم مكانًا للشخصية في السيرة ، وردمت الهوة بين وهم الشخصية والموضوع الواقعي ، لذا فإن ما يجمع الفيلسوف المكتوب والفيلسوف الواقعي هو طريقة العيش والبيئة والشخصيات التي تحيط بهما . لقد أدركت أن الناس لا تحيا إلاّ من خلال الوهم الذي تكونه عن نفسها ، فصنعت علاقة بين الكلمات والأشياء من خلال خيال الشخصيات وأوهامها . خلقت صورة مكملة في الذهن أشد لوعة من الواقع ، وهي صورة لا يتسنى لعمل مكتوب بالدم البارد أن يضمها بين دفتيه .

كنت أنظر من النافذة إلى الشارع ، كان الهواء يهز أوراق الأشجار الفخمة ، بشبكة رقيقة من الرعشات الباردة والشفافة . وكان شعاع الشمس يختلط مع الكلس الأبيض . هناك امرأة تسير وهي تحمل كيسًا معقودًا بالدانتيلا ، بلبل يسكر في برودة الحدائق ، صوت كمان نحيف يتسلل مع الهواء المنعش عبر نافذتي ويرتخي في الحجرة مثل لحية طويلة ممشطة .

دخلت الحمام وفتحت صنبور الماء البارد ، رميت كمية من الشامبو في ماء المغطس ، خلعت ملابسي وتمددت . شعرت براحة تغمرني ، شعرت بالتعب والإرهاق وقد تسللا إلى الماء بهدوء ، فأغمضت عيني وأنا أشم رائحة الشامبو وقد نفذت بعمق إلى رئتي ، بينما سكنت أقدامي على أرضية المغطس الباردة .

فجأة تناهى إلى سمعي صوت محاولة فتح باب شقتي بالمفتاح . . . أخذ الكلب بنبح ، تجمدت من الرعب ، أحسست بجسدي وقد تحول إلى خشبة طافية في الماء ، بينما اقشعر بدني من الخوف . أدركت لحظتها توقف نباح الكلب ، قفزت من المغطس وتحركت بخطوات إلى باب الحمام ، كان جسدي يقطر ، فتحت الباب نصف فتحة : رأيت حنا يوسف يقترب من طاولة الكتابة بحذر وهو يتلفت في الغرفة ، فتناولت البرنس المعلّق على كلاب على الجدار وارتديته . خرجت .

«ماذا تفعل يا حنا هنا؟» . كان سؤالي سخيفًا بطبيعة الأمر . لأني كنت أعرف جيدًا أن ما يهم حنا في حجرتي هو سيرة الفيلسوف ، أردت سؤاله عن الكيفية التي دخل بها إلى الشقة ، ومن أين جاء بالمفتاح؟ لقد فاجأته أو أفزعته ولكي يتفادى هذا الأمر ، اطلق بوجهي ضحكة عالية :

«ها أنت هنا . . . لم أكن أعرف . . . أعذرني» .

«كيف فتحت باب الشقة حنا؟» .

«بالمفتاح» – وأخرج من جيبه كومة مفاتيح – لا أعرف صدقني . . . وجدت كومة المفاتيح هذه في جيبي ، قلت لأجرب واحدًا منها» .

«كان عليك أن تطرق الباب» صرخت بوجهه .

«بالمسيح طرقت الباب . . . طرقته لكنك لم تسمعني ، عرفت أنك غير موجود ، فقلت لأدخل وأنتظر» .

«حنا ، حين لا أكون في الشقة . . . فغير مسموح لك بالدخول ألا تعرف الأصول؟» .

«أعرف . . . ولكننا أصدقاء . . . كنت أحسب أننا أصدقاء» .

كان كلبي تمدد بجانب السرير ، ووبره الناعم الشديد السواد مبلّل بالعرق ، وعيناه تحولتا إلى عينين صفراوين بلون الكبريت ، كان يفتح شدقه الضخم ويغلقه ، نظرت مرتعبًا إليه ، كانت أنيابه قد اختفت تحت مشفريه

دون أن يستطيع فتحهما . وقبل أن أهجم عليه صرخ حنا بوجهي :

«لا تخف . . . لن يموت . . .» إلاّ أني قفزت نحوه وطرحته على الكرسي ووضعت يدي على عنقه .

«لن يموت . . . لن يموت . . . أقول لك . . . تخدير مؤقف . . . سيفيق . . . أنظر إليه . . . دقائق ويفيق» فسمعت كلبي يئن . . . وحين التفتّ إليه كان يتحرك ببطء على البلاط ، فأخليت سبيل حنا وذهبت إلى الحجرة المقابلة ، خلعت البرنس وارتديت ملابسي ، وحين عدت وجدت حنا أمام الطاولة يقلب الأوراق .

أخذت أعد القهوة ، بينما كان كلبي باسطًا يديه قرب السرير ، وقد أحنى رأسه إلى الأرضية . كان حنا يضحك وهو يقرأ ، لم يكن كما رأيته أول مرة ، إنما أكثر أناقة ، يمسك عكازًا بقبضة فضية يستند إليها للزينة ، ويرتدي جاكيتة لماعة ، وصديرية علق في جيبه الصغير ساعة فضية ، كان لون شعره الأحمر مصففًا بالدهان ، ومفروقًا من الوسط ، وقد غطى فضاء الحجرة عطره اللاذع ، لم تكن هذه الأناقة قادرة على إخفاء وجهه الداعر ولا خبثه .

وضعت قهوته إلى جانبه ، التفتّ إليه ، لم يستطع السيطرة على ارتجاف أصابعه ، فضبط ساعته ووضعها في جيب صديريته ، قال لي :

«سآخذ هذه الأوراق إلى منزلي لأقرأها» .

«لا . . . حنا . . . لم أكملها بعد» قلت .

في الواقع كنت كتبت نسختين متطابقتين من السيرة ، أخفيت واحدة في مشجب الملابس ووضعت الأخرى على الطاولة ، كنت أفكر بغموض الأحداث المقبلة ، كما أني لم أكن واثقًا حقيقة لا من حنا يوسف ولا من صادق زادة ، مع ذلك أجبرت حنا على قراءة الأوراق في شقتي .

***

غـادرت الشـقـة ، تركت حنا يكمل قـراءة أوراق ، سـرت في الشـارع وتوجهت إلى المطعم . تناولت فطوري على عجل ، واشتريت سجائر وعلبة كبريت ، وعدت سريعًا إلى الشقة ، كان حنا يمزق الأوراق التي لا تعجبه ويرميها في السلة ، فصعقت .

«ماذا تفعل حنا؟» قلت .

«لا شيء ، بعض الفقرات غير صحيحة . صدقني» .

كـان حنا قـد انتـزع جـمـيع الأوراق والوثائق التي تخص انتـحـار الفيلسوف ومزقها ، واهتم اهتمامًا شديدًا بسيرة إسماعيل حدوب . كنت وجدته يهتم بهذه الشخصية أكثر من اهتمامه بالشخصيات الأخرى ، كان يريد مني تعابير أكثر تحفيزًا وهو يضحك بصوته الداعر ، وعينيه الخبيثتين اللتين يتنقّل بهما من ورقة إلى ورقة .

«هذا يكفي . لقد كتبت ما يكفي . ألا يمكنني أن آخذ السيرة معي» .

«نعم ، بعد أن تعطيني المال» .

«سأعطيك المال غدًا . لم أكن أتوقع أنك أنهيتها . غدًا صدقني .» .

«حسن . اترك السيرة اليوم ، وبعد أن تجلب لي مستحقاتي المالية ، سأعطيك إياها» قلت له وأنا جالس قبالته على الأرض ، أمسد على رأس الكلب الذي يهز برأسه مثل سكران . لقد تلذذت بتعذيبه ، كان يتوسل وهو يمسح بيده على صلعته ، ويحاول أن يستميلني ، وحين لا يفلح يعلن عن لا أباليته ولا اكتراثه .

«سأتركها . المال محسوم . سأعطيك مالك . لا يمكنني أن أبخسك حقك . أنت عملت طوال هذه المدة .» ثم يعود يقلب الأوراق فيلتفت إليَّ :

«ولكنك لو أعطيتني إياها اليوم فسأعمل على تصحيح بعض الأخطاء التاريخية ، وأردها لك لتتداركها بخطك ، ثم أعطيك المال ، وبعد أن تنهيها سأعود مرة ثانية ، أنا ونونو بهار من أجل أخذها كاملة» .

فكرت في نفسي (ما الضير لو أعطيته نسخة ، معي نسخة أخرى ، سأتوصل من خلال تصحيح الأخطاء التاريخية إلى مقصده) .

«حسن حنا . خذ هذه الأوراق معك ، على أن تردها لي غدًا مع المال . . .» لم يتمالك أعصابه . كاد أن يفطس من الفرح . أخذ الأوراق وهو يضحك ، فتح باب الشقة وغادر على عجل .

أخذت أرتب الحجرة ، وأنقل المجلات والصحف والوثائق إلى الخزانة ، إلا أني انتبهت إلى أمر خطير ، هو أن بعض الوثائق التي تخص سيرة إسماعيل حدوب قد اختفت تمامًا ، وبدلاً من أن أستمر في ترتيب الشقة أخذت أقلب الأوراق والكتب وأتصفح المجلات والصحف ، وأنثرها على الأرض . أخذت أبحث تحت السرير وبين الملابس ، سمعت صوت طرقات خفيفة على الباب ، فتحت ، كان صادق زاده ونونو بهار دخلا إلى الشقة ، بعدما وضع صادق يده على صدري ودفعني :

«ماذا أعطيت حنا؟» .

«لا شيء .» كنت كذبت . ذلك لأني وجدت صادق وقد تطاير الغضب من عينيه .

«أين السيرة؟» قالت نونو .

فتحت خزانة الملابس وأعطيت السيرة لهما . دون أن يكلماني أخذا بتقليب الأوراق على الطاولة ، بينما عدت لأجلس جنب كلبي على الأرض .

كانت نونو تجلس على الكرسي وفي يدها حقيبتها ، بينما كان صادق زاده يقرأ وهو يجمع بيديه الضخمتين تاريخ الفيلسوف المضطرب على الطاولة الصغيرة . كان يفكر بصوت عالٍ (لا غير صحيح . أنا لم أقل هذا على الإطلاق . كذاب . كذاب) كان يشتم بغضب ويصفر ، والتفت إليّ بغضب :

«من أين جئت بهذه الوثائق؟» قال ذلك وكأنه يحاول أن ينتزع بلاطة

مخلخلة من الأرضية .

«أية وثائق؟» قلت وقد أفزعني صوته .

«الوثائق الخاصة بإسماعيل حدوب» صمتّ ، اضطربت ، لم أكن أتوقع على الإطلاق أن تاريخ إسماعيل حدوب أكثر أهمية من تاريخ الفيلسوف . لقد أوكلوا إليّ كتابة سيرة حياة الفيلسوف لا إسماعيل حدوب ، ولأن الأخير طرف مكمل للشخصية كتبت عنه .

«لكنكم قلتم لي إن المهم هو كتابة سيرة حياة الفيلسوف فما هذا الاهتمام بإسماعيل حدوب» .

لم يتمالك صادق أعصابه ، قفز من كرسيه نحوي وقبض على عنقي بيد وأخرج مسدسه باليد الأخرى وصوبه إلى رأسي ، أخذ يتكلم وهو يزبد ويرعد :

«إذا كنت كتبت حياة الفيلسوف ، ذلك لأننا دفعنالك للكتابة عنه ، ولكن من جعلك تكتب عن إسماعيل حدوب . . . ها . . . هذا الداعر هو الذي دفعك إلى ذلك» .

«لا ، لكني وجدته مكملاً لشخصية الفيلسوف . صدقني» .

كانت نونو تتوسط بيننا وهي تهدىء صادق زادة ، قائلة له :

«اتركه إسماعيل . اتركه إسماعيل» .

لم أكن أعرف أن صادق زاده هو إسماعيل حدوب إلاّ تلك اللحظة ، ولم أكتب عنه لأني أريد فضحه على الإطلاق . ولو كان اعترف لي بذلك ، لكنت زينت شخصيته ، ولم أكتب الوثائق كما هي ، تخلصًا من شره وطمعًا في المال .

وحين أفلتُّ من قبضته ، استدرت إلى الوراء وأطلقت ساقي إلى الريح ، لم أسمع تلك اللحظة إلاّ إطلاقتين تصفران في الهواء .

***

لم أعد إلى شقتي في المساء ، إنما أخذت أسأل عن عنوان هذا الجبان حنا يوسف بعدما غيّر سكنه ، فعرفت من شخص يعرفه أنه يسكن فندقًا صغيرًا يقع في نهاية شارع الرشيد فوقه لافتة مكتوب عليها باللغتين العربية والإنكليزية «أوتيل حمامة» .

وحين ذهبت إلى هناك وجدت فندقًا بائسًا بنجمة واحدة ، قاعة صغيرة يجلس فيها عامل مصري ، كهل ، يحرس قائمة المفاتيح ، وكانت القائمة مغلفة بورق كامد انعكس عليها الضوء القادم من النافذة المطلة على الشارع الصاخب . كان حنا يسكن في الطابق الثاني في حجرة فارغة إلاّ من حقائبه الثلاث ، وهداياه التي وضعها في سقيفة مربعة تقع في الطابق الأول .

انطلقت مسرعًا من القاعة نحو السلم ، قافزًا درجاته اثنتين . . اثنتين وصوت المعلم المصري يصرخ ورائي :

«يا أفندم ، لو سمحت يا أفندم» .

ارتقيت المدرج الحلزوني الذي كان له رائحة تشبه رائحة الجوارب دون توقف ، حتى أصبحت أمام حجرته ببابها الخشبي المخلع وقد كتب عليها حجرة رقم (١٣) . كنت مصممًا على ألا أطرق الباب ، فدفعت جسدي بقوة نحوها ، حتى ارتطمت بها ، فأدركت أني خلعت المزلاج من رأسه ، واندفعت بالقوة ذاتها إلى الداخل . كان حنا خارجًا من الحمام وقد وضع سيجارته في فمه مائلة وهو يزر بنطاله . وقد أدرك الشر في عيني ، ففرج شفتيه بعدما صك أسنانه على عقب السيجارة وقال بصوت خافت :

«ما أجمل التغوط المريح!» .

إلاّ أني قفزت عليه بقوة ، أمسكت به من ربطة عنقه ، وأخذته بصدري واضعًا يدي اليسرى على كتفه وهويت معه على الأرض ، كان قد تقلص بين يديَّ مثل قملة حقيرة ، رفعت ركبتي ووضعتها على بطنه ،

ومددت يدي إلى عنقه ، وسحبت باليد الأخرى حذائي وهويت به على رأسه ووجهه .

«ابن القحبة . . أين المال؟ لكسر رأسك بالحذاء» .

أخذ يتوسل ، فمه يزبد ، وشفاهه أخذت تزرقّ ، ورقبته تتشنج ، وعيناه اختفتا ، كنت أضرب وأشتم ، وبيدي اليسرى أضغط على عنقه . وحين قلت له :

«سأقتلك يا ابن العريضة» .

أخذت شفاهه تفتر عن ابتسامة ، ثم أخذ يضحك بصوت مكتوم وهو يدفع يدي عن عنقه وبعدما ارتخت يداي أخذ يضحك بكل قوة :

«ها ها . . .» .

«ما بك . . ما بك؟» صرخت وأنا ألوح بالحذاء على رأسه ، فوضع يديه أمام وجهه :

«أضحك على الشتيمة . . . فأنا لم أسمع بها من قبل ، ابن العريضة . . أول مرة أسمعها» قال وهو يفطس من الضحك بين يدي .

ضحكت وحملت نفسي شيئًا فشيئًا عن بطنه . تنحيت جانبًا ، مددت قدمي ، وجلست على الأرض وأنا أضحك ، فرفع رأسه مستندًا إلى يديه ، ومال بجذعه نحوي ، بنطاله المفتوح ، ربطة عنقه المعكردة ، وهنالك طبعة حذائي الترابية على صلعته ، لكزته بقدمي وقلت له وأنا أغالب الضحك بوجوم مصطنع :

«سأقتلك . هل فهمت؟ لن تخرج اليوم من هذا الباب دون أن تعطيني المال» .

«نعم . نعم . ولكن أهدأ» .

«لن أهدأ . أنت خدعتني . لم تقل لي إن إسماعيل حدوب هو صادق زادة يا دجال» .

«ظننتك عرفت» .

«من أين؟» .

«ذكاؤك . كان بإمكانك أن تكتشف ذلك ، فقد كشفت عن أسرار كثيرة» .

«والمال ، هل تريد أن تهرب بالمال؟» .

«المال ليس معي .» وما إن نطق بهذه الجملة حتى شعرت بالدم يصعد إلى رأسي ، فوقفت على قدمي وتقدمت منه ووضعت رجلى على وجهه :

«سأقطع أنفك وأضعه في يدك ، فهمت؟ لو لم تعطني المال هذه الساعة سأضع أثاث الغرفة في مؤخرتك» . فأطلق ضحكة عالية . لحظتها ، ارتخت يداه اللتان تحملان جذعه ، وارتد بقوة إلى الوراء ، فارتطم رأسه على البلاط ، ثم وضع يده على وجهه .

«بالله كف ولا تضحكني . أنت ظريف ، ومشهدك هذا يثيرني ويضحكني فلا أتمالك نفسي حين أسمع هذه الشتائم» .

«هذه الشتائم ليست لإسعادك يا قندرة .» هل فهمت؟ وأخذت أفتش في جيوبه ، وهو يساعدني! فرفعته بقوة عن الأرض ووضعته على السرير الحديدي خلفه ، ومررت يدي في جيوبه وهو يساعدني ، ويدلني على الجيوب السرية في صديريته وجاكيتته .

لم تكن هنالك سوى أوراق مالية عراقية قليلة ، وصورتين خلاعيتين ، ودفتر ملاحظات صغير ، وقداحة عادية ، فانتبهت إلى الحقيبة الجلدية الصغيرة الموضوعة على السرير ، فتحتها وقلبتها على الفراش : كتاب قديم بغلاف سميك متآكل بني اللون ، قنينة عطر «إيف سان لوران» مزيّفة ، وهوية مزوّرة صادرة عن شركة سياحية باسم (يعقوب صالح يعقوب) .

«خذ هذا الكتاب رهينة ريثما أجلب لك المال غدًا ، غدًا الساعة

العاشرة ، انتظرني هنا في الفندق» .

«أي كتاب؟» .

«هذه مخطوطة أصلية يعود تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي» .

نظرت إلى الكتاب ، كان غلافه القديم المتآكل ونوعية ورقه يشبه المخطوطات الأصلية .

«تكذب ، هذه ليست مخطوطة قديمة . إنها مزيفة» .

«بالمسيح غير مزيّفة . مخطوطة . حتى انظر إلى ختم حاجي خليفة ، وصلت إلى الأب أنستاز الكرملي ، اشتريتها من راهب يعمل في الدار بثمن غالٍ جدًا» .

«أنتَ تشتري بثمن يا دجال؟» .

«بالمسيح اشتريتها» .

«ولكن سأدق عنقك لو كانت مزيّفة» .

«نعم سأنتظرك غدًا ، وأنت ستدق عنقي لو هربت بها ولم تأتِ لتأخذ المال ، لأني مهما أعطيتك فلن يساوي ثمن هذه المخطوطة» .

«أنا لست مثلك حرامي» .

«إن شاء الله مو حرامي» . أخذ يختلق لنفسه هيئة غير راضية وهو ينظر إلى ساعة الجيب الموضوعة في صداره .

أخذت المخطوطة وقلبتها ، بينما انشغل حنا بإعادة حاجياته التي قلبتها على السرير إلى الحقيبة . أخذ يسوي جاكيتته ويعيد قميصه إلى بنطاله ، أخرج سيجارة من جيبه ووضعها في فمه ثم أخرج القداحة من الحقيبة وأشعلها . فتركته وأنا أحمل المخطوطة وخرجت دون أن أعلم إن كانت هذه المخطوطة تساوي الثمن المتفق عليه بالفعل لكتابة حياة فيلسوف الصدرية ، أم لا .

كان عليَّ أن أتحقق من أصالة المخطوطة قبل هروب حنا ، فأخذت

التاكسي مباشرة بعد خروجي من الفندق ليقلني إلى «دار المخطوطات العراقية» في الصوب الآخر من نهر دجلة .

كانت الدار بيتًا قديمًا مشيّدًا في الثلاثينيات من الطابوق ، يقع قبالة المنزل الذي كانت تقطنه مسز بيل أيام الاحتلال الإنكليزي لبغداد ، منزل جميل مظلل بالنخيل شيّد على الطراز الكولونيالي . كانت الشمس ساطعة والهواء البارد في الظل يهب بشكل متقطع .

هبطت من التاكسي وهرعت مباشرة إلى الباب ، وطرقته ثلاث طرقات ، ثم انتظرت . . إلاّ أن الباب لم يفتح ، فأخذت أطرق بقوة ، وأهزه بعنف ، وأصرخ بصوت عالٍ :

«افتحوا الباب . افتحوا الباب» .

لقد ارتكبت خطأً ، ولم أدرك ذلك ، كنت أريد التحقق من المخطوطة على عجل ، ولم يدر في خلدي أن أهل الدار ظنوا أني أريد اقتحامها للسرقة ، أو لشيء مريب آخر ، فتحلقوا من النافذة العليا ينظرون نحوي بارتياب واضطراب . كنت أتوسل إليهم وأحاول إقناعهم بأني أريد التحقق من هذه المخطوطة على عجل ، حتى طوّقني الحارسان من الخلف . فتحوا الباب وأدخلوني عنوة هناك .

«ماذا فعلت لأواجه كل هذا؟» .

انتزعوا المخطوطة من يدي وقدموها لشخص نحيل أشيب الشعر ، يرتدي نظارة مدوّرة وله هيئة تشبه هيئة العالم باستور ، فحصها بعدسة كبيرة مكبّرة أمامي وضحك قائلاً :

«مزيّفة» .

عدت مباشرة إلى الفندق ، فعلمت من المصري الذي يحرس قائمة المفاتيح أنه غادر الفندق نهائيًا . سألت عنه في كل مكان إلاّ أني لم أعثر على أثره . وبعد أيام عرفت أنه هرب إلى عمان ، كان قد هدد صادق زاده

بالوثائق التي سرقها من شقتي ، وانتزع منه مالاً كثيرًا ، وسينتظر هناك ريثما يغادر نهائيًا إلى كندا . لم يعد بإمكاني الوصول إليه كما لم يعد بإمكاني مطالبة صادق زادة أو نونو بهار بالمال ، لأني بحماقاتي كدت أقضي عليهما نهائيًا .

ضاعت جهودي كلها تقريبًا ، وفي الأيام التالية أخذت أبحث عن عمل آخر . تنقلت بين أعمال متعددة ، إلاّ أني كنت أدرك في قرارة نفسي ، أن كسلي يمنعني من مزاولة أي عمل عضلي ، ولا تناسبني إلاّ الكتابة . وفي يوم كنت ذهبت مع صديقة لي لحضور حفلة موسيقية للفرقة السمفونية العراقية في القصر العباسي على ضفة النهر في بغداد ، كان الزحام شديدًا ، النساء يرتدين فساتين السهرة ، الرجال بالبابيونات والبذلات السموكن ، قبعات ، غلايين ، جاليات أجنبية ، لكنات من كل نوع ، وحين غابت عني صديقتي لتحتسي الشاي في الحديقة ، اتكأت على عمود طابوقي سميك يهبط من القبة المروسة العالية ، وأخذت أدخن بهدوء . فجأة ربتت يد كتفي ، التفتّ .

كانت نونو بهار وقد تغيرت كثيرًا ، قصة شعر غلامية ، بنطلون ضيق يشبه بنطلون الرجال ، وقميص أبيض فضفاض يهبط إلى أسفل عجزها ، بينما خلا وجهها من المساحيق .

«هلو» .

«هلو ، نونو» فزعت أول الأمر ، لأني كنت أدرك في قرارة نفسي أن صادق لن يسامحني على الخطأ الذي ارتكبته ، وأن الوثائق التي سرقها حنا من شقتي كادت أن تهدمه ، وأنه لا يصدق ما قلته له من أن حنا سرقها ، إنما من حقه أن يشك من أني بعتها إلى حنا على أقل تقدير ، أو على الأقل فإنه لم يصدق أني لم أتآمر مع حنا ضده .

«ميشيل يريد أن يراك» .

« . . . ميشيل؟ من ميشيل؟ قلت باستغراب وأنا أنظر بوجهها الجميل الذي خلا من المساحيق .

«أوه لا تعرف؟ سأعطيك العنوان . نحن بانتظارك غدًا» قالت بتميع ، وهي تتصنع ابتسامة مغرية . فتحت حقيبة جلدية كانت تشدها على وركها ، وأخذت تبحث عن كارت صغير .

«لدينا عمل – قالت – أفضل من ذاك العمل ، وهذه المرة ستكسب الكثير» .

أخذت ألحان الموسيقى تأتي من الصالة وقد خلا الفناء تمامًا من المدعوين ، فجاءت صديقتي على عجل :

«أما ندخل . . . لقد بدأ الكونسيرت» قالت صديقتي والتفتت إلى نونو ، وقد ظننتها صبيًا ، وقبل أن أعرّفها قالت نونو بصوتها الناعم :

«نحن أصدقاء من زمن ، سأترككم ، أنا ذاهبة ، أرجوك سننتظرك غدًا لا تتأخر ، ميشيل بانتظارك» . غادرت وهي تصنع بحركة عجزها دائرة في الهواء .

«من هذا؟» قالت صديقتي .

«لم أعد أعرف» قلت ودخلنا الصالة ، كان المايسترو محمد عثمان يؤشر بقبضته وكأنه يهوي على الأرض .

صباح اليوم الثاني ذهبت وفقًا للعنوان إلى الوزيرية ، اجتزت مقبرة الإنكليز ، دخلت شارع السفارة التركية ، فأصبح المنزل القديم قبالتي تمامًا .

كان المنزل مشيّدًا بالطابوق ، سياجه الأبيض وإفريزه المائل بنيا من قرميد متعرج . كانت هناك بوابة حديدية ضخمة تقود إلى حديقته المربعة الكثة ، وقد امتلأت بالأشجار العالية . حين دخلت واجهني باب خشبي من الصاج ، وعلى كل جانب من الباب كانت هناك نافذة واسعة لها مصاريع خشبية ، وهو ما يشكل في الظاهر واجهة المنزل .

قادني الخادم مباشرة إلى الصالة ، القاعة منجدة بشكل وثير ، أما الموقد فلم توقد ناره قط . لقد غلب على الصالة ذوق رفيع : طاولة أنيقة للغاية ، بيانو صغير ، وحوض لأسماك الزينة التي تدور فاغرة أفواهها موضوع أمام النافذة الواسعة المطلة على الحديقة ، وعلى الجدران هناك لوحات انطباعية ذات ألوان باستيلية ناعمة وقّع عليها رسام عراقي بالإنكليزية باسم (خضر جرجيس) وصورتان فوتوغرافيتان واحدة لسارتر وميشيل فوكو يحمل مكبر صوت ، وأخرى صورة كبيرة لميشيل فوكو وقد وضع يده على فمه ، وأخرى كان يرميها باسترخاء على كتف الأريكة .

«أهلاً وسهلاً» قالت نونو وهي تهبط السلم الذي يقود إلى الصالة ، وأخذتني من يدي إلى طاولة صغيرة موضوعة قرب النافذة الكبيرة المطلة على الحديقة . جلسنا . كانت نونو قد تحولت بشكل لا يصدق إلى غلام ، لقد حلقت شعرها (لا أقول قصته) مثل الأولاد ، وارتدت بنطلونًا وحذاء رجاليًا ، وقميصًا واسعًا لتخفي كبر نهديها ، والأكثر غرابة كانت تدخن سيجارًا بنيًا كبيرًا ، حين تضعه في فمها ، كانت بحاجة إلى فتح فكيها على وسعهما ، وتنفخ في وجهي الدخان الكثيف برائحته القوية ، قدمت لي سيجارًا من علبة خشبية أمامها .

«شكرًا ، لا أدخن هذا النوع» .

«لماذا؟» .

«سيجارة قوية بحاجة إلى رجل مثلك لتدخينها» فأطلقت ضحكة متقطعة .

«جاء ميشيل» قالت ، ونهضت فنهضت أنا أيضًا . لقد صدمت .

كان ميشيل هو إسماعيل حدوب أو صادق زاده ، إلاّ أنه حلق شعره بالموسى تمامًا وارتدى نظارة طبية ذات إطار فضي تشبه نظارة ميشيل فوكو . طوله الفارع ، نحافته وقميصه الأبيض ورأسه الأقرع وعيناه الثعلبيتان . .

تقودك مباشرة إلى الصورة المعلقة على الجدار .

صافحني بطريقة فلسفية ، وتصنع نظرة متفحصة ، ثم جلس . وضع يدًا على فمه مثل ميشيل فوكو ورفع يده الأخرى ليضعها على كتف الكرسي الذي كانت تجلس عليه نونو ، ووراءه مباشرة كانت صورة ميشيل فوكو معلقة على الجدار . كان يبتسم على الدوام ، وهو ينظرني بنظرات فاحصة ، قالت نونو لتكسر دهشتي :

«ميشيل لديه مشروع كبير ، ومثمر ، أنت ستربح الدولارات وهو سيخدم الثقافة العربية» .

«ما هذا المشروع؟» قلت ، وقد تحشرج صوتي .

«مشروع كتاب» قالت .

حرك رأسه الأقرع نحوي ، كان يشبه قطة تتحرك أمام لحمة أرجوانية ، إلاّ أن عصبيته قد تلاشت تمامًا ، وتحدث بطلاقته ليذكرني بتفوقه الفكري .

«لقد قرأت ميشيل فوكو ، لم يعد سارتر مفيدًا للثقافة العربية ، العبث والغثيان لم يستطيعا حل مشاكلنا ، علينا أن نتبع خطة جديدة ، البنيوية هي التي ستحل مشاكلنا ، فأريد كتابة مؤلف يقوم بهذا الشيء ، ما رأيك؟

كنت أشعر بالضيق ولذا قلت له باهتمام فاتر :

«لم أفهم ، من سيكتب الكتاب؟» .

«أنت . .» قال بتململ وقد اصطبغ وجهه باللون القرمزي ، فتدخلت نونو مباشرة ، وبكلفة قليلة لكي لا تبدو أقل إحساسًا من الآخرين .

«أنت ستقبض المال ، وميشيل سيضع اسمه على الغلاف» .

«سيضع اسم ميشيل فوكو على الغلاف» قلت ، وكانت نبرة الاستهزاء واضحة .

«لا ، لا . سيضع اسمه الجديد : بنيوي الوزيرية ، بعدما مات وجودي

الصدرية ، علينا أن نخترع فيلسوفًا لبغداد ، وما هذا الفيلسوف إلاّ بنيوي الوزيرية» .

رجع بنيـوي الوزيرية إلى الوراء ، وأعـاد يدًا إلى فـمـه ، ووضع يده الأخرى باسترخاء على قائمة الكرسي ، ليكون صورة مطابقة تمامًا للصورة المعلقة على الجدار .

«حسن ، ما هذا الكتاب ، ما طبيعته؟» قلت .

«أنت تعرف ، أكيد تعرف . فوكو كتب كتابًا عن تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي ، لقد فضح الثقافة الغربية ، نحن نريد كتابًا مناظرًا له نفضح فيه الثقافة العربية ، سنكتب كتابًا عن تاريخ الجنون في العصر الإسلامي . ما رأيك» .

وقبل أن أنطق بكلمة تدخلت نونو مباشرة :

«ستقبض المال هذه المرة على شكل دفعات» .

«سنعطيك أرباح الكتاب بعد نشره أيضًا» قال الفيلسوف بلكنته الشبيهة بلكنة رجل من الأعيان .

«طيب ، ولكن ستواجهنا مشكلة ، لا أظنكم فكرتم بها» - قلت وقد أخرجت علبة سجائري من جيبي ، فسارعت نونو لإشعال القداحة الموضوعة على المنضدة .

«ما هي؟» قال الفيلسوف وقد أسند ظهره إلى الكرسي .

«من قال إن الحضارة الإسلامية تهمش الجنون؟ أظن أنها لا تهمشه . . لقد بقي المجنون يحظى بمكانة راقية ، والدليل على هذا أنت» قلت ساخرًا فانفجر الاثنان بالضحك .

«هل أنت متأكد؟» قال الفيلسوف وهو يبتسم .

«هل لدية شك؟» قلت .

«أرجوك لا تسخر!» قالت نونو وهي تضع السيجار الأسمر السميك

في فمها .

«صحيح ، صحيح» قال الفيلسوف وقد تصنع بحاجبيه صورة فوكو وهو يفكر «ألا ترى أن الحضارة الإسلامية لم تهمش الجنون ، ولذا فإنها وقعت ضحية للفكر اللاعقلاني ، من أين جاءت اللاعقلانية في حضارتنا ، لا بد أنها جاءت لأن حضارتنا لم تهمش الجنون كما فعلت الحضارة الغربية» .

«فكرة سديدة» قلت له محاولاً التهرب من هذا الموضوع .

«طيب ، سنكتب كتابًا ندين فيه الحضارة الإسلامية لأنها لم تهمش الجنون ، فلو ظهر العقل في حضارتنا ، لتهمش الجنون ، ولأن الجنون لم يهمش لذا أصبحت حضارتنا لا عقلانية» .

«عظيم . عظيم» قالت نونو وكادت تجلس في حضنه من الفرح .

أطلق ضحكة عالية في الصالة ، وصفق بيديه ، ثم نهض من مكانه نحو البار الواقع قرب النافذة ، ونهضت معه نونو ، ثم رقصا من الفرح ، وتطوحا ، وهما يمسكان كؤوس الويسكي لشرب نخب البنيوية على قبر الوجودية .

كان هذا المجنون يحلم بتحول الشعب العربي إلى شعب بنيوي . كان يحلم بكل الشعب العربي من المحيط إلى الخليج وقد حلق الرجال فيه شعورهم تمامًا ، وارتدوا النظارات ذات الإطار المعدني ، بينما حلقت النساء شعورهن بقَصة غلامية وارتدين البنطلونات .

ولكي أهرب من هذا المأزق الذي وضعوني فيه ، ماذا أصنع؟

نهضت وأخذت أرقص معهم ، وأطلق العبارات الطنانة ، وأخذت أشرب معهم نخب ولادة البنيوية ، كنت أصرخ بصوت عالٍ ، أصرخ وأرقص وأتطوح حتى قلبنا الكراسي في الصالة ، بينما كان الخدم ينظرون إلينا بذهول كبير .

وبعدما سقط المجنونان كلاهما على الأرض ، فتحت الباب وأطلقت ساقيّ إلى الريح .

***

كنت أسير في الشارع وأنا أرقب لقلقًا كبيرًا بلونين : أسود وأبيض ، يحط على السفارة التركية بقدم واحدة ، عبرت الشارع الذي يفصل منطقة الوزيرية عن المقبرة الإنكليزية وسرت . وكانت الشمس ناعمة ، وكانت السيارات تنزلق على الشارع بسهولة ، كنت أصغي إلى أصوات باعة الصحف والمجلات ، إلى باعة سجائر المفرّق ، وكانت منبهات السيارات تدوي في الفضاء .

كان يسير أمامي رجل يعتمر عمامة بيضاء ، ويمسك في يده مسبحة سوداء طويلة ، وتسير وراءه امرأة وقد تحولت إلى قطعة سوداء من الأعلى إلى الأسفل ، الفوطة السوداء والعباءة على الرأس ، الحجاب الأسود على الوجه والقفازات السوداء كانت تلف يديها ، صرخ شخص آخر عبر الشارع .

«يا شيخ جمال . . . يا شيخ جمال» .

لا أدري لماذا فكرت لحظتها بجمال الدين الأفغاني ، فكرت بإسماعيل حدوب وقد تأثر بجمال الدين الأفغاني ، فارتدى عمامة بيضاء ، ومسك بيده مسبحة ، وكانت نونو وراءه بالحجاب الأسود الذي غطى وجهها ويديها .

P A P A   S A R T R E

رواية
NOVEL

بابا سارتر

◆ رجال ونساء غريبو الأطوار : عاهرات مثقّفات ، فلاسفة ثوّار ، سياسيّون دجّالون ، مغامرون وعسكر ، يصنعون الحياة الثقافيّة والسياسيّة في شارع الرشيد في بغداد ، حيث المقاهي والملاهي والحانات والأقبية والأوتيلات . رواية تسخر من الجيل الستّينيّ في العراق . حنّا يوسف ذو السحنة الغريبة ، وصديقته الخليعة نونو بهار ، عبد الرحمن الفيلسوف العراقيّ عاشق الفلسفة الوجوديّة وتلميذ جان بول سارتر ، دلال مصابني الراقصة الّتي تقلّبت حياتها بتقلّب السياسة والأفكار في بغداد ، إسماعيل حدوب الوضيع والانتهازيّ الّذي تنقّل من الشيوعيّة إلى الوجوديّة ، شاؤول اليهوديّ الشيوعيّ الّذي يريد أن يقيم على الأرض مملكة السعادة ، إدمون عاشق تروتسكي الّذي كان يريد أن يصنع الثورة ويحطّم كلّ شيء ، نادية خدّوري الجميلة الّتي أصبحت ضحيّة من ضحايا هواة الأفكار والتقليعات الثقافيّة . إنّها بغداد الستّينات بشوارعها الفارهة ، وبتناقضاتها بين زواريب الفقر ومنازل الأرستقراطيّين : عائلات مسلمة ومسيحيّة ويهوديّة تعيش على خلفيّة الأفكار الوجوديّة والشيوعيّة والقوميّة ، وتتناحر على خلفيّة الصراعات الطبقيّة والإثنيّة والسياسيّة ، وتعيش التقلّبات السياسيّة الطاحنة والثورات الدمويّة .

◆ *فازت هذه الرواية بجائزة الدولة للآداب في بغداد ، وجائزة أبي القاسم الشابّيّ في تونس ، وجائزة الإبداع الأدبيّ في الإمارات العربيّة ، وترجمت إلى العديد من اللغات الأجنبيّة .*

علي مولا

ISBN 978-9953-36-895-3
9 789953 368955



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ، ص.ب ٥٤٦٠-١١
http://www.airpbooks.com